تاريخ العرب القديم

والأمم التي تجاورهم

الجزء الأول

تأليف

محمد بخيت الدين

أستاذ التاريخ والجغرافية بدار العلوم

يطلب من مكتبة المنار المنيرية ٧ شارع سيرت القاهرة

حق الطبع محفوظ للمؤلف

١٣٥٢ — ١٩٣٣

مطبعة المنار المنيرية ٧ شارع سيرت القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الامى العربي وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

أما بعد فهذا تاريخ يجمع الى أخبار العرب القدامى ، قصص الامم التى كانت تجاورهم فى جزيرتهم من الاشوريين والبابليين والعبرانيين والفرس والحبشان ، ألفته لطلبة السنة الاولى من دار العلوم وللراغبين فى دراسة التاريخ القديم من المعلمين والمتعلمين ، وجعلته كالجزء الاول أو المقدمة لكتابى (تاريخ الفتح الاسلامى) وقد تحريت فيه أصدق المصادر وأوثقها وأحدث ما وصل اليه بحث الباحثين وتنقيب المنقبين وعززت قضاياه بالمصورات الجغرافية ليكون واضح الدلالة قريب المأخذ سهل الاستذكار والله الهادى الى سواء السبيل ؟

المؤلف

الباب الأول

العرب قبل الأسلام

الأمة العربية أقدم أمم الأرض من بعد قوم نوح ، وأشدهم قوة وآثاراً في الأرض ، وأعظمهم بأساً ، وأعزهم نفساً . والعرب قبل الأسلام هم سكان البلاد التي تضاف إليهم وهي بلاد العرب ، أو جزيرة العرب وإنما سموا بالعرب لأنهم كانوا موسومين بين الأمم بالأعراب وهو البيان . وعلى هذا الرأي ابن خلدون . وقد نقل عن هيرودوت أن العرب القدامى كانوا يسمون بلادهم عربة . ورجح بعض الباحثين أنه مشتق من عرب أي قصد الغرب ، سمي العرب بذلك في نظره ، لارتحالهم من وطن الساميين الأصلي وهو ما بين النهرين إلى الغرب ، إذ اللغة السامية لاغين فيها فعرب ترادف أو تساوي غرب .

﴿ صفة بلاد العرب ﴾

وتسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي في كلها شائع وإن تفاضل ، وأحسن ماقيل في تحديدها ماذكره هشام بن محمد مسنداً إلى ابن عباس قال :

اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام ، وإنما سميت جزيرة لاحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرارها ، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر .

وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم ، فظهر بناحية تنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى عبادان ، وأخذ البحر من ذلك الموضع مغربا مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها ، فأتى منها على سفوان وكاظمة إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر ، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن وانعطف مغربا نصبا إلى دهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن في تهامة ثم اليمن إلى بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك ، ومضى إلى جدة ساحل مكة ، والجار ساحل المدينة ، ثم ساحل الطور وخليج أيله وساحل راية ، حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها .

وأقبل النيل من غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا

للبحر معه ، حتى دفع فى بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فربعسقلان وسواحلها ، وأتى صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين ، حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات منحطا على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق ، فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب ، وفى أشعارها وأخبارها :

تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن

(١) وذلك أن جبل السراة (وهو أعظم جبال العرب وأذكرها) أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادى الشام ، فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو تهامة ، وهو هابط ، وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل فى غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها وغار من أرضها : الغور غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله .

(٢) وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق والسماوة ومايليها : نجدا . ونجد تجمع ذلك كله.

«٣» وصار الجبل نفسه « سراة » وهو الحجاز ، وصار ما احتجز به فى شرقيه من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد وجبلى « طى » إلى المدينة وراجعا إلى أرض مذحج من تثليث وما دونها إلى ناحية فيد : حجازا فالعرب تسميه نجدا وجلسا وحجازا ، والحجاز يجمع ذلك كله .

« ٤» وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاها : العروض ، وفيها نجد وغور ، لقربها من البحار ، وانخفاض مواضع منها ، ومسايل أودية فيها ، والعروض يجمع ذلك كله .

«٥» وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء وما والاها إلى حضرموت والشحر وعمان وما يليها : اليمن ، وفيها التهائم والنجد ، واليمن تجمع ذلك كله.

هذا والسراة كحصاة وجمعه سروات وهى من كل شىء أعلاه.

(٥)

﴿ حالتها الطبيعية ﴾

بلاد العرب شبه جزيرة ربما كانت أكبر أشباه الجزائر فى العالم، وهى أبعد أشباه الجزائر الكبرى بقارة آسيا إلى الغرب، طولها من الشمال إلى الجنوب ١٤٠٠ ميل، وعرضها نحو ٨٠٠ ميل، ومساحتها نحو ١٢٠٠٠٠٠ ميل مربع وشواطئها قصيرة بنسبة مساحتها. لأنها منتظمة غالبا، قليلة الخلجان والموانى الجيدة. على أنها رملية منخفضة على سواحل الخليج الفارسى، صخرية وعرة تجاورها الجزائر المرجانية، والصخور الغائصة تحت الماء قليلا أو كثيرا، على البحر الأحمر، ولا يزيد طولها على ٤٠٠٠ ميل.

والجزيرة على وجه عام نجد كبير، واسع الأطراف، يأخذ فى الانخفاض التدريجى إلى الشرق، حتى ينتهى إلى أرض الجزيرة والعراق وخليج فارس، وقلما توجد ناحية من نواحى هذا النجد يقل إرتفاعها عن ١٥٠٠ قدم، بالنسبة إلى مستوى سطح البحر، بل إن فى بلاد اليمن والجهات الوسطى من نجد، وبلاد عمان، ماهو أرفع من ذلك إلى ٧٠٠٠ قدم، وطائفة كبيرة من هذه الجزيرة مجموعة نجود، وجملة صحارى، وعدة من السلاسل الجبلية، وكل فريق منها يكون ثلث النصف الجنوبى من هذه البلاد.

وصحاريها عامة هى النفود شمالا، وتتصل ببادية الشام، والصحراء العربية الكبرى، أو رمال الأحقاف أو الربع الخالى بالجنوب — والنفود حصباوية صخرية، والأحقاف رملية، والسواحل على وجه عام، سهول منبسطة ولكنها طويلة ضيقة، إذ هى مابين الجبال وشاطىء البحر فقط، وعرضها بين ٤٠، ٨٠ ميلا، وأنهار البلاد صغيرة تجرى من الجبال، وأكثرها وديان تجف أيام الجفاف، بل وتذهب معالمها، وليس فى بلاد العرب عامة نهر يحمل سفينة.

ومناخ البلاد حار على العموم لوقوع أكثرها فى المنطقة الحارة، ولأنها داخلية محرومة من الرياح البحرية، التى تلطف من شدة الحر، وهى أيضا من أجل ذلك جافة، ولأن قسما كبيراً منها يقع فى منطقة الرهو المدارية ذات الضغط العالى، والمطر القليل، والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية

الشرقية، وهي جافة من أجل أنها كلما تقدمت إلى الجنوب، تزيد حرارتها لا تنقص على أنها وهي تمر على بلاد العرب تجيء من الجهات القارية، ولكن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تماثل موسمية الهندستان، تجري اليها صيفا، كما تجري إلى الحبشة، وهي ممطرة، غير أن أمطارها في بلاد العرب، لا تكاد تذكر بجانب مايسقط منها في الحبشة. على أنها قاصرة على بلاد اليمن من جزيرة العرب لارتفاع جبالها. وأكثر أمطار اليمن تقع بين منتصف يونية وسبتمبر وأمطار عمان تسقط عادة بين منتصف نوفمبر وديسمبر، حث تكون الرياح الموسمية شمالية شرقية، وبلاد حضرموت توازي شواطئها هذه الرياح في غدوها ورواحها فلا تمطرها، وبقاع نجد العالية يسقط فيها شيء من المطر أيام الصيف وكل بقعة يسقط فيها المطر من بلاد العرب تكون خصيبة صالحة للأستنبات ولاقامة السكان.

ومن بلاد العرب مالا يسقط المطر فيه إلا كل ثلاث سنوات أو أربع

هذا وطبيعة هذه البلاد الصحراوية، ونقص ماء الشرب فيها نقصا فاحشا، ومناخها الشديد الحر، الشديد الجفاف. كل ذلك لم يستفز الأمم القوية التي تجاور بلاد العرب كالفرس والروم إلى غزوها، والأغارة عليها لتكون مستعمرة لهم، اللهم الا ماحصل في اليمن وحدها تقريبا، وكان ذلك إجابة لطلب أهلها على ماسيجيء.

على أن هذه البلاد نفسها (على فقرها المدقع واختلاف أهلها وتفرق كلمتهم وقلة خبرتهم بالنظم والقوانين التي تجري عليها الأمم المتمدينة) — هي التي تدفق منها سيل التمدين الأسلامي الذي نبه الأعصاب وقد أماتتها الديانات الأخرى وأيقظ العقول التي خدرتها المظالم، فنزعت إلى الانفكاك من هذه القيود الثيقلة ووجدت من الدين الأسلامي وقوانينه عدلا وإنصافا وبابا للحرية مفتوحا على مصراعيه، فدخل الناس فيه أفواجا وصار للمسلمين الذين انبعثوا من بلاد الجدب والفقر والفوضى ملك عظيم منتظم. في بلاد الغنى والثروة والنظام من دول الأكاسرة والقياصرة والخاقانات والله يؤتي ملكه من يشاء.

(٧)

﴿ حالتها الاقتصادية ﴾

النبات : والنبات فى بلاد العرب عامة يماثل مايوجد منه فى الحبشة والسودان ومصر . ومن أشهر ماله قيمة منها : النخيل واللبن ، والتمر فى بلاد العرب ١٢٠ نوعا لكل نوع سعر فى السوق، وعليه اعتماد البدو فى معيشتهم وهم يدخرونه كما تدخر الحبوب .

واللبن أجوده ماينبت فى المقاطعات التى ميناؤها مدينة مخا ، والمقاطعات ذوات المناخ البحرى من اليمن وغيره، تنبت القمح والشعير والذرة، وأنواع الفاكهة: من العنب والتين، والمشمش والخوخ والموز واللوز ، والسمسم يسد مسد الزيتون هنالك فى استخراج الزيت ، وفى جهات مختلفة من البلاد عامة توجد النباتات العطرية: من البلسان والعود عود الند أو القاقلى ، والأشجار ذوات الصموغ: كاللبان والمر والصبر والصمغ العربى ، ثم شجيرات الصباغة : كالنيل والورس والفوه ، ثم اليسر الذى تتخذ من حبوبه المسابح.

وليس فى بلاد العرب عامة غابات واسعة ، لأنها لاتكون إلا مع المطر الغزير ، ولكن مراعيها واسعة الأطراف جداً، ولهذا كانت لهم عناية كبرى بتربية الحيوان .

الحيوان : ولقلة الغابات فى البلاد قلت حيواناتها الوحشية . وإن كان يوجد فى جبالها النمر والضبع ، وابن آوى كما يوجد فى صحاريها النعام والغزلان . أما الحيوانات الأهلية فهى من أهم مصادر الثروة لدى العرب، ومن أهمها : الأبل والخيل ، والضأن والمعز والبقر . وليس لخيل نجد فى البلاد الأخرى نظير يماثلها فى جودتها ، وتناسب أعضائها ، وسرعة عدوها ، وصبرها على التعب وسهولة انقيادها ، وأصالتها ، إذ أنهم يزعمون أن الأصيل منها من اسطبلات سليمان عليه السلام . والجمل سفينة الصحراء ، والعرب تقول فى خرافاتها : أن الجمل والتمر خلقهما الله من طينة الأنسان ، وليس من الحيوان ماهو أقل

كلفة ، وأعظم منفعة من الجمل ، الذى يأكل حسك السعدان ، وما يبس من عشب الصحارى ، وما هو شائك من أغصان الأشجار ، وهو مع هذا يحمل الأحمال الثقيلة ، ويقطع المسافات الشاسعة صابراً على العطش .

والجراد فى بلاد العرب كثير شديد الوطأة ، وفى كل سنة يرحل إلى هذه البلاد من أرض العجم ، طير كالسمان يلتهم الجراد التهاما .

والسمك يصاد من البحار ، وهو فى شواطىء عمان كثير جدا ، ومثله السلاحف البحرية ، ويستخرج اللؤلؤ من جهات عمان ، والمرجان من سواحل البحر الأحمر .

المعادن : ومعادن بلاد العرب عامة قليلة ، والمستخرج مما يوجد منها أقل من القليل ، وأكثر المعادن وجوداً : الفضة والحديد ، والعقيق اليمانى ، والجزع ، وهما من الحجارة الكريمة التى تتخذ حليا .

﴿ التجـــــارة ﴾

والطرق التجارية فى البلاد هى طرق القوافل ، وهى معروفة من قديم بين مكة والشام واليمن ، والعراق ومصر ، وكان لتجارة الحبشة طريق مسلوك من جدة على البحر الأحمر الى القطيف على الخليج الفارسى لجلب اللؤلؤ .

وليس فى البلاد من السكك الحديدية سوى سكة الحجاز وهى من حيفا وبيروت ودمشق إلى المدينة المنورة ، وقد تهدمت الآن ولما تصلح .

وتجارة البلاد الداخلية عظيمة بالنسبة إلى التجارة الخارجية ومن أخص صادراتها : الحيوانات وأشعارها وأصوافها وأوبارها ، ثم البن والتمر والمواد العطرية . وأصناف البخور ويرد إلى بلاد العرب المنسوجات القطنية والسكر والشاهى

أما الصناعات عندهم فلا تكاد تذكر ، وكلها لا تزال بيد الأنسان لا بالآلات ولهم الآن نهضة يرجى أن تكون آثارها عظيمة فى أحوال التجارة والصناعة بهذه البلاد . وأهم موانى البلاد على البحر الأحمر : ينبع ميناء المدينة المنورة وجدة ميناء مكة المكرمة ، ومخا ميناء صنعاء ، وعدن على الخليج المضاف اليها وهى مستعمرة انجليزية ، ثم مسقط على بحر عمان ، والقطيف على الخليج الفارسى ببلاد الأحساء .

هذا والمعروف ان الطواف حول جزيرة العرب بالتجارة أسهل من اجتيازها، لقلة المرافىء، وصعوبة الانتقال من السهول البحرية إلى النجود الداخلية، وكان فى النية مد طريق حديدى يقطع البلاد العربية من الشرق إلى الغرب بين القطيف وجدة. ولا شك أن أثره يكون عظيما إذا صحت الأحلام وأصبح أمراً حقيقا لامن الأمانى ولامن صور الخيال.

سكانها الأولون

جعل المؤرخون هذه الامة العربية ثلاث طبقات: فابن خلدون يقسمها إلى العرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب التابعة للعرب. وغيره يقسمها إلى العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة وسنتبع هذا الرأى الأخير.

فالعرب البائدة: هم الذين بادوا ودرست آثارهم، وحلت محلهم العرب العاربة وهم العرب الحقيقيون. والعرب المستعربة: هم الذين انضموا إلى العرب العاربة من الأمم المجاورة، وليسوا من العرب.

العرب البائدة

وأول من ورد ذكرهم من هذه الطبقة: قوم عاد وكان لهم دولتان دولة عاد الأولى وكانت مساكنهم أحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت وبلاد الشحر: وكان عاد أول من ملك من العرب وطال عمره، وكثر ولده واستطال له الملك ولبنيه من بعده حتى خرجوا من بلادهم غازين فاتحين وامتد ملكهم بما فتحوا من البلاد إلى بلاد الشام وبلاد العراق.

وزمان ملك بنى عاد غير معروف بالضبط. ويقال إنهم كانوا أيام تحتمس الثالث من ملوك الدولة الثامنة عشرة المصرية. ثم أن قوم عاد بعد أن عظم أمرهم طغوا وبغوا، واتخذوا عبادة الأوثان. فبعث الله إليهم رسله فكذبوهم ومنهم أخوهم هود. فوعظهم فمنهم من آمن به وهؤلاء هم الخلخان وقومه الذين كانت منهم عاد الثانية. ومنهم من قال له: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من

الواعظين ، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وأنجى الله هودا والذين آمنوا معه فلبثوا فى اليمن آمنين ، حتى غلب عليهم يعرب بن قحطان .

ومن العرب البائدة ثمود — وكانت ديارهم فى الحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام ، وكانت ذات زرع ، وضرع وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال لا يبنونها بناء . ثم كفروا بالله فارسل اليهم أخاهم صالحا فدعاهم إلى عبادة الله ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من كذب ، وتحدوه أن يأتيهم بآية تدل على صدقه فقال : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

وبعد فقد استندنا فيما جاء من أخبار عاد وثمود على القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد جاء فى أخبار الكلدانيين ما يؤخذ منه أن قوم عاد استولوا على العراق ، ومازالت آثار ثمود ماثلة فى بلادهم تدل فى جملتها على ما كان لهم من قوة وما كانوا فيه من سعة .

ومن البائدة أيضا طسم وجديس وكانت مساكنهم باليمامة ، وكان عليهم ملك واحد من طسم ، وكان أحدهم غشوما ظلوما لا ينهاه شيء عن هواه ، وكان مستذلا لجديس . واتفق أن امرأة طلقت من زوجها وهما من جديس فحكم الملك بأن تباع المرأة ويأخذ الرجل خمس ثمنها . فأعلنت ظلاماتها فى شعر أو نحوه فغضب الملك وأمر ألا تزف بكر من جديس إلى بعلها حتى تزف اليه أولا . فظل الأمر على هذا إلى أن تزوجت الشموس وهى عفيرة بنت غفار أخت الأسود بن غفار فثار الأسود برؤساء جديس وقال : ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغى للكلاب أن تعافه فأطيعونى أدعوكم إلى عز الدهر فقالوا وما ذاك ؟ قال : أصنع للملك وقومه دعوة . فاذا جاءوا نهضنا اليهم

باسيافنا فنقتلهم . فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، ودعوا هذا الملك وقومه فلما حضروا قتلوهم ، وأفلت منهم رباح بن مرة فأتى حسان ابن تبع من تبابعة اليمن مستغيثا . فنهض حسان فى حمير لاغاثته حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل . فقال لهم رباح إن لى أختا فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها وانها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل وأخاف أن تنظر القوم . فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها فى يده و يسيروا ففعلوا و بصرت بهم اليمامة فقالت لجديس : لقد سارت اليكم حمير .فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به وصبحهم حسان وجنوده فأبادهم وخرب حصونهم وبلادهم وهرب الأسود الى جبلى طى ودعا تبع اليمامة التى أبصرتهم فقلع عينها وكانت مدينتهم تسمى جو : فسماها اليمامة وعاد تبع الى اليمن وبقيت اليمامة بعد طسم يبابا لا يأكل ثمرها الا عوافى الطير والسباع حتى نزلها بنو حنيفة ، وبها صبحهم الاسلام .

وخبر القبيلتين على هذا النحو مشهور عند العرب فى أخبارهم وقد رواه ثقات المؤرخين على هذه الصورة ومنهم الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى نقلا عن ابن اسحق وغيره من علماء العرب . ولكنه حديث خرافة غالباً

١ — ومغزاه أن طسما قتلت جديسا لسوء ملكتهم إياهم وجورهم فيهم . فأفلت من جديس من استصرخ بتبع فأجابه وصبح طسما بجنوده فأفناهم ، وبذلك فنى الفريقان واصبحا أثرا بعد عين .

ومن البائدة ايضا العمالقة . وبهم يضرب المثل فى الطول ولم يكن العمالقة أمة واحدة بل كانوا أمما متفرقين فى البلاد فراعنة مصر منهم . وجبابرة الشام (وهم الكنعانيون) منهم . وكان بنو الأرقم بالحجاز ونجد منهم ، وكانت مواطنهم عامة أرض تهامة الحجاز نزلوها ايام خروجهم من بابل أيام النماردة من بنى حام ، ولم يزالوا كذلك إلى ان جاء اسماعيل صلوات الله عليه .

قالوا وتطرد الملك للعمالقة بهذه النواحى حتى كان أخوهم السميدع ، وكان بين العمالقة وبنى اسرائيل حروب الى ان استولوا على الحجاز وانتزعوه من

بين أيدى العمالقة وكان لهم يثرب وبلادها وخيبر . ومن بقاياهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وسائر يهود الحجاز .

أما بقايا العمالقة فكان لهم ملك بعد ذلك فى دولة الروم. ملكوهم مشارف الشام والجزيرة من ثغورهم، وأنزلوهم فى التخوم مابينهم وبين فارس. ويقال إن منهم عمرو بن الظرب الذى قتله جذيمة الأبرش واستولى على ملكه على ما سيجىء .

وسنقتصر على ما ذكرنا من العرب البائدة

﴿ العرب العاربة ﴾

وهؤلاء هم الذين يعرفون بالقحطانيين أى أنهم من نسل قحطان أو يقطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ويعرف هذا الجيل من العرب بالسبئية واليمنية وليس بين الناس خلاف فى أن قحطان أبو اليمن كلهم، وقحطان أول من قيل له أبيت اللعن وأول من قيل له عم صباحا ، وكان بنو قحطان هؤلاء معاصرين لأخوانهم من العرب البائدة ومظاهرين لهم على أمورهم ولكنهم كانوا فى مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذى كان لأولئك .

وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب يقال إنه أول من حياه قومه بتحية الملك، وهو الذى غلب عاد الثانية على اليمن وملكها كما غلب العمالقة على الحجاز وولى أخاه عاد بن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على أرض عمان، ومع أن بنى قحطان غلبوا عادا على اليمن فانهم لم يفنوهم بل عاشت بقية منهم مع القحطانيين فى اليمن ، وهاجرت بقية أخرى إلى الحبشة ومن جراء هذه الهجرة نشأت العلاقة بين لغتى البلدين

وملك بعد يعرب ابنه يشجب فاستبد عماله بما فى أيديهم من الممالك واستقلوا لأنه لم يك قويا كأبيه .

وملك بعده ابنه عبد شمس ويسمى سبأ وهو صاحب مدينة سبأ وسد مارب ، وسنقص خبرها فيما بعد ، وسبأ أول من تتوج من ملوك العرب

وكان لسبأ كثير من الولد ، وأشهرهم : حمير وكهلان والأولون أهل الأمصار والآخرون أهل الوبر وكان للحميريين من الملك أعظمه ، وقد علا صيتهم حتى ذكرهم اليونان والرومان أيام غزوهم العرب على عهد أغسطس قيصر — وكان منهم التبابعة على ماستري وكان حمير فيما يذكر المؤرخون أجمل أهل زمانه وأفرسهم ، قيل إنه أول من تتوج بالذهب ومال ملكه وكثر ولده ، فلما مات وثب أخوه كهلان على الملك ، ولكن أبناء حمير استردوه وما زالوا يرثون الملك كابراً عن كابر حتى اضطربت أحوالهم وصاروا طوائف إلى أن استقر فى الحرث الرائش وبنيه وهم :

﴿ التبابعة ﴾

هؤلاء التبابعة كانوا ملوكا فى عدة عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد ، وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى مابعد عنهم أو يقتصرون على يمنهم ، فاختلفت أحوالهم وانفقت أسماء كثيرة من ملوكهم ووقع اللبس فى نقل أيامهم ودولهم : قال المؤرخون ولم يكن الملك منهم يسمى تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ، وإلا سمى ملكا .

وأول التبابعة باتفاق: الحرث الرائش وقد ذكروا أنه راش الناس بالعطاء وكان يسمى تبعا وعمر فى الملك طويلا ، ثم ملك بعده ابنه ذو المنار سمى بذلك لأنه كان يرفع المنار ليهتدى بها ، ثم ملك بعده ابنه عمرو ، ثم تتابع الملك فيهم إلى أن ملكتهم بلقيس صاحبة الصرح فتنازلت عن الملك لسيدنا سليمان فحكم اليمن ، وملكه من بعده ابنه رحبعم ثم استعاده التبابعة فكان منهم ملوك كثيرون منهم حسان بن تبع الذى أباد طسما وغيره ممن فى أنسابهم إختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة ولم يصح منها إلا القليل

لاختلاف رواتهم وبعد العهد بهم .

ولم يكن لملوك اليمن نظام ، وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكا على مخلافه لايتجاوزه ، وإن تجاوز بعضهم مخلافه بمسافة يسيرة ، من غير أن يرث الملك عن آبائه أو يرثه أبناؤه عنه ، وقد يخرج أحدهم عن مخلافه ويبعد فى العزو والاغارة فيصيب مايمر به ، ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى مكانه من غير أن يدين له أحد من غير مخلافه بالطاعة أو يؤدى اليه خراجا .

وممن اتفق الأخباريون عليه منهم ذو نواس الذى تغلب على ملك آبائه التبابعة وتسمى يوسف، وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن (١) وأراد أهل نجران عليه ، وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى دينهم واستقامة ، وكان رئيسهم فى ذلك يسمى عبدالله بن التامر ، وكان هذا الدين قد وقع اليهم من أحد أتباع الحواريين الذى وصل الى نجران ونشر المسيحية فى هذه النواحى عامة، وظل أهلها مستمسكين بدينهم حتى دخلت عليهم فى دينهم الأحداث ، ودعاهم ذو نواس الى دين اليهودية فأبوا فسار اليهم فى أهل اليمن وعرض عليهم القتل فلم يزدهم الاجماحا فخدد لهم الأخاديد ،وقتل وحرق حتى أهلك منهم عددا كبيرا ، وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس سلك الرمل على فرسه وأعجزهم فذهب الى قيصر يستصرخه على ذى نواس ويستنصره. فقال : بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك ، وكتب الى النجاشى يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر فأرسل سبعين ألفا وأمر عليهم رجلا منهم وهو أرياط ومعه أبرهة الأشرم ، فخرجوا وعبروا البحر بالسفن ونزلوا ساحل اليمن، فجمع ذو نواس حمير ومن أطاعه من أهل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، ولما رأى مانزل به

(١) يقال فى سبب تعصبه لليهودية أنه أحس وقدر أى نجاح قيصر الروم فى نشر المسيحية فى الحبشة أن هذا القيصر يحاول ذلك فى اليمن أيضا ليستولى عليها .

وبقومه وجه فرسه فى البحر ثم ضربه فدخل به فخاض ضحضاح البحر حتى أفضى به الى غمره فأدخله فيه وكان هـذا آخر العهد به، ووطىء أرياط أرض اليمن وضبطها وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك بها ، ثم انتقض عليه أبرهة فوقع القتال بينهما وقتل أرياط فاستولى أبرهة على الجند والبلاد وعلم النجاشى فغضب على أبرهة وحلف لا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ويجز ناصيته ، فأرسل الى النجاشى من تراب اليمن ومن شعر ناصيته ، وكتب اليه بالطاعة ليبر قسمه بوضع التراب تحت قدميه ، فرضى عنه النجاشى فاستبد ابرهة بملك اليمن وأساء السيرة فى حمير ورؤسائهم ، وذهب زوج رجل من حمير يسمى ذايزن فولدت له ابنه مسروقاً ، وكانت قد ولدت لذى يزن ولدا اسمه معد يكرب وهو سيف بن ذى يزن

قصة سيف بن ذى يزن

ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى بقية ذلك السلف وعقب اولئك الملوك ، وكان ابرهة قد انتزع والدته من أبيه ذى يزن ظلما، فخرج سيف وقدم على قيصر وشكا اليه أمر الحبشة وطلب أن يخرجهم ويبعث على اليمن من يشاء من الروم فلم يسعفه وقال : الحبشة على دين النصارى، فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا اليه ، فاستمهله النعمان الى حين وفادته على كسرى ، ثم أوفده معه وسأله النصر على الحبشة وأن يكون له ملك اليمن . فقال بعدت أرضك عن أرضنا . أوهى قليلة الخير ، أنما هى شاء وبعير ، ولا حاجة لنا بذلك ، ثم كساه وأجازه ، فنثر دنانير الاجازة فنهبها الناس « يوهم سيف بذلك الغنى عنها بما فى أرضه ، » فأنكر عليه كسرى ذلك فقال سيف جبال أرضى ذهب وفضة ، وأنما جئت لتمنعنى من الظلم ، فرغب كسرى فى ذلك وأمهله للنظر فى امره . وشاور أهل دولته فقالوا فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم ، فان هلكوا كان الذى

اردت بهم ، وإن ملكوا كان ملكا ازددته الى ملكك ، واحصوا ثمانمائه فقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأعلاهم حسبا ، وهو وهرز الديلمى .

ولما تم لكسرى انوشروان ذلك أمر بحملهم فى ثمانى سفن. فركبوا البحر فغرقت منها سفينتان وخلصت ست إلى ساحل عدن ، ولحق بسيف من قومه هنالك بشر كثير ، فسار مسروق بن ابرهة إليهم فى ١٠٠٠٠٠ من الحبشة وأوباش اليمن فتواقفوا للحرب وجعل وهرز البحر خلفه ، وأحرق كل مامعهم من زاد وكسوة ، وأحرق السفن لئلا يطمع أصحابه فى النجاة وليعلموا أنه الموت ولا وجه يؤملون المفر إليه فيجهدون انفسهم ، وقال لهم : إنما أحرقت ذلك لئلا يأخذه الحبشان إن ظفروا بكم ، وإن نحن ظفرنا فسنأخذ أضعافه ، ثم عبى أصحابه وأمرهم أن يوتروا قسيهم وأقبل مسروق بن ابرهة فى جمع لا يرى طرفاه وهو على فيل وعلى رأسه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء ، فقال وهرز إرفعوا إلى حاجبى وكانا قد سقطا من الكبر . فرفعوهما بعصابة ، ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته فاستدارت الحبشة به وحملت الفرس عليهم . فلم يك دون الهزيمة شىء ، وقال وهرز كفوا عن الحرب واقتلوا السودان ولاتبقوا منهم أحداً ، وسار وهرز حتى دخل صنعاء وغلب على بلاد اليمن وأرسل عماله فى المخاليف وكتب إلى كسرى بذلك وبعث إليه بالأموال فكتب إليه أن يملك سيف بن ذى يزن ، على فريضة يؤديها كل عام ، فولاه . وانصرف وهرز إلى كسرى وجعل على جماعة الفرس باليمن نائباً .

وملك سيف اليمن وانفرد بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان ووفدت عليه مشيخة قريش وعظماء العرب لعهدهم من أبناء إسماعيل وأهل بيتهم المنصوب لحجهم ، فوفدوا فى عشرة من رؤسائهم فيهم عبد المطلب ، وسأله عن بنيه حتى ذكر له شأن النبى صلى الله عليه وسلم وكفالته إياه بعد موت عبد الله أبيه عاشر ولد عبد المطلب ، فأوصاه به ، وحضه على الأبلاغ فى القيام عليه ، والتحفظ به من اليهود وغيرهم ، وأمر إليه البشرى بنبوته ،

وظهور قريش قومه على جميع العرب ، وأثنى جوائز هذا الوفد بما يدل على شرف الدولة وعظمها،وبعد غايتها وغناها وثروتها ؛ وقد قيل أنه أجاز سائر الوفد بمائة من الأبل،وعشرة أعبد وعشر وصائف وعشرة أرطال من الورق والذهب،وكرش ملىء من العنبر وأضعاف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب

وأقام سيف على اليمن أربع سنين يغزو الحبشة ويقتل ويبقر بطون النساء حتى إذالم يبق إلا القليل جعلهم خولا وجمازين يسعون بين يديه بالحراب

فلماتوسطهم وعظم خوفهم منه ، فخرج يوما وهم يسعون بين يديه وقد انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه ووثب رجل منهم على الملك ،فلما بلغ كسرى بعث وهرز فى أربعة آلاف من الفرس وأمره أن يقتل كل أسود أو منتسب إلى أسود ولو جعدا قططاً ، ففعل ، وقتل الحبشة حيث كانوا .

نتيجة الاستعانة بالأجانب

(١) ازالة الملك عن أهل الوطن ، وذلك أنه لما فرغ وهرز من أمر الحبشة فى المرة الثانية كتب إلى كسرى فأمره على اليمن الخ .

(٢) النفوذ فى بقية الأوطان ، وذلك أن كسرى تمكن من أن تجوس قوافله خلال ديار العرب وما كان يجرؤ على شيء من ذلك ، فكان وهرز يبعث العير إلى كسرى بالأموال و الهدايا والطيور ، فتمر على طريق البحرين تارة وعلى أرض الحجاز ونجد أخرى .

ولقد عدا بنو يربوع من تميم فى بعض الأيام على عيره وهى فى طريق البحرين من عند وهرز إلى كسرى بالهدايا والأموال والطرف الثمنية ،فذهب أصحاب العير إلى هوذة بن على ملك اليمامة من بنى حنيفة ، فسار معهم إلى كسرى فتوجه (ومن ثم قيل له ذو التاج) تمهيداً للانتقام من بنى يربوع، فلما تم له ذلك كتب إلى عامله بالبحرين فانتقم من هؤلاء شر انتقام . قيل إنه احتال عليهم بالميرة وبعث مناديا ينادى إن الأمير يقسم فيكم ، فتسايلوا عليه من كل ناحية ودخلوا الحصن فقتل الرجال وخصى الصبيان :

وعدا البراض بن قيس من كنانة على قافلة كسرى وهى تقصد الحجاز وكانت فى جوار رجل من أشراف هوازن وهو عروة الرجال ، فوقعت بين كنانة وقيس (هوازن) حروب الفجار التى استمرت عشرين سنة والرابعة منها وهى الأخيرة حضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

(٣) الاستعمار على حسابهم : وذلك أنه لما صارت اليمن إلى كسرى ، اطمأن إلى هذه الناحية، وأراد أن يفتح فى الشرق كما فتح فى الغرب؛ فارسل قائدا من قواد سيف أو وهرز أو قواده هو إلى بلاد الهند، ففتح سرنديب ، وحمل إلى كسرى منها أموالا عظيمة، وجواهر قيمة.

هذا وقد ملك بعد وهرز ابنه المرزبان فابناء ابنائه إلى أن تولى باذان فلم يزل والياً إلى أن كانت البعثة النبوية وأسلم باذان وفشا الأسلام باليمن

فأمره على اليمن ، فكان يجيبه أموالها حتى هلك وأضيفت البلاد إلى الفرس فورثوا ملك العرب وسلطان حمير باليمن بعد أن كان العرب يزاحمونهم بالمناكب فى عراقهم ، ويجوسونهم بالغزو خلال ديارهم ، ولم يبق للعرب فى الملك رسم ولا طلل ، إلا ما كان بالبدو لحمير وقحطان ، وإلا ما كان لأخوتهم من كهلان بأرض العرب من ملك آل المنذر من لخم على الحيرة والعراق بتولية من فارس ، وملك آل جفنة من غسان على الشام بتولية آل قيصر كما يأتى

﴿ غزو الحبشة الكعبة ﴾

إن أبرهة لما ملك اليمن بنى القليس بصنعاء وهى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها وكتب الى النجاشى بذلك ، وقال لست بمنته حتى أصرف اليها حاج العرب ، وتحدثت العرب بذلك ، فخرج رجل من بنى فقيم وأتى القليس فقعد فيها ثم لحق بأهله وسمع أبرهة وقيل له إن الذى فعل هذا رجل من أهل البيت الذى يحجه العرب بمكه . فغضب وحلف ليسيرن اليه ويهدمه ، فخرج سائراً بالحبشة وهم أصحاب الفيل ، ولما قدم الطائف خرج اليه رجال بنى ثقيف وقدموا اليه الطاعة . وبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق ، وبعث أبرهة نفر

الى مكة،فساق أموال أهلها،وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، ثم أرسل آخر وقال له: سل عن سيد قريش ، وقل له : أنى لم آت بلادكم لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تمنعوا عنه فلا حاجة لى بقتالكم، فقال عبدا لمطلب : مانريد حربه وهذا بيت الله ، فانطلق به الى أبرهة ، فلما رآه أجله ، وقال له:سلنى ياعبد المطلب فسأله فى الابل،ففال له:هلا سألت فى البيت؟ فقال:أنا رب الأبل ، وللبيت رب سيمنعه . فرد عليه إبله ، فعاد عبدالمطلب وأمر قريشاً بالخروج من مكة الى الجبال والشعاب للتحرز فيها،ووقف بباب الكعبة وهو يقول: لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك لايغلبن صليبهم.ومحالهم ابدا محالك:

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ،فارسل الله على الحبشة طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ،كانت لاتصيب أحداً منهم الا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرج من سلم مع ابرهة هراباً يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه وأصيب أبرهة فى جسده فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

ونزل عبد المطلب غداً من الجبال فلم يسمع حسا ودخل معسكرهم فرأى القوم هلكى فنادى فى الناس فتراجعوا

قال بعض أهل السير : وإن الحصبة والجدرى أول مارؤيافى بلاد العرب بعد الفيل،فلعل ذلك سند من يقول إن هذه الطير كانت ملوثة بالحمأ المسنون المملوء بجراثيم الأمراض الوبائية . وأنه قد اتفق طيرانها فوق الجيش الحبشى فكانت وهى ترنق بأجنحتها ، تساقط منها القطع الصغيرة من ذلك الحمأ فانتشر الوباء فيهم من جراء ذلك ، واذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

﴿ مأرب وسدها ﴾

مأرب بلاد الأزد باليمن أو اسم قصر كان بها أو اسم لكل ملك يلي سبأ، كما أن تبعا اسم لكل ملك يجمع الى اليمن بلاد الشحر وحضر موت ، وقيل هي اسم مدينة سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك اليمن فيما يقال . وكانت من أحسن مدن اليمن ، موقعها الى الشمال الشرقي من صنعاء حاضرة اليمن الحالية ، وبينهما ثلاث مراحل ، وكانت طيبة الهواء، عذبة الماء، موفورة المتنزهات ، يأتيها ماء المطر من مسيرة ثلاثة أيام ، ولا تزال أطلالها موضع آمال المنقبين لاستقاء أخبار الماضين من الأحجار والآثار .

وسد مأرب من بناء سبأ أو بناء حمير أو لقمان بن عاد، وهو بين ثلاثة جبال، يصب ماء السيل إلى موضع واحد منها، وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكأن هؤلاء الذين نسب اليهم بناء السد قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص ، فيجتمع ماء عيون هناك مع مايختص من مياه السيول ، فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقى زرعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة ، وحركات مهندسة، فيسقون ثم يسدونه إذا أرادوا .

والسدود التي من هذا القبيل معهودة في البلاد التي لايقع مطرها إلا في فصل معين من السنة ، وليس فيها أنهار جارية كاليمن ، ففيها من آثار هذه السدود التي تنشأ لأدخار المياه إلى وقت الحاجة اليها ، عدد كثير يعد بالمئات، ويقال إنهم لم يتركوا واديا من أودية بلادهم إلا حجزوا سيله بسد، وكان لكل سد اسم، ولكن سد مأرب كان أعظمها .

وقد جاءت أخبار هذا السد في قصص العرب وأشعارها المأثورة ، وجاء القرآن الكريم ببيان ماأصاب القوم هنالك من جراء انطلاقه ، وماصارت اليه بلادهم من الجدب بعد الخصب ، ومن البؤس بعد النعيم .

وقد جد علماء الأسلام في استقصاء أخباره ، فتم لهم شيء كثير من ذلك،

وجاءت أخبار المستشرقين مؤيدة أكثر ماقاله المسلمون فى وصفه وبيان وضعه وأبعاده .

وقد قطع هذا السد واديا عظيما يخرج من الجبال الشرقية من صنعاء ويتجه إلى الشمال الشرقى ناحية مأرب ، وقبليها يعترض هذا الوادى جبلان أحدهما من الشمال والثانى من الجنوب ، فيضيق الوادى عندهما كثيراً ، فجاء القدامى فى هذا المضيق وبنوا سداً من الحجارة العظيمة ، حجزوا به ماء الوادى من أن يتسرب إلى رمال الصحارى الشرقية ، وكان يصب فى هذا الوادى جملة أودية تنصرف اليه من جبال السراة — ولا يزال قسم من جانبه الأيمن باقيا إلى الآن ، ويؤخذ من هذا الباقى أن ارتفاع السد كان نحو ١٠ أمتار : وأنه كان مصمتا لاعيون فيه إلا من ناحيتى الجبلين . أى من طرفيه فقط ، وأن هذه العيون كانت عليا وسفلى ، ولكل فريق منهما مزاياه فى رى الأراضى العليا أو المنخفضة .

أما من بنى هذا السد فيقال : بنته بلقيس ، ويقال : بل بناه حمير أبو القبائل اليمنية كلها ، وقيل : بناه لقمان الأكبر ، وجعله فرسخا فى فرسخ ، وقيل (وهو الأصوب) إنه من بناء « سبأ » وأنه ساق إليه سبعين واديا وانه مات قبل اتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده ، قال ابن خلدون . وإنما رجحناه لأن المبانى العظيمة والهياكل الشامخة لايستقل بها الواحد .

والذى وفق إليه الباحثون ، هو مارجحه ابن خلدون .

وأما تهدمه فان القرآن الكريم يذكر ماملخصه : أن سبأ أعرضت عن عبادة الله تعالى ، فأرسل عليهم هذا الماء المحجوز وراء هذا السد ، فاجتحف بلادهم وجعلها من الجدب بحيث لم يبق فيها إلا القليل من السدر والأثل .

ومما يؤثر عن العرب فى أخبارها عن خراب سد مأرب وقصة سيل العرم : أنه خرب أكثر بلاد كهلان بن سبأ وعامة أرض حمير بن سبأ .

وكان ولد حمير وكهلان سادة اليمن فى ذلك الزمان ، وكان عمرو بن عامر كبيرهم وسيدهم وهو جد الأنصار ، فلما مات صارت الرياسة إلى أخيه عمران بن عامر

وكان له ولأخيه من الحدائق والجنان، مالم يكن لأحد من قحطان، وكان فيهم امرأة كاهنة، فأقبلت على عمرو وهو فى نادى قومه، وأقسمت ليقبلن الماء كالبحر إذا طمى، فيدع أرضكم خلاء، فسألها متى يكون، فقالت: بعد ست، قال لها: قد فجعنا بأموالنا! قالت: فاحرسوا السد لئلا يمتد، فانطلق عمرو إلى السد فى نفر من قومه حتى أشرفوا عليه فاذا الجرذان تحفر فيه — فلما رأوا ذلك علموا أنها قد صدقت، فانصرف عمرو ومن كان معه، فلما استقر فى قصره جمع وجوه قومه ورؤساءهم وأشرافهم، وحدثهم بما رأى، ثم عرض ضياعه وعرض قومه ضياعهم، فاشتراها منهم بنو حمير بأغلى الأثمان وارتحل عمرو بأبنائه وأبنائهم وبقوم من الأزد. فجاء السيل بعد رحيلهم بعد بده فغرق البلاد، حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم، إلا ما كان فى رؤس الجبال العالية، والأمكنة البعيدة، ووهت الضياع والحدائق، والجنان والدور والقصور وجاء السيل بالرمل وطمها، فهى على ذلك إلى اليوم.

والظاهر من هذه القصة على العموم أن السد انطلق حقاً، و إن القوم هنالك أهملوا ترميمه على طول الأيام حتى لانت بعض صخوره، او نقبت من جراء ملامستها الماء مدة طويلة، وبذلك أصبحت للجرذان مأوى تستطيع أن تحفر فيها أجحارها، وأن الكاهنة نبهت القوم الى وهن السد، فأرادوا أن يتداركوه، فلم يتح لهم ذلك إذ كان وقت ترميمه قد فات، فعلموا أنه لامفر لهم من الهلاك إلا بالهجرة من طريق الماء، فهاجروا، وتفرقوا عباديد «لا واحد له» أى فرقا فى البلدان نذكرهم على النحو الآتى:

(١) بنو ثعلبة بن عمرو بن عامر، وهؤلاء انتهوا إلى المدينة فاستوطنوها بين اليهود، ثم أجلوا اليهود عنها واستخلصوها لأنفسهم فابتنوا فيها الآطام وغرسوا فيها النخل، فهم الاوس والخزرج وهم أيضا الأنصار.

(٢) بنو حارثة بن عمرو: وهؤلاء انخزعوا عن بنى عمهم فافتتحوا الحرم وسكانه جرهم، فأجلوهم عن الحرم إلى الحل، فهم خزاعة (وقد حقق العلامة ابن خلدون أن خزاعة ولاة الحرم قبل قريش من قمعه بن الياس بن مضر فهم

عدنانيون لاقحطانيون

(٣) عمران بن عامر مزيقيا : وقد اتجه نحو عمان فنزلها ومنهم أزد عمان. وسكان البحرين.

(٤) نصر بن الأزد ومن انضم اليه :وهؤلاء ساروا نحو تهامة فأقاموا بها،وشنئوا قومهم أو شنئهم قومهم،إذ لم ينصروهم فى حروبهم بمكة مع جرهم وبالمدينة مع اليهود ، فهم أزد شنوءة.

(٥) بنو جفنة بن عمرو بن عامر : وهذا سار مع بنيه الى الشام، فملكوها فهم الغسانيون الذين ملكوا الشام بمد بنى سليح من قضاعة ، وكل هؤلاء من الأزد ، والأزد لكهلان بن سبأ.

(٦) طى . وهم الحى الثانى من بنى كهلان ،وقد خرجوا من اليمن على أثر الأزد الى الحجاز ،وغلبوا على جبلى أجا وسلمى ،فاستقروا بهما ، ومن طى. إياس بن قبيصه الذى ولى أمر العراق بمد المناذرة .

«٧» لخم : وهم بنو لخم بن عدى بن عمرو بن سبأ وهم شعوب وقبائل. منهم بنو نصر بن ربيعة آل المنذر أخوال عمرو بن عدى بن نصر وهو ابن أخت جذيمة الوضاح.

هذا وأما قضاعة« على الخلاف فى أنهم لحمير أو لعدنان » فأنهم كانوا ملوكا فى بلاد الشحر،ثم ملكوا نجران، فغلبهم عليها بنو الحرث بن كعب بن الأزد، فهاجروا الى الحجاز من جراء ذلك ، ودخلوا فى قبائل معد ، ومن أجل هذا نسبوا الى عدنان ــ والصحيح أن أم قضاعة مات عنها مالك بن حمير وهى حامل بقضاعة،فتزوجها معد، وولدت قضاعة فى حجره ، فتكنى به ونسب اليه

ولقضاعة بطون كثيرة منهم جهينة،وسليح،وتغلب ،وبنو أسد، قضاعة وبنو كلب،والنمر وغيرهم.

العرب المستعربة

وهم الطبقة الثالثة من طبقات العرب، وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وكان اسماعيل عبرانيا، فلما نشأ أولاده بين العرب استعربوا، فلهذا سمو بالمستعربة .

وأصل نزول اسماعيل بمكة ما هو معروف : من أن والده هاجر به ومعه أمه من الشام أو من مصر، الى مكة ، ثم الى الشام ، ونشأ إسماعيل وتربى بمكة وكان بها قبائل جرهم، فتزوج منهم امرأة ولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا ، كان كل واحد منهم أبا قبيلة، ثم انقرضوا جميعاً . فلم يبق منهم غير عدنان وبنيه ومن أجل هذا تعرف هذه الطبقة بالعدنانية .

وعدنان من ولد اسماعيل باتفاق النسابين ، وإن كان الآباء بينه وبين اسماعيل فيهم خلاف كبير فى عددهم وفى تربيتهم.

وكانت مساكن بنى عدنان فى نجد ، وكلها بادية رحالة ، الا قريشاً بمكة، ولم يزاحم بنى عدنان فى نجد أحد من قحطان الا طى من كهلان فيما بين الجبلين أجا وسلمى ، وافترق من عدنان شعوب فى الحجاز وتهامة، والعراق والجزيرة . ومعد بن عدنان هو الذى تناسل منه عقب عدنان جميعاً.

ولمعد وعدنان خبر مع بختنصر طويل يتلخص فى أنه أمر أن يغزو العرب فيقتل مقاتليهم، ويسبى ذراريهم ويستبيح أموالهم ، عقوبة لهم على كفرهم وقتلهم الانبياء: قتل أهل الوبر منهم بناحية عدن نبيهم شعيباً وهو غير شعيب مدين، فجمع بختنصر خيلا بين أيله والأبلة، وبدأ بمن فى بلاد العراق من تجار العرب فأخذهم، وبنى لهم حيراً فى النجف وحبسهم فيه، ووكل بهم أناسا . وانتشر الخبر فى العرب فخرجت اليه طوائف منهم مستأمنين فقبلهم وعفا عنهم، فأنزلهم سواد فيمن فابتنوا الانبار — وسار الى العرب بنجد والحجاز فلقيه عدنان ، الخبر فى اجتمع اليه بذات عرق واقتتلوا كثيراً فانهزم عدنان ومات عقب ذلك وعاد بختنصر الى بابل وجمع السبايا فأنزلهم الأنبار ثم الحيرة ، أما معد ابنه فقد

نقل الى العراق، وكان له اثنتا عشر سنة ، ثم عاد الى مكة بعد موت بختنصر مع أنبياء بنى اسرائيل للحج، وبقى هناك فى قومه من بنى عدنان الذين لحقوا بطوائف اليمن وتزوج فيهم ، فتزوج بنت الحرث بن مضاض الجرهمى أو بنت احد أولاده فولدت له نزار بن معد وولد نزار أربعة نذكر منهم:

(١) مضر — وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر بنى عدنان ، وكانت لهم رياسة بمكة ، وكان لمضر بن نزار ولدان : الياس وقيس عيلان فمن قيس بنو غطفان من عبس ، وذبيان وفزارة من ذبيان : وسليم وهوازن ، ومن الياس مدركة واخوته وبنوهم من خزاعة ومزينة وتميم ، وهذيل وأسد وكنانة وقريش ، وهم ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركه :

(٢) ربيعة — وديارهم مابين الجزيرة والعراق ، ومن ربيعة بن نزار : أسد بن ربيعة ومنه جديلة وبنوه من عبد القيس سكان هجر وأرض البحرين، وأبناء عمهم من النمر بن قاسط و بكر وتغلب ابنى وائل وأهل الجزيرة الفراتية، فمن بكر بنو حنيفة أهل اليمامة والعدد فى اليمامة : ومن بكر مرة بن ذهل بن شيبان أبو جساس وهمام

ومن تغلب عمرو بن كلثوم : ثم كليب ومهلهل ابنا ربيعة بن الحرث التغلبى

هذا — ولما كثر نسل معد فى ربيعة ومضر وإياد تدافعوا الى العراق والشام والجزيرة فديارهم هنالك ، وكان لبنى مضر رياسة بمكة حتى افترقوا قبائل ، فكان الامر فى كنانة، ثم فى قريش على ماسيجىء.

***

وإذ فرغنا من ذكر طبقات العرب الثلاث، فلنذكر شيئا من الفوارق بين العدنانية والقحطانية مع العلم بأن من المؤرخين من يقول أن قحطان من ولد اسماعيل فيكون العرب جميعاً من ولد عدنان لأن قحطان وعدنان يستوعبان شعوب العرب كلها .

والمخالفون لهذا الرأى يذكرون أن فروقا بين القحطانية والعدنانية إذا روعيت تهدم هذا الرأى من أساسه، وبيانها:

(١) أن القحطانيين كانوا ملوكا لهم ممالك ومدن أى أنهم كانوا أهل حاضرة دائماً ، سواء أكان ذلك لهم فى اليمن أم فى البلاد التى رحلوا إليها كما هو شأن مناذرة العراق لأنهم من لخم وغساسنة الشام لأنهم بنو جفنة والأوس والخزرج فى المدينة لأنهم من بنى عمرو بن عامر ، وعمرو هو مزيقيا وعامر هو ماء السماء.

وكانت لغتهم الحميرية التى تعلموها من آبائهم الأولين من العرب العاربة وكانت ديانتهم ديانة الصابئة الذين يعتقدون أن للنجوم سلطانا على البشر.

(٢) وأن العدنانيين كانوا أهل حل وترحال أى انهم كانوا بادين يتنقلون بخيامهم لا مدن لهم ولا ملك ، وإنما كانت لهم رياسة بدوية ، ظلوا تابعين إلى غيرهم إلى أن نبضت عروق الملك فى مضر وظهرت قريش بمكة ونواحى الحجاز أزمنة دانت الدول فيها بتعظيمهم لأنهم أهل بيت الله إلى أن صبحهم الأسلام فكانت فيهم الدول الأسلامية .

وكانت لغتهم العربية التى تختلف عن لغة اليمن وإن كانتا من أصل واحد وظل اليمنيون لا يفهمون لغة نجد والحجاز حتى رويت أشعار الشعراء وانشئت الأسواق للمفاخرات وكانت عبادتهم غالباً الأوثان يتخذونها من الاحجار ، قال بعض المؤرخين والأصل فى ذلك أنهم كانوا ظعائن لا يقيمون فاعتادوا فى أسفارهم حمل شىء من أحجار الحرم يطوفون بها إذا أحلوا تبركا بالبيت حتى أفضى بهم ذلك إلى عبادة الأحجار ولذلك كانت بعض أسمائهم تضاف الى آلهتهم هذه : كعبد مناف أو تكون أسماء للحيوانات التى كثيرا مايقع بصرهم عليها كأسد وكلب وثعلبة وذلك كله يخالف الأسماء عند اليمنيين أو القحطانيين غالبا — وقد قيل لبعضهم لم تسمون ابناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وتسمون عبيدكم بأحسن الاسماء ، فقال : انما نسمى ابناءنا لأعدائنا . ونسمى عبيدنا لأنفسنا ، أى إن الابناء عدة الأعداء

مملكة الحيرة

لما مات بختنصر انضم الذين كان أسكنهم الحيرة من العرب إلى الانبار، ومعهم من انضم اليهم من بنى اسماعيل وغيرهم . وبقيت الحيرة خرابا ، فغبروا بذلك زمنا طويلا لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ، ولا يقدم عليهم قادم ، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب وملئوا بلادهم من تهامة وما يليها ، فرقتهم حروب وقعت بينهم ، وأحداث حدثت فيهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام ، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد كانوا نزلوا أيام خروج الأزد من اليمن.

وكان الذين أقبلوا من تهامة مالك وعمرو ابنافهم من قضاعه ، وابن أخيهما مالك بن زهير فى جماعة من قومه الأزد ، وجماعة من بنى معد بن عدنان وبنى إياد ، فاجتمعوا بالبحرين ، وتحالفوا على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التوازر والتناصر ، فصاروا يدا على الناس ، وضمهم اسم تنوخ فكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر.

وتنخ عليهم بطون من لخم — ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش الى التنوخ معه وزوجه أخته ، فتنخ جذيمة وجماعة من كان هنالك من قومه الأزد ، وكان اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين أزمان ملوك الطوائف بفارس ، الذين كان ملكهم قليلا ومتفرقاً ، وكان كل واحد منهم يغير على صاحبه ، فتطلعت نفوس من كان بالبحرين من قبائل العرب إلى ريف العراق ، وطمعوا فى غلبة الاعاجم عليه أو مشاركتهم فيه ، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من اختلاف فأجمع رؤساؤهم المسير الى العراق

(١) فكان أول من طلع منهم فصائل من العدنانيين ومن معهم فوجدوا الأرمانيين بنى أرم بن سام ، «وهم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل» يقاتلون الأردوانيين من ملوك الطوائف ، فدفعوهم عن سواد العراق وانتشروا فى عرب الحيرة والأنبار ، وإلى هذه الفصائل العدنانية ينسب

عدى بن ربيعة جد بنى المنذر عند نسابة مضر (٢) ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وحلفائهم حتى نزلوا الانبار وغلبوا بنى أدم ورفعوهم عن جهات السواد ،(٣) وجاء على أثرهم لخم وغيرهم من قبائل كندة نجدة ، فنزلوا الحيرة : فلم يزالوا جميعاً هنالك لايدينون للأعاجم ولا تدين لهم الاعاجم ، (٤) ثم ورد عليهم كثير من طى وتميم وبنى لخيان من جرهم نزلوا مابين الحيرة والانبار بادين فى الخيام لايأوون الى المدن ولا يخالطون أهلها وكانوا يسمون عرب الضاحية وأول ملك من العرب هنالك أزمان ملوك الطوائف : مالك بن فهم وأخوه عمرو ثم جذيمة الأبرش

مالك بن فهم

وهو من قضاعة خاصة وكان يسمى ملك تنوخ ، ولما استقر له الملك اتخذ له قصراً وبستاناً ، وتابعه قومه على بناء الدور والمنازل حتى صارت الحيرة مدينة من المدن بعد أن كانت مجرد حصن من أيام بختنصر — ويعتبر مالك بن فهم أول من ملك قضاعة فى العراق ، وبعد أن ملك ٢٠ سنة مات من رمية رماها به أحد خزاعه الذين تربوا فى نعيمه ويسمى سلمة بن مالك . فلما تبين لمالك أنه هو الذى رماه تمثل

جزانى لاجزاه الله خيراً سليمة أنه شراً جزانى
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

عمرو بن فهم

وقد تولى بعد أخيه وسار سيرته ونزل منازله وهابته قبائل العرب هنالك وبعد أن حكم طويلا مات

جذيمة الأبرش

وهو ثالث التنوخيين وآخر من ملك من تنوخ قضاعة — وهو ابن مالك ابن فهم وقيل ابن اخته وأنه من العاربة الأولى ، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية وهو أول من استجمع له الملك

بارض العراق ، وضم اليه قبائل العرب وجند منهم الجنود فكان له جيش منظم مختار ،غزا به الجهات المتنائية من بادية العراق وقراها وجبالها وحكم أهلها — وسار الى اليمامه لاخضاعها فوجد حسان بن تبع قد اجتاحها . وهو أول من عملت له المجانيق للحرب من ملوك العرب ، وأول من رفع بين يديه الشمع . وقد قصده الشعراء ووفدت اليه الوفود ، وكان شاعراً بليغاً ، كما كان متكهناً وادعى النبوة ، وكان له صنمان يقال لهما الضيزنان وكانت منازل إياد بعين أباغ فكان كثيرا مايغزوهم حتى طلبوا مسالمته ، وكان بينهم غلام من لخم من بنى أختهم يقال له عدى بن نصر بن ربيعة . له جمال وظرف ، طلبه منهم فامتنعوا فألح عليهم بالغزو ، وبعثت إياد من سرق صنميه ،وعرفوه أن الصنمين عندهم ، وأنهم يردونهما بشريطة رفع الغزو عنهم ، فأجابهم إلى ذلك بشريطة أن يبعثوا مع الصنمين عدى بن نصر : فكان ذلك،فلما جاء عدى استخلصه لنفسه فجعله كاتبه وولاه شرابه ، وراسلته رقاش وهى أخت جذيمة فدافعها بالخشية من جذيمة — فأشارت عليه بأن يخطبها منه إذا أخذت الخمر منه . ويشهد عليه القوم ، ففعل وأعرس بها من ليلته ، وأصبح مضرجا بالخلوق ، وراب جذيمة شأنه فأعامه عدى بما كان فعض يديه أسفاً ، وهرب عدى فلم ير له أثر ولم يسمع له خبر ، ثم سألها فى أبيات من الشعر معروفة ، فأخبرته بما كان منه ، فعرف عذرها وكف . وحملت رقاش ثم ولدت غلاماً وسمته عمرا فربى عند خاله جذيمة الذى أحبه وجعله مع ولده وطوقه ، فكان أول عربى لبس طوقا : ثم انه اختفى ،خطفه جماعة من البدو طمعاً فى حليه وبالغوا فى كتمانه ،فطلبه جذيمة فى الآفاق زماناً فلم يقدر عليه فقيل استهوته الجن مبالغة فى عدم عثورهم عليه ، لا أن الجن اختطفته حقاً ، وظل على هذا حتى رد عمرا على خاله وافدان من قضاعة وهما مالك وعقيل فسر بعمرو وسرت أمه ، وحكم الرجلين فطلبا منادمته وكان من تجبره لاينادم أحدا و يزعم أن الفرقدين نديماه وكان إذا شرب قدحا صب لهما قدحين فأسمعنهما فكانا ينادمانه إلى آخر أيامه .

﴿ جذيمة وعمرو بن الظرب ﴾

وكان ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن الظرب العمليقى، تحارب هو وجذيمة فقتل عمرو وانهزمت عساكره، وعاد جذيمة سالما، وملكت الزباء بعد أبيها عمرو، واسمها نائلة وهى التى يضرب بها المثل فى العزة فيقال أعز من الزباء وكانت قد اتخذت لها قصرين أحدهما على الفرات والثانى بتدمر، ولما استحكم لها أمرها أجمعت أخذ الثأر من جذيمة بأبيها فبعثت اليه توهمه الخطبة، وأنها امرأة لايليق بها الملك ليجمع ملكها إلى ملكه فطمع فى ذلك، ووافقه قومه، وأبى عليه منهم قصير بن سعد من لخم وكان حازما ناصحا، وحذره عاقبة ذلك فعصاه، واستشار ابن اخته عمرو بن عدى فوافقه فاستخلفه على قومه وسار جذيمة على شاطىء الفرات الغربى إلى أن نزل رحبة مالك بن طوق، فأتته الرسل من الزباء بالألطاف والهدايا، ثم استقبلته الخيول، فقال له قصير: إن أحاطت بك فهو الغدر، فلما رأى قصير أن الخيل أحاطت به ركب فرسا لجذيمة كانت تسمى العصا ونجا، أما جذيمة فظل حتى دخل على الزباء فقطعت رواهشه، وهى عروق ظاهر كفه، فسال دمه حتى نزف ومات، وبقتل جذيمة انتهت مدة التنوخيين من قضاعة فى الحيرة وابتدأت مدة جديدة كان فيها الملك لآل نصر من اللخميين، وأولهم

﴿ عمرو بن عدى ﴾

وهو عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر (وأكثر المؤرخين يقولون فيه نصر بن ربيعة) اللخمى وكان جده من ملوك اليمن فرأى رؤيا هالته وفظع بها، فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه اليه، فدله بعضهم على الكاهنين سطيح وشق فقص عليهما رؤياه فعبراها بأن السود سيملكون اليمن بعد حين، فوقع فى نفسه ماقالا، فجهز بنيه وأهل بيته بما يصلحهم وكتب إلى ملك من ملوك الطوائف فأسكنهم الحيرة، فمن بقية ولد ربيعة بن نصر هذا ملوك المناذرة بالعراق — أما عمرو بن عدى هذا فقد سبق بيان أصله ونشأته وتربيته وأنه ابن أخت جذيمة، وهو أول من تجده

أهل الحيرة فى كتبهم من ملوك العرب بالعراق : وإليه ينسبون ، وهم ملوك آل نصر أو آل عمرو بن عدى أو المناذرة ، وقد ملك عمرو فى العراق مستبداً ، لايدين لملوك الطوائف ولا يدينون له ، وكان يغزوهم وينال منهم ويغنم، كما كانت تفدعليه الوفود ، إلى أن ملك الفرس أردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية فى بلاد العجم ، فانه لما تم له أن يجمع ملك آبائه على ملك واحد ، رجع إلى أمر العرب ، وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة ، وكانوا ثلاث فرق

الاولى تنوخ : ومنهم قضاعة الذين كانوا يسكنون غربى الفرات بين الحيرة الأنبار فى بيوت من الشعر والوبر ، وهؤلاء أنفوا من الاقامة افى مك أردشير فخرجو الى البرية ولحقوا بالشام بأخوتهم من قضاعة .

والثانية العباد: وهم قبائل شتى اجتمعوا على النصرة بالحيرة، وكانوا يسكنون منازلها ودورها، وسموا بذلك لأنهم من عبد القيس ، وقيل لأنهم عبدوا الله بعد أن كانوا يعبدون الأصنام ، وقيل لأنهم انتسلوا من أربعة فى اسم كل واحد منهم عبد .

والثالثة الأحلاف : وهم الذين نزلوا بالعباد وهم من غير نسبهم . ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا لهم ـ فملك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار، وكان منهم عمرو بن عدى وقومه الذى ملكه أردشير، فاتخذ الحيرة حضرة لملكه. وكانت دار الملك من قبله مرة فى الحيرة ومرة فى بلدة تسمى بقة على الفرات ، وقد استوزر قصير بن سعد كما استوزره جذيمة من قبل . فكان أشد أعوانه على الملك، كما كان أكبر أنصاره فى تدبير الحيلة لقتل الزباء والأخذ بثأر جذيمة .

وبيان ذلك أن قصيراً بعد أن نجا على العصا كما سلف . كان قد قدم على

عمرو بن عدى ، وقد اختلف عليه قومه ، فأصلح أمرهم حتى انقادوا له ، وأشار عليه بطلب الثار من الزباء بخاله جذيمة ـ وكانت الزباء قد بعثت مصورا يصور لها عمرا فى جميع هيئاته من قيام وقعود ، وركوب ونوم ومشى ، فسار متنكرا ، واختلط بحشم عمرو ، وجاء إليها بصورته فاستيبنته .

وكانت قد اتخذت إليها نفقا فى الارض من مجلسها إلى حصن داخل مدينتها ، تلجأ إليه للدفاع عن نفسها إذا فاجأها ماتخشاه ، وعمد عمرو إلى قصير فجدع أنفه بمواطأة منه ، أو أن عمرا نفسه فعل هذا بنفسه وضرب ظهره حتى ظهرت آثار الضرب على جلده ، فلحق بالزباء يشكو لها ما أصابه من عمرو ، وأنه اتهمه بمداخلة الزباء فى جذيمة ، وقال لها مارأيت بعد مافعل معى ، انكى له من أن أكون معك ، فاكرمته وقربته ، حتى إذا رضى منها الوثوق به ، أشار عليها بالتجارة فى طرف العراق وأمتعته ، فأعطته مالا وعيرا ، وذهب إلى العراق ولقى عمرو ابن عدى بالحيرة ، فجهزه بالطرف والأمتعة كما يرضيها ، وجاءها بذلك ، فازدادت به وثوقا ، وجهزته بأكثر من الأولى ثم عاد الثالثة . وحمل ثقات عمرو وجنوده فى غرائر أو صناديق على الجمال وعمرو فيهم ، وتقدم فبشرها بالعير وبكثرة ماحمل إليها من الطرف ، فخرجت تنظر . فأنكرت مارأته فى الجمال من الثقل إذ تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض ، ثم دخلت العير المدينة فلما توسطتها انبعثت وخرج الرجال فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، ودل قصير عمرا على باب النفق فبادر إليه ، وأقام على بابه فلما أحست الزباء الخطر سارعت إلى النفق فوجدت عمراً قائماً عنده فعرفته بالصورة ، ثم تناولت سماقيل كان فى خاتمها وقالت « بيدى لا بيد عمرو » فلحمها بالسيف وقتلها وأصاب ماأصاب من المدينة وعاد إلى العراق

وبعد فهما تعددت الروايات فى تفصيل هذه القصة فانها تدل على أن الزباء قتلت خذيمة خدعة، وأن عمرا أخذ بثاره منها خدعة .

امرؤ القيس البدء

وهو ابن عمرو بن عدى ، وكان ملكا على مملكة أبيه بالعراق ، ثم ضم إليه بهرام بن هرمز سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز ، وهو أول من تنصر من ملوك الحيرة وطال ملكه، لأنه استمر إلى أيام سابور ، وقد وفق الباحثون إلى العثور على قبره بجهات حوران من أرض الشام ، ووجدوا على بعض أحجاره نقوشا استدلوا من قراءتها على اسمه، فاستنبط بعضهم أن سلطانه امتد إلى هذه النواحى .

وملك بعده ابنه عمرو، فرجل من العمالقة قتله أحد اللخميين. ثم عاد الملك إلى آل نصر بولاية امرىء القيس بن عمرو ، والأخبار عن هؤلاء الثلاثة قليلة جداً وربما كان سبب قلتها أنهم لم يخرجوا للغزو ولا للفتح . إذ أن مايسجل فى تاريخ أمثالهم هو قيادة الجنود والهجوم على البلاد المجاورة لضمها إلى الملك .

النعمان بن الشقيقة

وأمه شقيقة بنت ربيعة بن ذهل بن شيبان ، ومن أجل هذا يقال له النعمان بن الشقيقة وهو صاحب الخورنق والسدير ، وهما قصران بالحيرة فأما الخورنق فعلى ثلاثة أميال منها وأما السدير ففى برية فى الغرب منها « وأصل الخورنق بالفارسية خورنقاه ومعناه موضع الأكل والشرب والسدير البيت ذو القباب بناهما النعمان ويقال فى سبب بنائهما : أن يزدجرد بن سابور كان لايعيش له ولد فسأل عن مكان صحيح الهواء فذكر له ظهر الحيرة

فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق فبناه ، بناه له رجل يسمى سنمار من الروم . فلما فرغ من بنائه ، عجب النعمان من حسن بنائه وإتقانه . فأمر أن يلقى سنمار من أعلى حتى لايبنى مثله لأحد . ويقال إنما فعل ذلك لأنه لما أعجبه شكره على عمله ووصله ، فقال :لو علمت أن الملك يحسن إلى هذا الأحسان لبنيت له بناء يدور مع الشمس كيفما دارت ، فقال له النعمان : وإنك لتقدر على أن تبنى أفضل منه ولم تبنه ؟ فأمر به فطرح من أعلاه — وقيل بل قال : أنا أعرف فيه حجراً متى أخذ من موضعه تداعى البناء ، فخاف النعمان إن هو لم ينصفه فى أجرته أن يفعل ذلك فقتله ،والعرب تضرب المثل بفعل النعمان مع سنمار فى المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح .

وأما العلماء بأخبار الفرس فيقولون : إن الذى تولى تربية بهرام هو المنذر بن النعمان لا النعمان بن امرىء القيس هذا،ولذا تؤخر أمر بهرام إلى أن نذكر المنذر .

كان النعمان هذا قد غزا الشام مراراً ، وغنم منها وسبى ، إذ كان له جيش منظم ، وكان ملك فارس قد جعل له كتيبتين ، يقال لأحداهما دوسر ، وهى من العرب ويقال للثانية الشهباء ، وهى من رجال الفرس ، فكان يغزو بهما الشام ومن لم يدن له من العرب ، وقالوا بل كان له خمس كتائب :

(١) الرهائن : وهم خمسمائة رجل من قبائل العرب يوجههم فى مهام أموره ويتغيرون كل سنة .

(٢) الصنائع : وهم جماعة ينتخبون من بنى ثعلبة خاصة كالحرس لايبرحون بابه .

(٣) الوضائع : وهم ألف رجل من الفرس يستخدمون فى نصرة العرب ويستبدلون بمثلهم كل سنة .

(٤) الأشاهب : وهم إخوة الملك وبنو عمه وتوابعهم .

(٥) الدواسر : وكانوا من جميع قبائل العرب الأقوياء ، للغزو والفتك « واشتقاق الكلمة من الدسر وهو الطعن »

ومع هذا فأنه جاء فى آخر أيامه وزهد فى الدنيا وترك الملك ولبس المسوح وذهب فلم يوجد له أثر .

وسبب ذلك فيما قالوا: أنه أشرف يوماً من الخورنق على النجف ومايليه من البساتين والنخل والأنهار والجداول مما يلى المغرب ، وعلى الفرات مما يلى المشرق ، فأعجبه مارأى فقال لوزيره أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه فقال: مارأيت مثله لو كان يدوم ، قال فما الذى يدوم ؟ قال : ماعند الله ، قال : فبم ينال ذلك ؟ قال : بترك هذه الدنيا ، وعبادة الله والتماس ماعنده ، فترك ملكه فى ليلته وتنسك فى الجبال والفلوات فما رؤى بعد ذلك .

وكان النعمان وثنيا ولكنه غير متعصب للوثنية ، إذ حدثت فى أيامه فتنة بين العرب من الوثنيين والنصارى ، فانتصر للمسيحية وحمى أتباعها وبنى ماخرب من أديرتها وبيعها ، مما يدل على أنه ملكا عادلا منصفا.

المنذر الأول

وهو المنذر النعمان بن امرىء القيس ، تولى الملك بعد أن تركه أبوه وتزهد . وكان ملكا مطاعاً قوى السلطان ، شديد البأس وهو الذى تولى تربية بهرام جور ملك الفرس فى رأى العلماء بأخبارهم ، وذلك أن يزدجرد كان لايعيش له ولد ، وكان قد أصاب ابنه بهرام علة فى صغره ، فأشار عليه الأطباء أن يخرجه إلى أرض العرب ، فدفعه إلى المنذر ليربيه من الرضاعة فما فوقها ، فرباه وعالجه حتى برأ من علته وأحضر له المعلمين والمربين فعلموه القراءة

والكتابة والرماية والفروسية — ولما مات يزدجرد كرهت الفرس أن تولى ابنا له لسوء سيرته ومذهبه ،وقالوا ان بهرام ابنه قد نشأ ببلادالعرب ولاعلم له بالملك ، وأجمعوا على أن يملكوا رجلا غيره لمرباه بين العرب وخلوه من آداب العجم ولسوء سيرة ابيه فيهم وملكوا رجلا من عقب أردشير بن بابك ، فانتهى هلاك يزدجرد وتمليك من ملكوه إلى بهرام،فدعا بالمنذر وابنه النعمان وناس من أشراف العرب وعرفهم إحسان والده إليهم ، وشدته على الفرس ، وأخبرهم الخبر، فقال المنذر: لايهولنك ذلك حتى ألطف الحيلة فيه ، وجهز ابنه النعمان بعشرة آلاف ، وأمره أن يعسكر على مقربة من حاضرة الفرس طيسفون ويرسل السرايا ، وسار المنذر بعده بيوم فى ثلاثين ألفا من فرسان العرب ، فلما رأى الفرس مارأوا من كثرة العدد، اجتمعوا بالمنذر وذكروا فظاظة يزدجرد وأنهم لذلك صرفوا الملك عن ولده ، فقال بهرام أسأل الله أن يملكنى لأصلح ماأفسد . ومع هذا فاذا أتى على ملكى سنة ولم أف بما أعد. تبرأت عن الملك طائعا ، فأذعنوا له ورضوا به ملكا ، وسألوا المنذر ليكلم بهرام بالعفو عن عظمائهم وأشرافهم الذين كانوا قدصرفوا الملك عنه ففعل، وعاد المنذر بجيشه منصوراً وله منزلة عظمى فى نفس بهرام خاصة ونفوس الفرس عامة ، فكان نافذ الكلمة فيهم ، وكان للعرب فى أيامه صولة وبخاصة عرب الحيرة .

وكان للمنذر مع بهرام جور أعمال عظيمة ضد من يريد به سوءاً أو يتحرش به من أهل دولته أو الدول التى تجاور دولته .

ومن ذلك أن الروم أغارت مرة على بلاده انتصارا للمسيحيين الذين اضطهدهم بهرام ، وطمعا فى أن يضموا شيئا من بلاد الفرس إلى الروم ، فلما نشبت الحرب بين الأميين وحاصر الروم مدينة نصيبين من أرض الجزيرة، استنصر بهرام بالمنذر ، فزحف المنذر بجيش من العرب قاتل به الروم وانتصر

عليهم وطردهم عن نصيبين ، ثم أوغل إلى سورية فاكتسحها ، وبالغت جنوده فى الغزو والنهب ، حتى اضطرب أهل قسطنطينة خشية أن يصل إلى مدينتهم فاضطر ملك الروم إلى طلب الصلح ، وعاد المنذر إلى العراق بالغنائم ظافرا منصوراً .

وملك بعد المنذر الاول خمسة من الملوك قضوا أكثر أيامهم فى الحرب مع الغسانيين ومع بنى بكر وتغلب ، وإطفاء الثورات ، وغيرذلك من الأمور التى لافائدة من سردها .

﴿ المنذر بن ماء السماء ﴾

وهو المنذرالثالث ابن امرىء القيس الثالث ابن الاسود بن المنذرالاول. تولى الملك بعدوفاة أبيه، وأمه ماء السماء ماوية بنت عوف من بنى النمر بن قاسط، وكانت صبيحة مليحة أو كريمة فلقبت بماء السماء ، ونسب ابنها المنذر إليها .

و أنه نسب إلى ماء السماء كناية عن كثرة عطاياه التى ملأت رحب الأرض كما يفعل ذلك المطر العام . وكان يلقب أيضا بذى القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره.

وهو من أشهر ملوك الحيرة وأكثرهم غزوا وفتحا . وكان فى أيام قباذ ملك الفرس الذى ظهر على عهده مزدك صاحب مذهب الاباحة وتبعه قباذ وتعصب له، وحمل الناس على اعتناق مذهبه ، ومنهم أتباعه من الملوك كالمنذر هذا فأراده على أن يدخل فيما دخل فيه غيره فأبى فتغير عليه قباذ وخلعه.

وكان الحرث بن عمرو بن حجر ملك كندة ينافس المنذر فى السيادة على العرب سكان الشمال : فاغتنم فرصة مابين قباذ والمنذر ، وتقرب من قباذ باعتناقه المزدكية ، فخلع قباذ المنذر ، وولى مكانه الحرث على الحيرة وقواه بالجنود ثم حصلت الثورة فى فارس ، واستطار شررها فاختفى المنذر أيام قباذ كلها حتى هلك وتولى بعده كسرى أنوشروان فقتل مزدك وأنصاره وأعاد المجوسية .

واقبل المنذر عليه فبالغ فى إكرامه وأعاده إلى الملك بالحيرة فسار المنذر بفرسان من تغلب وإياد ، إلى الحرث فى الأنبار فبلغه الخبر ففر بأهله وماله وتتبعه المنذر فأفلت من يده الى بنى كلب . وبذلك استولى على أمواله ، وأسر بنو تغلب جماعة من بنى حجر فيهم مالك وعمرو ابنا الحرث فأمر المنذر بقتلهم ، وكان امرؤ القيس الشاعر مع هؤلاء الاسرى فأفلت ، وقال فى حادثة قتل الأسرى من قومه

ملوك من بنى عمرو بن حجر يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ولكن فى الدماء مرملينا

وعمل المنذر للانتقام من بنى كلب لأنهم آووا الحرث حتى قتل ، فسعى بين بنيه بالفساد . ليشفى مافى صدره من الحرث حتى قتل سلمة بن الحرث أخاه شرحبيل . وتوالت الفتن فأدرك سلمة أن المنذر أراد أن يقتل بعضهم بعضا ، فلجأ إلى بنى تغلب فأشار عليهم المنذر باخراجه من ديارهم ، فالتجأ الى بنى بكر ابن وائل . فبعث اليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته فأبوا فسار اليهم ، وانتصر عليهم ، وأمر باسراهم فذبحوا على جبل هنالك ، وأراد أن يحرق النساء فنهاه رجل من قيس بن ثعلبة فأطلقهن .

يوم عين أباغ : وهو بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج ملك الغسانيين ، وسببه أن المنذر سار من الحيرة فى معدكلها حتى نزل بعين أباغ وأرسل إلى الحرث الأعرج : أما أن تعطينى الفدية فانصرف عنك بجنودى ، وإما أن تأذن بحرب ، فأرسل إليه الحرث . أنظرنا ننظر فى أمرنا ، فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليه يقول : إنا شيخان فلا تهلك جنودى وجنودك ، ولكن يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك ، فمن قتل خرج عوضه . واذا فنى أولادنا خرجت أنا اليك فمن قتل صاحبه ، ذهب بالملك

فتعاهدا على ذلك . وعمد المنذر إلى رجل من شجعان قومه فأمره أن يخرج بين الصفين ، ويظهر أنه ابن المنذر ، فخرج اليه ابن الحرث فسارع بالعودة إلى أبيه وقال إن هذا ليس بابن المنذر ، إنما هو عبده أو من شجعان أصحابه : فقال له يا بنى أجزعت من الموت ؟ ما كان الشيخ ليغدر ، فعاد وقاتل فقتل ، فأمر الحرث ابنه الآخر أن يأخذ بثأر أخيه فقتل ، فقال أحد أتباع المنذر وكانت أمه غسانية : أيها الملك إن الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين ، فغضب المنذر وأمر باخراجه فلحق بعسكر الحرث وأخبره . فلما كان الغد عبى الحرث أصحابه وحرضهم واقتتلوا قتالا شديداً قتل فيه المنذر وملك الحرث قنسرين وكانت للمناذرة .

الحرب مع الروم : زحف المنذر بجيش عربى إلى الروم نجدة لكسرى مرتين : أحداهما طلب فيها جوستنيان ملك الروم مصالحة كسرى إذ كان مشتغلا بالفتح فى أوربا وافريقية ، فصالحه كسرى على شروط رضياها والثانية حينما رأى كثرة ما فتحه الروم ورأى أن التوازن الدولى قد اختل باتساع ملك الروم ، فأوعز إلى المنذر أن يتعرض بالحرث ملك الغسانيين ، وأن يوغل فى سورية ، وكان بين المنذر والحرث طريق للماشية بجهات تدمر ، فزعم المنذر أنها له وادعى الحرث أنها طريقه ، فاتخذ المنذر ذلك ذريعه إلى إعلان الحرب على الحرث ، وزحف بجيوشه وأمده كسرى فأوغل فى سورية وانتصر الروم للحارث ، وبذلك وقعت الحرب بين الدولتين العظيمتين ، وحمل كسرى على سورية والأناضول وتسامع أهل القسطنطينية فخافوا أن يفتح المشارقة مدينتهم فأشاروا على قيصرهم بالصلح فتصالح الفريقان — وعاد كسرى منصوراً وعاد المنذر بالغنائم بعد ان عقد الصلح هو وملك غسان .

الغريان ويوم البؤس والنعيم :— الغريان مثنى غرى وهو البناء الحسن ، وسنذكرهما على ماجاء فى إحدى الروايات .

كان للمنذر نديمان من بنى أسد فشرب ليلة معهما فغلب عليهما الشراب فراجعاه فى بعض الكلام وأغضباه ، فأمر وهو سكران بأن يحفر لهما بظاهر الحيرة ويدفنا حيين ، فلما أفاق من سكره وعلم ، ندم وحزن حزنا شديدا ، وأمر ببناء صومعتين عليهما ـ وجعل لهما يوم نعيم ويوم بؤس .

وقيل أن الغريين بناهما الحرث الغسانى ملك الشام لا ببنيه الذين قتلا غدر فى الحرب بينه وبين المنذر ، بناهما فى الحيرة بعد أن انتصر على المنذر وقتله فى جهات قنسرين .

ومن تمام الرواية الأولى أنه كان يضع سريره بينهما ، فاذا كان فى يوم نعيمه . فأول من يطلع عليه يعطيه مائة من الابل .

وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يأمر بذبحه ثم يطلى بدمه الغريين ، ولبث على هذا زمنا طويلا فبيناهو فى يوم من أيام بؤسه ، إذ طلع عليه العبيد بن الأبرص الأسدى الشاعر ممتدحا ، فشق على المنذر قتله ، ولكنه لم ير بداً من أن يبر بقسمه ، وقال لابد من الموت ولو عرض لى أبى فى هذا اليوم ، وقال له العبيد إن كنت ولابد قاتلى فاسقنى الخمر ، حتى إذا ذهلت لها وماتت مفاصلى فشأنك وما تريد ـ فلما سكر أمر به ففصد وطلى بدمه الغريين .

ثم اتفق له بعد حين أن طلع له فى يوم بؤسه حنظلة بن أبى عفراء الطائى ، وكان له على المنذر فضل : إذ التجأ اليه فى يوم شديد فآواه وأكرمه وهو لا يعلم ، حتى أصبح فعرفه نفسه وقال له أنا الملك المنذر فاطلب ثوابك فقال أفعل ـ ثم أصابت حنظلة نكبة وساءت حالته فلفتته امرأته إلى الملك المنذر ، فأقبل حتى وصل الحيرة ووافى الملك ، وكان ذلك يوم بؤسه ، فلما نظر إليه المنذر ساء ، ذلك وقال ياحنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم ؟ فقال حنظلة أبيت اللعن ، لم يكن لى علم بما أنت فيه ، فقال لوسنح فى هذا اليوم إبنى لم أجد بداً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا ، وسل مابدا لك ، فانك مقتول لامحاله ،

فقال حنظلة: إن كان لابد منه فأجلنى حتى اعود إلى اهلى ، فأوصى إليهم ، وأقضى ما على ثم انصرف إليك ـ قال فأقم كفيلا ، فوثب إليه قراد بن أجدع الكلبى وقال على ضمانه . فأمر المنذر لحنظلة بما أمر وانصرف ، فلما حل الموعد ولم يبق من الأجل إلا يوم ، جىء بقراد ليقتل فرأوا شبحا من بعد فانتظروه حتى يتبين فاذا به حنظلة ، فلما نظر إليه المنذر قال له ماجاء بك وقد أفلت من القتل ؟ قال الوفاء : قال وما دينك قال النصرانية ، فمال المنذر إليها وعفى عن حنظلة وأكرم قراداً وقال ما أدرى أيكما أكرم وأوفى . أهذا الذى نجا من السيف فعاد إليه ، أم هذا الذى ضمنه ؟ وأنا اكون ألأم الثلاثة ، وأبطل تلك العادة من يومه وتنصر وتنصر معه أكثر أهل الحيرة .

﴿ عمرو بن هند ﴾

وهو ابن المنذر بن ماء السماء . أمه هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر الكندى ، وهى عمة أمرىء القيس الشاعر ـ وكان من أعظم ملوك الحيرة وأشهرهم واشدهم بأسا . وكان فى عصر كسرى أنوشروان فقط ، وتولى الملك بعد قتل أبيه المنذر ، ولثمان سنين من ولايته ولد المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وعمرو بن هند هذا هو صاحب يوم أوراة الثانى ، وهو أحد أيام العرب المشهورة : سببه أن عمراً هذا كان قد ترك ولداً من أولاده عند زرارة ابن عدس التميمى . فلما ترعرع مرت به ناقة لأحد بنى درام فرمى ضرعها فشد عليه ربها فقتله وهرب إلى قريش بمكة فحالفهم . وكان بين زرارة وملىء عداء سابق ، فلما مات زرارة ، وبلغ عمرا وفاته ، قام فغزا بنى درام . وقد كان حلف ليقتلن منهم مائة . فقام يطلبهم وقد أنذروا به فتفرقوا . فأقام مكانه وبعث سراياه فيهم ، فأتوه بتسعة وتسعين رجلا منهم سوى من قتلوه

فى غاراتهم : فقتلهم . فجاء رجل من البراجم شاعر ليمتدحه . فأخذه ليقتله ليتم به مائة ، قال : ان الشقى وافد البراجم . وقيل أنه نذر أن يحرقهم فلذلك سمى محرقا . وانه احرق منهم تسعة وتسعين رجلا . واجتاز رجل من البراجم فشم رائحة اللحم فظن أن الملك يتخذ طعاماً فقصده . فقال من أنت ؟ فقال أبيت اللعن . انا وافد البراجم . فقال ان الشقى وافد البراجم ثم امر به فقذف فى النار .

وكان عمرو قد جعل الدهر يومين . يوماً يصيد فيه ويوماً يشرب فيه ، فاذا جلس لشربه اخذ الناس بالوقوف على بابه حتى يرتفع مجلس شرابه فقال فيه طرفه بن العبد الشاعر

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول حجرتنا تخور
قسمت الدهر فى زمن رخى كذاك الدهر يعدل او يجور
لنا يوم وللكروان يوم تطير البائسات ولا تطير
فأما يومهن فيوم سوء تطاردهن بالخسف الصقور
واما يومنا فنظل ركبا وقوفا لا نحل ولا نسير

ولم يزل طرفة يهجوه ويهجو اخاه قابوسا ويذكرهما بالقبيح ويذكر اختالها بالعظيم .

وكان المتلمس الشاعر خليفاً لطرفة ، فكان يساعده على هجائه ، فأرسلهما عمرو الى عامله بالبحرين وكتب لكل منهما صحيفة ، فلما ذهب استراب المتلمس بصحيفة فلقى غلاماً عند نهر الحيرة فقال له اتحسن القراءة ؟ قال نعم قال اقرأ هذه الصحيفة ، فاذا فيها : إذا اتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه ، فطرح الصحيفة فى النهر ، وقال لطرفة : فى صحيفتك مثل هذا . قال ليس يجترىء على قومى بهذا ، وأنا بذلك البلد أعز منه ، فمضى طرفة الى عامل البحرين فلما قرأ صحيفته قطع يديه ورجليه وضلبه .

وكان عمرو نصرانياً كأمه ـ وكانت تفد اليه الوفود والشعراء والخطباء فيجيزهم بالأموال والابل والخيل ـ وقد وفد عليه أوس الطائى وحاتم ، الطائى المشهور بالجود ، فسأل أوسا : أنت افضل ام حاتم ؟ فقال لو ملكنى ، حاتم وولدى ولحمتى لوهبنا فى غداة واحدة ، وسأل حاتماً فكان جوابه لأحد ولده أفضل منى ، فعجب عمرو من مكارم أخلاقهما وأنعم عليهما ولكنه فى آخر ايامه استولى عليه الغرور وطغى واستكبر (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) وظن أن ليس فى الناس من هو افضل منه ، بل ولا من لايتمنى رضاه بل ومن يأنف من خدمته ، وقال يوماً لجلسائه : هل تعلمون ان أحداً من العرب من أهل مملكتى تأنف امه ان تخدم أمى ؟ قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبى . فان أمه ليلى بنت مهلهل ابن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو ، فسكت ابن هند على مافى نفسه وبعث الى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويأمره ان تزور أم عمرو وهى ليلى أم ابن هند. فقدم عمرو فى فرسان من بنى تغلب ومعه أمه فنزل على شاطىء الفرات ، وبلغ ابن هند قدومه فامر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاما ، ثم دعا الناس إليه ، فقرب إليهم الطعام على باب السرداق ، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وأصحابه فى السرداق ، ولأمه قبة فى جانب السرداق ، ومعها أم عمرو بن كلثوم ـ وقال ابن هند لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ، ولم يبق إلا الطرف ، فنحى خدمك عنك ، فاذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ، ومريها فلتناولك الشىء بعد الشىء ، ففعلت هند ما أمرها به إبنها ، فلما استدعى الطرف ، قالت هند لليلى : ناوليني ذلك الطبق قالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فألحت عليها فقالت : ليلى واذلاه يا آل تغلب ، فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه ، والقوم

يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر فى وجهه، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند ، وهو معلق فى السرداق وليس هناك سيف غيره ، ثم ضرب به رأس ابن هند فقتله ، وخرج ونادى يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة وقال بعض بنى تغلب فى ذلك

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مسلطاً وأمسك من ندمانه بالمخنق
وجلله عمرو على الرأس ضربة بذى شطب صافى الحديدة رونق

ولما قتل عمرو بن هند حملت جنازته إلى الحيرة ودفنت ولم يتمكن قابوس أخوه من اللحاق ببنى تغلب لأخذ الثأر يومئذ .

ويمتاز عصر ابن هند باثنتين : إحداهما ادبية ، وهى ارتقاء الشعر فى أيامه لكثرة الوافدين عليه من الشعراء وامتداحهم إياه ، والثانية سياسية ، وهى أنه أصلح بين بنى بكر وبنى تغلب بعد أن كادت الحرب بينهما تفنيهما، وأن كان هذا الصلح قد أحدث ريبة فى نفوس بنى تغلب إذ رأوا أن هوى الملك مع بنى بكر ، وجر ذلك إلى ما يسمى سوء التفاهم الذى قضى على الملك فى حادثة عمرو بن كلثوم لائنة مادعى عمراً إلا متحديا ، ولا أجاب ابن كلثوم صوت أمه حالما نادت إلا لأنه كان ينهر الفرص للايقاع بابن هند من جزاء إنحيازه إلى بنى بكر.

وملك بعد ابن هند أخوه ، قابوس وقيل أنه لم يملك وإنما كان يسمى ملكا فى حياة أبيه وأخيه ، ثم ملك أخوه الرابع وهو

﴿ المنذر الرابع ﴾

ويلقب بالأسود الثانى وهو صاحب «يوم حليمه»، وكان من حديثه انه

لما تولى الملك تطلع إلى الأخذ بثار أبيه المنذر بن ماء السماء فجمع عساكره وسار إلى الحرث الغسانى ، وبعث إليه ، إنى قد أعددت لك الكهول على الفحول . فأجابه الحرث : قد أعددت لك المرد على الجرد ، فسار المنذر حتى نزل مرج حليمة فتركه من به من الغسانيين وسار الحرث فنزل هذا المرج وأمر أهله أن يصنعوا الطعام للعسكر ففعلوا ، وأمدوا الجيش ، ثم استمر الحرب بين الفريقين أياما ينتصف بعضهم من بعض من غير أن تحدث وقعة وقعة حاسمة ، ولما استطال الحرث ذلك بعث فى جنده الحماسة بطريقة كانت أجدى عليه من استمرار الحرب ، وذلك أنه قعد فى قصره هناك ونادى يافتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتى هذه فتعرض لبيد ابن أخى الحرث وقال : أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لامحاله ، ثم زحف الناس واقتتلوا ساعة وشد لبيد على المنذر فضربه ضربة القاه عن فرسه ، وانهزم أصحابه فى كل وجه ، ونزل فاحتز رأسه وأقبل به إلى الحرث فقال له الحرث شأنك يابنة عمك زوجتكها ، فقال بل انصرف فأواسى أصحابى بنفسى ، فاذا انصرف الناس انصرفت ، ورجع فتقدم يقاتل فقتل ، ولكن الهزيمة كانت قد تمت على المناذرة ، إذ قتلوا فى كل وجه وانصرفت غسان بأحسن ظفر

وقيل فى قتل المنذر غير ذلك وهو أن الحرث خطب إلى المنذر ابنته رجاء انقطاع الحرب بينهما ، فزوجه المنذر ابنته وكانت لاتريد الرجال فاعتذرت لابيها بالمرض ، وأرسل الحرث يطلبها فاعتل المنذر عليه ، ثم خرج المنذر غازيا فبعث الحرث إلى الحيرة جيشاً انتهبها وأحرقها . فلما سمع المنذر سار يريد غسان واصطف الجيشان للقتال وحملت غسان من القلب على المنذر فقتلوه ، وانهزم أصحابه فى كل وجه ، وقتل وأسر منهم بشر كثير .

ويظهر أن هذه الحروب المتوالية وانهزام المناذرة كان له أثر كبير فى اضعاف المناذرة بالعراق ، على أن الدولة عرض لها دور الهرم الذى لابد منه ، ولكل أمة أجل .

النعمان بن المنذر

وهو أبو قابوس النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ، وكان على دين الوثنية يقدم القربان للأوثان ، ثم تنصر وأعاد النصرانية الى الدولة بعد ان كان بعض أسلافه قد نبذها وعاد الى الوثنية . والمعروف عنه انه كان شهما شجاعا ميالا الى العمارة سريا كريماً . قصده الشعراء من بلاد بعيدة فبالغ فى اكرامهم وكان من بينهم نابغة بنى ذبيان الذى كان عنده من المقربين وكان لايفارقه . وقد مدحه بقصائد تعد من غرر مدائحه ، كما مدح آباءه من قبله ، ثم وشى به إلى النعمان على أنه شبب بامرأته فى بعض قصائده ، فغضب عليه وارد القتك به ، فعلم النابغة ففر الى الغسانيين ، وكتب الى النعمان معتذراً مادحاً فبعث اليه : لقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ، ثم انصرفت إلى قوم قتلوا جدى وبيننا بينهم ماقد علمت ، فندم النابغة على ذهابه الى الغسانيين وخاف أن يعود الى الحيرة ، ثم بلغه أن النعمان مرض مرضاً ثقيلا فأشفق عليه وعاد إلى الحيرة فأكرمه النعمان وصار بعد شفائه من خواصه .

والنعمان هذا هو صاحب (يوم السلان) ، وكان من حديثه أن كسرى أبرويز كان يجهز كل عام لطيمة وهى التجارة لتباع بعكاظ فتعرض لها بنو عامر ابن صعصعة وكانوا لقاحاً لايدينون للملوك ، فغضب لذلك النعمان ، وبعث الى صنائعه ووضائعه فأجابوه ، ومعهم حبيش بن دلف ، وكان فارساً شجاعاً ، فاجتمعوا فى جيش عظيم ، فجهز النعمان معهم عيراً وأمرهم بتسييرها ، وقال لهم إذا فرغتم من عكاظ ، وانسلخت الحرم ورجع كل قوم إلى بلادهم فاقصدوا بنى عامر فانهم قريب بنواحى السلان ، فخرجوا وكتموا أمرهم لئلا يعرض أحد للطيمة الملك ، فلما فرغ الناس من عكاظ علمت قريش بحالهم فأرسل عبد الله بن جدعان قاصداً الى بنى عامر يعلمهم الخبر ، وكان بنو عامر من الحمس

كقريش (والحمس المتشددون فى دينهم المتحمسون أو الملتجئون بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها أبيض إلى السواد) فحذروا ، وتهيئوا للحرب وتحرزوا ووضعوا العيون . وساروا وعليهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، فالتقوا مع جيش النعمان فاقتتلوا قتالا شديداً ، وأسر أخو النعمان ، فهم الجيش بالهزيمة ، فنهاهم ضرار بن عمرو الضبي ، وقام بأمر الناس وقاتل هو وبنوه قتالا شديداً فلما رآه عامر بن مالك حمل عليه فصرعه ، ولكنه لم يقتل ، وناضل عنه بنوه حتى خلصوه ، وجعل عامر بن مالك يلح على ضرار طمعاً فى فدائه ، وقال له وقد رأى أبناءه يدافعون عنه دفاع الابطال مستميتين : لتموتن أولا أموتن دونك ، فاحلنى على رجل له فداء ، فأحاله على حبيش بن دلف وكان سيداً فحمل عليه فأسره ، وكان حبيش أسود نحيفاً دميما فلما رآه كذلك ظنه عبداً ، وأن ضراراً خدعه ، وقال أنا لله ، فظن حبيش أن عامراً سيقتله . فعرفه بنفسه وافتداها منه بأربعمائة بعير ، وهزم جيش النعمان بعد قتال شديد فلما رجع الفل (المنهزمون) اليه أخبروه بأسر أخيه وقيام ضرار بأمر الناس ، فافتدى أخو النعمان نفسه ممن أسره بألف بعير وفرس.

سبب موت النعمان : قالوا وإن الحيرة بلغت فى أيام النعمان هذا درجة عظيمة من الرقى العمرانى والعز والترف ، ثم مات النعمان فى سجن كسرى أبرويز بخانقين .

وسبب ذلك أن عدى بن زيد العبادى وكان خطيباً شاعراً قد كتب العربية والفارسية ، وكان كسرى قد كتب إلى المنذر أبى النعمان أن يبعث له بقوم من العرب يترجمون الكتب له ، فبعث بعدى بن زيد وأخوين له ، فكانوا فى كتابه يترجمون له ، فلما مات المنذر قال كسرى بعدى : هل بقى أحد من أهل هذا البيت يصلح للملك ، قال نعم . إن للمنذر ثلاثة عشر ولداً كلهم يصلح لما يريد الملك . فبعث فأقدمهم وكانوا من أجمل آل المنذر ، وكان لذا

يقال لهم الا شاهب إلا النعمان ، فانه كان أحمر أبرش قصيراً ، وكان قد تربى فى بيت عدى بن زيد ، أى فى بنى تميم . فلما حضروا أنزلهم عدى كل واحد على حدته : وكان يفضل أخوة النعمان عليه فى النزل ، ويريهم أنه لايرجو النعمان (وذلك ضرب من ضروب سياسته) حتى يطمئنوا اليه ويثقوا أنه لايقصدهم بسوء ، وأنه لهم ناصح أمين . وكان يخلو بهم رجلا رجلا ويقول لهم : ان سألكم الملك هل تكفونى العرب؟فقولوا له نكفيكهم إلا النعمان . وقال للنعمان سراً : ان سألك الملك عن اخوتك فقل إن عجزت عنهم فانا عن غيرهم أعجز ، ومعنى هذا أن يتبين كسرى أنهم برهنوا على العجز باقرارهم وأن النعمان برهن على القدرة .

واندس عدى بن أوس من بنى مرينا«وهم قوم من أهل الحيرة » وكان داهياً شاعراً وكان هواه فى غير النعمان ، فعرض إلى الاسود أخى النعمان وحرضه أن يخالف عديا فانه غير ناصح فلم يقبل . فلما أمر كسرى أن يدخلوا عليه أعجب بما رأى من هيبتهم وهيئتهم ، وسألهم واحدا واحدا هل تكفونى العرب فكلهم أجابوا نكفيك إلا النعمان . ولما دخل النعمان قال :هل تستطيع أن تكفينى العرب ؟قال نعم . قال فكيف تصنع باخوتك ؟ قال إن عجزت عنهم فأنا عن غيره أعجز . فمال كسرى إلى النعمان وملكه وكساه وتوجه تاجا قيما .

فلما خرج النعمان وقد ملك . كان عدى بن أوس فى خدمته لايخليه يوما من هديته وطرفه ، يستدرجه بذلك وكان ذا مال . فكان من أكرم الناس عليه ، وكان إذا ذكر عدى بن زيد فى مجلسه يصفه بأوصاف المدح ثم يقول إلا إن فيه مكرا وخديعة . واستمال أصحاب النعمان وخواصه وحملهم ع أن يقولوا للنعمان أن عدى بن زيد يقول إنك عامله وانه هو الذى ملكك حتى أحفظوه عليه وآسفوه وأضغنوه ، فكتب إليه النعمان : عزمت عليا

لازرتنى . فاستأذن كسرى وقدم عليه. فامر بحبسه فى حبس لايصل إليه فيه أحد فجعل عدى وهو فى حبسه يستعطف النعمان ، ويذكره حرمته ، لأنه مربيه كما سلف . ويعظه بذكر الملوك السابقين . فلم يجده ذلك نفعا ، وجعل أعداؤه من بنى مرينا يحملون عليه النعمان، ويقولون له : إن أفلت قتلك وكان سبب هلاكك .

فلما يئس عدى كتب إلى أخيه وإلى ابنه وكان لابنه ناحية من كسرى ، ففزعا إلى كسرى ، فكتب إلى النعمان بتخلية سبيله ، ووجه فى ذلك إليه رسولا ، فوصل الى عدى قبل أن يصل إلى النعمان ، فقال عدى اعطنى الكتاب أبعثه ولازمنى أنت هنالئلا أقتل . فلم يقبل ، وقال له النعمان : لن يجترىء على كسرى ، وبلغ النعمان أن رسول كسرى وصل إلى عدى ، فلما أحس خروجه من عنده بعث إليه جماعة فخنقوه ، وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأظهر له الاجابة وأهدى إليه وأذن له أن يخرجه من محبسه .

فلما أصبح الرسول غدا إلى السجن فلم ير عديا ، وقال له الحرس إنه مات منذ أيام ، فرجع إلى النعمان وأخبره أنه رآه بالأمس ولم يره اليوم ، فزاده رشوة واستوثق منه ألا يخبر كسرى إلا بأنه مات قبل وصوله إلى النعمان ففعل.

وندم النعمان على قتل عدى . واجترأ أعداء عدى على النعمان ، وهابهم هيبة شديدة ، وأصبح تحت رحمتهم إذ خشى أن يبلغوا كسرى حقيقة ما حصل، فيكون ذلك وسيلة إلى الانتقام . وبينا كان النعمان فى بعض صيده إذ رأى ابنا لعدى يقال له زيد ، فكلمه وفرح به فرحا شديدا ، واعتذر إليه من أمر أبيه، وسيره إلى كسرى ، ووصفه له ، وطلب إليه أن يجعله مكان أبيه ، ففعل ، وكان يلى مايكتب إلى العرب خاصة ، وسأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناء عليه وأقام عند كسرى سنوات بمنزلة أبيه .

ثم أن كسرى أراد خطبة بنات العرب فانتهزها زيد فرصة للتحرش بالنعمان

وإيصال الأذى اليه . فأشار عليه بالخطبة فى بنى النذر . فقال كسرى: اذهب اليهم فى ذلك ، فقال : ايها الملك إن شر شىء فى العرب وفى النعمان : أنهم يتكرمون بأنفسهم عن العجم، فابعث معى من يفقه العربية فلعلى آتيك بغرضك ، فلما جاء إلى النعمان قال لزيد : أما فى عين السواد وفارس من يغنيكم عن بناتنا ! وسأل الرسول عن العين فقال زيد هى البقر ، ثم رجعا إلى كسرى بالخيبة . وأغراه زيد فغضب ، وحقدها على النعمان ، ثم استقدمه بعد حين لبعض حاجاته . وقال: لابد من المشافهة لان الكتاب لايسعها ، فقطن فذهب إلى طى وغيرهم من قبائل العرب ليمنعوه فأبوا . وفرقوا من كسرى إلا بنى رواحة من عبس فانهم أجابوه لو كانوا يغنون عنه ، فعذرهم وانصرف عنهم الى بنى شيبان بذى قار . والرياسة فيهم لهانىء بن مسعود الشيبانى (أو لابن ابنه هانىء بن قبيصة) ولقيس بن خالد . وعلم أن هانئا يمنعه مما يمنع منه أهله فأودعه ماله ونعمه وسلاحه وأدراعه وكانت لألف فارس، وابنته وحرمه وسار الى كسرى فلقيه زيد، وشمت به فتبين الغدر، فلما بلغ الى كسرى قيده وأودعه الحبس بخانقين فمات فيه قيل بالطاعون، وقيل بل طرح تحت الفيلة فداسته حتى مات ثم قرب للأسود فأكلته، ودعا ذلك الى واقعة ذى قار بين العرب وفارس كما سيجىء.

﴿ انتقال الملك من المناذرة آل نصر ﴾

﴿ إياس بن قبيصة الطائى ﴾

ولما قتل النعمان استعمل كسرى إياس بن قبيصة الطائى على الحيرة مكانه، وكانت له يد على كسرى أهدى له فى يوم حرب فرسا وجزورا وكانت طى تقيم فى أعالى نجد حوالى جبلى نعمان أجا وسلمى، وهم الحى الثانى من بنى كهلان وكان ابناء النعمان قد تشتتوا فى البلاد خوفا من كسرى فتولى إياس ما كان يتولاه آل نصر ولثمانية أشهر من ولايته بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد ولى اياس ١٤ سنة وقيل ٢٤ سنة وقيل تسع سنين .

ثم ان كسرى بعثه إلى هانىء فى حلقة النعمان وهى سلاحه، فمنعه هانىء، وغضب كسرى من جراء ذلك ، وأراد استئصال بكر بن وائل ، وأشار عليه النعمان بن زرعة الثعلبى (وقد طمع فى هلاك بكر أيضاً) أن يمهل إلى فصل القيظ عند ورودهم مياه ذى قار ، فلما قاظوا ونزلوا، جاءهم النعمان يخيرهم بين ثلاث :فأما أن يسلموا الحلقة بأيديهم ، واما أن يتركوا ديارهم، واما أن يأذنوا بحرب ، فتنازعت بكر فيما بينهم، وهم هانىء بركوب الفلاة، وأشار به على بكر، وقال: لاطاقة لكم بجنود الملك ، فلم ترم من هانىء سقطة قبلها، فولوا عليهم حنظلة ابن سنان العجلى، فاختار الحرب ، وقال لهم انما هو الموت قتلا ان أعطيتم باليد ، أو عطشاً، ان هربتم ، وربما لقيكم بنو تميم فقتلوكم، وبعث كسرى الى أياس ان يسير إلى حربهم، ويأخذ معه مسالح فارس ، وهم الجند الذين كانوا معه، وبعث الى قيس بن مسعود بأن يوافى إياساً ، وجاءت الفرس معها الجنود والأفيال، ولما تواقف الفريقان جاء قيس بن مسعود فى جنح الظلام الى هانىء ، ضنا بالعرب قومه أن ينال منهم كسرى ومن استعان به ، وتعصباً للعرب أن تغلبهم الفرس وتذلهم ، فأشار على هانىء أن يفرق سلاح النعمان على أصحابه ففعل، فلما دنت الفرس من بنى شيبان قال هانىء بن مسعود: يامعشر بكر لاطاقة لكم بقتال كسرى ، فاركنوا الى الفلاة، فسارع الناس الى ذلك، فوثب حنظلة وقال: ياهانىء أردت نجاتنا فألقيتنا فى الهلكة ورد الناس ، وقطع وضن الهوادج وهى حزم الرحال، حتى لايطمع القوم فى الفرار بالظعائن، ويستميتوا فى القتال، وضرب على نفسه قبة، وأقسم أنه لاينفر حتى تفر القبة، ولما رجع الناس استقوا ماء لنصف شهر ، فأتتهم العجم فقاتلتهم بحنو ذى قار فانهزمت، ومالت الى بطحاء ذى قار خشية الهلاك عطشاً، وأرسلت إياد الى بكر ، وكانوا مع الفرس : ان شئتم هربنا الليلة . وإن شئتم أقمنا ونفر حين اللقاء . فقيل لهم بل تقيمون ، ثم تنهزمون إذا التقينا . وقال بعض حلفاء شيبان أطيعونى وأكمنوا لهم ففعلوا، ولما التقى الجمعان خرج الكمين، وانهزمت إياد انهزاماً صناعياً فانهزمت الفرس،

وجاوزت الماء فى حر الظهيرة فى يوم قائظ، فهلكوا أجمعين، قتلا وعطشاً، وأتبعت المنهزمين بكر حتى دخلوا السواد فى طلبهم يقتلونهم، وأسر النعمان بن زرعة، ونجا إياس، فكان أول من انصرف الى كسرى بالهزيمة، وكان كسرى لا يأتيه أحد بهزيمة جيش الا نزع كتفه، فلما سأله قال كذباً: هزمنا بكر بن وائل وأتيناك ببناتهم فعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة. ثم استأذنه فى أن يعود أخاه قيسا بعين التمر فأذن له. وما هو إلا أن طلع على كسرى بالحيرة رجل فأخبره بالهزيمة فى ذى قار فخلع كتفه — وظل إياس لم يعزل نهائياً الى ان زحف المسلمون الى العراق، ونزل خالد بن الوليد الحيرة وحاصرهم بقصورهم، فلما أشرفوا على الهلكة خرج إياس اليه فى اشراف أهل الحيرة واتقى من خالد والمسلمين بالجزية فقبلوا، وصالحهم على مائة وستين ألف درهم، وكانت أول جزية بالعراق، ولما صالح إياس المسلمين وعقد لهم الجزية، سخطت عليه الاكاسرة وعزلوه نهائياً، وذلك فى السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية، لأن مسير خالد الى العراق كان فى عهد أبى بكر الصديق، بعد الفراغ من حروب الردة فى اليمامة.

﴿ المنذر بن النعمان ﴾

وبعد عزل إياس تولى على بلاد المناذرة أحد قادة الفرس، ثم ولى بعده المنذر ابن النعمان بن المنذر وهو الذى تسميه العرب بالمغرور، وهو الذى قتل بالبحرين يوم جواثاء، وكانت ولايته إلى أن قدم خالد بن الوليد الحيرة نحو ثمانية أشهر، وهو آخر من بقى من آل نصر الذين ملكوا نحو خمسمائة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، وكانوا عشرين ملكا وقد جد بعض المؤرخين فى تعيين التاريخ المسيحى لهذه الدولة، ووصل الى أنها كانت من سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٣٢ وهى سنة ١٣ هجرية أى فى عهد سيدنا عمر فكأن مدتهم ٤٥٠ سنة غير مدة التنوخيين الثلاثة، ومدة الدخلاء من غير آل نصر.

أما حديث ولاية المنذر فيتلخص فى أنه لما مات المنذر بن ساوى العبدى

بعد رسول الله ارتد بعده أهل البحرين الا بنو بكر ، وأما بنو عبد القيس فكادوا يرتدون لولا ان ذكرهم الجارود العبدى فثبتوا ، واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة، وقالوا نرد الملك فى المنذر هذا قولوه ، وخرج بعض بنى قيس فى جمع من المشركين وحصروا المسلمين فى جواثاء حتى أرسل أبو بكر الصديق اليهم العلاء بن الحضرمى ،فاستنقذهم وهزم المشركين، وقعد للمرتدين بكل طريق ، وأسر غفيف بن المنذر التميمى ، المنذر بن النعمان فأسلم ،وصار بعد ذلك من عامة الناس ، ويقال إنه خان المسلمين بعد ذلك وهرب فتتبعوه حتى قبضوا عليه وقتلوه ،وبقتله ذهبت ريح المناذرة ودالت دولتهم، وقد ظل ملك العرب بالعراق نحو ٥٠٠ سنة وانتهى سنة ١٣ هجرية ، فى عهد سيدنا عمر ، فسبحان من ينزع الملك ممن يشاء .

﴿ ملوك غسان ﴾

قامت دولة الغسانيين بالقسم الصحراوى من بلاد الشام ، وكانت الشام دار ملك العمالقة الذين كان آخرهم يسمى السميدع، وقد بقى الملك فى عقبه حتى كان فى بنى الظرب ، وآخر هؤلاء الزباء، وقد عرف خبرها مع جذيمة وعمرو ابن عدى — ثم ملك اليهود الشام وأجلاهم عنها الروم، فملكتها قضاعة من قبل الروم، وكانت الروم محتاجة الى المعونة ، سواء أكان ذلك لحرب الطلائع من العرب النازلين على الفرات أم لملء الفراغ من أرض الشام بعد هجرة اليهود

ولما وصلت قضاعة الى الشام اعتنقت المسيحية، فملكها الروم على من ببلاد الشام من العرب ، فظلوا بذلك أياما ، وكان لبنى سليح من قضاعة دولتان إحداهما فى الضجاعم، والأخرى فى بنى العبيد الأبصر من سليح ، وكان لبنى العبيد هؤلاء ملك فى الجزيرة بالحضر، وكان ملكهم (الساطرون) يسمى الضيزن ، ورهطه بنو العبيد ، وكان لهم مع الفرس حروب انتهت بفوز

الفرس وإبادة قبائل قضاعه بالحضر: أما الضجاعم فظلوا الى أن أجلتهم غسان فوثبوا على الملك بالشام.

والغسانيون من أزد اليمن، وهم بنو جفنة بن عمرو بن عامر الذين يقول شاعرهم:

وغسان حي عزهم فى سيوفهم كرام المساعى قد حووا أرض قيصر

فلما قدموا اجاوروا الضجاعم وسألوهم أن يدخلوا فيادخلوا عليه من طاعة الروم، وأن يقيموا فى البلاد، لهم مالهم وعليهم ماعليهم، فكتب رئيس الضجاعم الى ملك الروم فى هذا الشأن، فأجابه الى ذلك، وشرط عليهم شروطاً رضوابها وأقاموا، وكانت سليح تجمع ممن نزل بساحتها الاتاوة لقيصر، فاتفق أن أحد رؤسائها سأل جذع بن عمرو الغسانى (وهو أخو ثعلبة ابن عمرو رئيس غسان يومئذ) أداء ما عليه، فدخل مشتملا بسيفه فضربه به حتى بردوقال: خذ من جذع ماأعطاك، وقيل انه لم يقتله إلا بعد ان عرض عليه السيف يأخذه رهناً فرد عليه رداً استقبحه. ومن أجل ذلك قتله وبقتله وقعت الحرب بين الفريقين، وانضم الروم الى بنى سليح فاقاموا مليا يحاربون الغسانيين ببصرى، فلما رأى ملك الروم صبرهم على الحرب ومقاومتهم جيوشه، كره ان تكون ثلمة عليه. وبخاصة لأنه كان قد فسد ما بينه وبين الفرس. وخاف ان ينضموا مع المناذرة لحرب الروم. فكتب الى الغسانيين واستدناهم وأجابهم الى الصلح. على الا يكون عليهم ملك من غيرهم. وكتبوا بينهم كتابا على أنه اذا دهمهم أمر من العرب امدهم الروم باربعين الفا: واذا دهم الروم أمر أمدتهم بعشرين الفا. وبذلك غلبت غسان على ماكان بأيدى بنى سليح من رياسة العرب.

ولما كان عهدهم بالرياسة فى اليمن قريبا، وكانوا أولى قوة وعدد. ثبت ملكهم فى الشام، وتوارثوه كابرا عن كابر. فكان أول ملوكهم جفنة بن ثعلبة ابن عمرو بن عامر واليه ينسبون. ملكه الروم على العرب فاستقام مابينهم وصارت أمورهم واحدة. ويقال انه الذى بنى جلق وهى دمشق.

ومازال الملك ينتقل فى اعقابه حتى ملك منهم.

﴿ الحرث الاكبر ﴾

وهو الحرث بن جبلة، ويعرف بالحرث بن أبي شمر — وكان له منزلة عظيمة عند الروم ، إذ كانوا يهابونه لكثرة العرب حوله ، ويعجبون بشجاعته عهد إليه جستنيانوس بالزعامة على جميع القبائل العربية فى الشام، ومنحه لقب بطريق إذ كان يتحمس للنصرانية ويدين بها ، وكان هذا اللقب فى الدولة البيزنطية أرقى لقب بعد لقب الامبراطور .

وكان الحرث هذا من أهم أعوان القائد الرومانى بليزاريوس فى رد الفرس ورد المناذرة عن بلاد الروم أيام كسرى أنوشروان ، ففى أول الأمر سعى القيصر جستنيانوس فى مصالحة الفرس إذ كان مشتغلا بالحرب فى أفريقية كما سلف «ص٣٩» : وبعد ذلك رأى كسرى أن رقعة بلاد الروم اتسعت فأسف على الصلح ولكنه لم يتعود النكث، فأوعز إلى المنذر بن ماء السماء أن يتحرش بالحرث الغسانى ففعل، وادعى الأول طرق الماشية جنوبى تدمر وكانت للغسانيين؛ فوقعت الحرب بينهما وانتصرت الروم للحرث ، وانتصرت الفرس للمنذر فوقعت الحرب بين الدولتين، وكانت الهزيمة على الروم فطلبوا الصلح .

ويقال فى سبب هزيمة الروم، إنه لما حمل كسرى على سورية والاناضول، اهتزت مملكة الروم وارتعدت فرائص القيصر، فاستنهض قائده بليزاريوس واستنهض الحرث وخلع عليه ، فسار كل واحد منهما على رأس جيشه. وتقدم بليزاريوس فى معظم جند الروم وأوغل فى أرض الجزيرة، وخلف الحرث وراءه ليكون له وحده دون الحرث شرف الانتصار ، إذ كان واثقا منه فلم يعاونه الحرث، ولم يتصل به، وبذلك هزم الجيش الرومانى فى أرض الجزيرة، واضطر القيصر إلى طلب الصلح .

ومع ذلك فقد كانت هذه الحرب سبب الحروب طويلة بين المناذرة والغسانيين هذا وعلى عهد الحرث هذا كانت البعثة النبوية ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن كتب إليهم من ملوك تهامة والحجاز واليمن ، بعث اليه شجاع ابن وهب الأسدى يدعوه إلى الاسلام ويرغبه فى هذا الدين.

﴿ الحرث الأعرج ﴾

وهو ابن الحرث الأكبر فى رواية، وأمه ماريه بنت ظالم الكندى، وهى ذات القرطين اللذين يضرب بهما المثل فى غلو الثمن ، وينسب بعض المؤرخين يوم عين أباغ إليه ، كما ينسبونه إلى أبيه الحرث الأكبر، وكان هذا اليوم مع المنذر ابن ماء السماء « ص٣٧ » وكما ينسبون إليه يوم حليمه ، وكان مع الاسود بن المنذر هذا حينما سار إلى الغسانيين للطلب بثأر أبيه الذى قتل يوم عين أباغ.

ويرى ابن الأثير أن الحرث صاحب يوم عين أباغ ، هو بعينه الحرث صاحب يوم حليمة، وحينئذ لايكون يوم حليمة لطلب الثأر، بل لمجرد الغزو والفتح ، ومنشأ هذا الاختلاف :الاتفاق فى الاسم أو تقارب عهديهما أو أن الأعرج كان مع أبيه فى عصر واحد ، فكان الأب ملكا وكان الابن أميرا وقائدا للجيوش ، وعلى أن هناك من يرى أن يوم عين أباغ هو بعينه يوم حليمة — وإنما أردنا بذكر هذا الاختلاف أن ننبه إلى أن الروايات فى هذا الموضوع متعددة ، وكل راو يذكر أسبابا للحادثة قد تتفق مع الأسباب التى يذكرها غيره وقد تختلف .

هذا ـ وقبر الحرث الأكبر بدمشق — وقبر الحرث الأعرج بصيداء مما يدل دلالة واضحة على أنهما اثنان .

﴿ جبلة بن الأيهم ﴾

وهو آخر ملوك الغسانيين بالشام ، وقد استفحل له الملك ، وجاء الاسلام وهو على ملكه ، ولما افتتح المسلمون الشام ، أسلم جبلة هذا وهاجر إلى المدينة المنورة، واستشرف أهلها لمقدمه، حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته ، لكرم وفادته ، وأحسن سيدنا عمر نزله وأكرم وفادته ، وأجله بأرفع رتب المهاجرين، ثم غلب عليه الشقاء، ولطم رجلا من المسلمين من فزارة ، وطىء فضل إزاره وهو يسحبه فى الأرض ، ونابذه الفزارى إلى عمر فى القصاص، فأخذته العزة

بالاثم ، فقال له عمر: لابد أن اقيده منك فقال: اذاً أرجع عن دينكم هذا الذى يقاد فيه للسوقة من الملوك ، فقال له عمر: إذاً أضرب عنقك ، فقال أمهلنى الليلة حتى أرى رأيى ، واحتمل رواحله وأسرى فتجاوز الدروب إلى قيصر ولم يزل بالقسطنطينة حتى مات سنة ٢٠ من الهجرة وكان قد بعث بالجوائز إلى حسان بن ثابت لما كان منه فى مدح قومه ومدحه فى الجاهلية .

وذكر المؤرخون أن سيدنا عمر بدا له أن يكتب إلى هرقل يدعوه إلى الله جل وعز وإلى الاسلام ، ووجه إليه فى ذلك رجلا من أصحابه ، فلما وصل إلى قيصر أجاب إلى كل شىء إلا الاسلام ، فلما أراد الانصراف ، قال : هل رأيت ابن عمك الذى جاء نار اغبا فى ديننا ؟ قال: لا ، فوجه إليه فوجد قيصر قد أنزله منزلا فخما ، وحادثه الرسول مليا ، ثم إن جبلة دعا مغنياته .

فأنشأن يقلن :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بجلق فى الزمان الأول

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

يغشون حتى ماتهر كلابهم ... لايسألون عن السواد المقبل

ثم استزادهن فقلن:

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين شاطىء اليرموك فالصمان

الخ ماقاله . . .

فقال جبلة . أتعرف هذه المنازل ؟ قال لا ، قال هذه منازلنا فى ملكنا بأكناف دمشق ، وهذا شعر إبن القريعة « يعنى حسان بن ثابت » وسأل عن أحواله . فقال له الرسول انه مضرور البصر كبير السن — فدفع إليه مالا وثيابا وقال : ادفع هذا لحسان واقرأه منى السلام ، ثم قال لجواريه ابكينى فأنشدنه .

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وماكان فيها لو صبرت لها ضرر

إلى أن قلن

وياليتنى أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر

ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ثم انصرف الرسول الى عمر فاستدعى حسان وقال له : قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه وأتاك بمعونة ، فانصرف حسان وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقية معشر لم يغذوهم أباؤهم باللوم

لم ينسنى بالشام إذ هو ربها كلا ولا متنصرا بالروم

وللغسانيين فى بادية الشام مدن وقرى، وأديرة وقناطر، وآبار وصهاريج وحصون ذات أسوار وأبراج يظهر انهم بنوها على أطراف البادية دفاعا عن بلادهم من غارات المناذرة والفرس ، ولا تزال أطلالها موضع آمال المنقبين الذين يستسقون الأخبار «أخبار الماضيين» من صفحات الأحجار ويعتبرونها الأساس الصحيح الذى يعتمد عليه فى تدوين التاريخ .

وكانت دمشق منازل ملوك غسان ، وكان الغسانون أكثر أهل الغوطة وأرض الشراة ، وكذلك كانوا أكثر أهل البقاع التى تلى دمشق شمالا إلى حمص وما يليها، وكذلك جهات اليرموك وبلاد حوران، ويقول بعض المؤرخين إن جميع ملوك غسان اثنان وثلاثون ملكا لبثوا فى ملكهم بين ٤٠٠ أو ٦٠٠ سنة، ولم يتخذوا ناحية معينة من الشام تكون دارا لملكهم، فمنهم من اتخذ البلقاء ومنهم من اتخذ تدمر، ومنهم من اتخذ صفين أو الجولان من دمشق.

وبموت جبلة انقضت الغسانية وصارت بلادهم ولاية اسلامية ، ويقال إن بقيتهم بعد الفتح الأسلامى تجهزت إلى بلاد الشركس بين بحر الخزر والبحر الأسود وتحالفت مع أهله ، ودخلت أنساب بعضهم فى بعض حتى ليزعم كثير من الشركس أن نسبهم ينتهى إلى غسان .

﴿ ملوك كندة ﴾

وهم من بنى كهلان بن سبأ، وكانوا يجاورون حضرموت من الشمال ، ثم كان بين الفريقين حروب أفنت عامتهم ، وكرهت كندة الحرب ، فلما دخل أهل اليمن التفريق والتشتيت ، هجروا بلادهم باليمن ، وانتشروا فى البلاد ،

وملك كل قوم عظيمهم ، وصارت كندة إلى أرض معد بنجد فجاورتهم مستقلة بملوكها الأولين إلى أن ملكهم :

﴿ حجر بن عمرو آكل المرار ﴾

وهو أخو حسان بن تبع لأمه. ولاه أخوه على معد بن عدنان كلها فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة .

وكان من أهم ماقام به المحالفة بين كندة وربيعة ، ثم اتفق له أن بنى بكر ملكوه عليهم ، وكانوا بالبحرين إلى جهة البصرة فى البادية ، وبنو حنيفة منهم، وسبب ذلك أن سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها وأكل القوى الضعيف ، فنظر العقلاء فى الأمر ، ثم بدا لهم أن يملكوا عليهم رجلا يأخذ للضعيف من القوى، فنهاهم العرب عن ذلك . فلما علموا أن إقامة ملك عليهم من أنفسهم لايستقيم بها أمرهم ، لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، ساروا إلى بعض تبابعة اليمن ، وكانوا من العرب بمنزلة الخلفاء من المسلمين ، فملك عليهم حجر بن عمرو هذا، ويسمى آكل المرار ، سمى بذلك لأنه علم أن الحرث ابن جبلة الغسانى كان نائما فى حجر امرأته هند جعل يأكل المرار (وهو نبت شديد المرارة) من الغيظ وهو لايدرى ، فلما ملك على بكر قوى أمره وقدم عليه وانتزع من اللخميين ماكان بأيديهم من أراضى بكر وبقى كذلك إلى أن مات.

(عمرو بن حجر)

ويسمى المقصور لأنه لم يتعد ملك أبيه ، أو لأنه أقعد فيه كرها. وقد غزا الشام ومعه ربيعة فقتله الحرث بن أبى شمر.

﴿ الحرث بن عمرو ﴾

وأمه من بنى شيبان، ويقال بل أمه بنت حسان بن تبع، وكان شديد الملك بعيد الصوت ، عاصر قباذ ملك الفرس، ودخل فى المزدكية، فولاه قباذ ما كان يملك المنذر بن ماء السماء من الحيرة ونواحيها.

ويقال فى توليته العراق غير ذلك، وهو أن عمرو بن تبع اصطنع عمرو بن حجر وزوجه ابنة أخيه حسان، فولدت له الحرث هذا ، فلما كبر أرسله خاله تبع بن حسان إلى الحيرة، فقاتل النعمان بن امرىء القيس وقتله وقتل عدة من أهل بيته ، وأفلت منه المنذر بن ماء السماء، فملك الحرث هذا من آل المنذر ما كانو يملكونه .

وعلى أى حال فقد ظل إلى أيام كسرى أنو شروان الذى خلف أباه قباذ على ملك الأكاسرة ، فلما قتل كسرى مزدك وأصحابه أعاد المنذر إلى الحيرة فطلب الحرث وكان بالأنبار وبها منزله ، فهرب بما أمكنه الهروب به من أولاده وماله وهجانه ، وتبعه المنذر بالخيل ، فلحق بأرض كلب وانتهب المنذر ما خلفه من ماله وهجانه . وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحرث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم وأفلت امرؤ القيس الشاعر المشهور منهم إذ كان صغيرا كما مضي:

وأقام الحرث بديار كلب فيقال إنهم قتلوه ، ويقال بل خرج يتصيد فتبع تيسا من الظباء فأعجزه ، فاقسم لا يأكل شيئا إلا من كبده وسار وراءه، فطلبته الخيل فأتى به بعد ثلاثة أيام وقد كاد يهلك جوعا ، فشوى بطن التيس وأكل فلذة من كبده حارة فمات ، ويقال أنه مات حتف أنفه .

ولما كان مملكا بالحيرة أتاه عدة من أشراف القبائل من نزار بن معد فقالوا: إنا فى طاعتك وقد وقع بيننا من الشر بالقتل ما تعلم ، ونخاف الفناء فوجه معنا بنيك ينزلوا فينا، فيكفوا بعضنا عن بعض ، ففرق أولاده فى قبائل العرب على النحو الآتى :

(١) ملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها.

(٢) وملك ابنه حجرا على بنى أسد وغطفان وكنانة.

(٣) وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان .

(٤) وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط .

فبقى حجر على بنى أسد، وله عليهم جائزة وأتاوة كل سنة يتقاضاها منهم حصل أنه أرسل إليهم من يجبى ذلك وكان حجر بتهامة ، فطردوا رسله وضربوهم فسار إليهم وأخذوا سراتهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصى ،فسموا عبيد العصا ، وأباح أموالهم وصيرهم إلى تهامة ، وآلى ألا يساكنوهم فى بلد أبدا فخرجوا،فلما ساروا ثلاثا استعطفه عليهم العبيد بن الأبرص فى قصيدته التى يقول فيها :

إما تركت تركت عفـ ـوا أو قتلت فـلا ملامـة
أنت المليـك عليهم وهم العبيد إلى القيـامـة

فعطف عليهم واستردهم ،ولكنهم بعد حين هجموا عليه فى قبته بالاتفاق مع بنى كنانة فقتلوه وانتهبوا أسلابه ، وتولى قتله علباء بن الحرث الكاهلى كان حجر قتل أباه « وعلم امرؤ القيس ابنه بقتله فخلف لايقرب لذة حتى يدرك بثأره من بنى أسد وله بقية خبر ستأتى »

أما بقية إخواته فان المنذر لما رآهم متمسكين بما فى أيديهم ، متغلبين على العرب ، نفسهم ذلك وأراد أن ينتقم من أبيهم الحرث فى أشخاصهم ؛ فأوقع الشر بينهم وما زال يسعى حتى أفسد ما بين سلمة وبين أخيه شرحبيل،فاقتتلوا بالكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة على سبع من اليمامة ، فقتل شرحبيل وقتله عصيم بن النعمان من تغلب .

وبلغ أخاه معد يكرب قتله وكان على الحيادفاشتد جزعه وحزنه على أخيه، وزاد فى ذلك حتى اعتراه وسواس هلك به ،أما سلمة فقد فطن إلى نوايا

المنذر، وأنه إنما أراد بهم السوء، وأن يقتل بعضهم بعضا ، فلجأ إلى بنى تغلب ثم إلى بنى بكر بن وائل ، فكان للقبيلتين مع النعمان من شأن سلمة شأن ، ثم أن سلمة أفلج ومات .

﴿ امرؤ القيس ﴾

ولما قتل حجر كان امرؤ القيس ابنه غائبا ، وكان أبوه قد طرده لقوله الشعر، وكان يأنف منه ، وأم امرىء القيس أخت كليب وائل ، فكان امرؤ القيس فى حياة أبيه يسير فى أحياء العرب يشرب ويتصيد ، فلما سمع خبر أبيه، قال: ضيعنى صغيرا، وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم، ولا سكر غدا اليوم خمر ، وغدا أمر ، ثم ارتحل حتى نزل ببكر وتغلب فنصروه ، فارتحل بهم فلما كان فى الليلة التى أراد أن يغير على بنى أسد فيها ، نزل بجمعه فذعر القطا فطار من مجاثمه ، فمر ببنى أسد فعرفوا أن جيشا اقترب منهم ، فارتحلوا من ليلتهم ، واقبل أمرؤ القيس حتى نزل فى بنى كنانة جيران أسد، فوضع فيهم السيف وهو يقول يا ثارات الملك يا ثارات الهمام، فخرجت اليه عجوز من كنانة فقالت: أبيت اللعن ، لسنا لك بثار ، نحن بنو كنانة ، فدونك ثارك فاطلبهم فان القوم قد ساروا بالأمس.

فتبع بنى أسد ففاتوه فى ليلتهم ، ثم جد حتى أدركهم ظهرا وقد تقطعت خيله ، وهلكوا عطشا قاتل بنى أسد قتالا شديدا، ولكنه كثرت به قتلاهم وحجز الليل بينهم فهرب بنو أسد ، وأصبحت بكر وتغلب فرفضوا أن يتبعوهم ، وقالوا لامرىء القيس قد اصبت ثارك ، فقال لا والله ، فقالوا بلى ولكنك رجل مشئوم، ورجعوا عنه فمضى الى اليمن يستنصرهم فنصروه، ثم لبث عندهم زمانا عاد فيه الى شربه ولهوه ، فطلع عليه ركب من نجد فسمع منهم.

وألهاه شرب ناعم وقراقر وأعياه ثار كان يطلب فى حجر

ففزع امرؤ القيس لذلك ، وخرج بمن اجتمع اليه من اليمن ،ومن استأجرهم،وذهب الى أرض بنى أسد فأثخن فيهم ، وكانوا قدساروا الى المنذر ابن ماءالسماء، فجمع اليه جيشا وأمده كسرى ، فانهزم امرؤ القيس ، وفر اليمنيون ونجا بدمه . وأراد الرجوع الى اليمن فلم يستطع ، وطلبته قبائل معد وبنى أسد ، وبلغه أن المنذر قد نذر دمه ، وبعث فى طلبه جموعا من إياد وبهراء ، فما زال يتنقل فى القبائل هاربا حتى صار الى تيماء ومعه أدرع بنى كندة التى كانوا يتوارثونها ، وما بقى معه من سلاح ومال فاكرمه السموءل ، وسأله امرؤ القيس أن يكتب له الى الحرث بن أبى شمر ليوصله الى قيصر ففعل ، واستصحب رجلا يدله على الطريق وأودع ابنته وماله وأدراعه السموءل،ووصل الى قيصر فاستنصره، فوجه معه تسعمائة من أبناء البطارقة — وكان امرؤ القيس قد مدح قيصر بقصيدة ، فصار الطماح الأسدى الى قيصر بعد خروج امرىء القيس ، وأخبره ان امرىء القيس شتمه فى الشعر الذى قاله ،فوجه اليه قيصر بحلة قد نضح فيها السم ،فلما لبسها تقطع جلده وأيقن بالموت، وما زال مريضا حتى مات ودفن بأنقره(وهى من أطراف الشام وليست انقره الا ناضول).

هذا ولا يعلم لكندة بعد هؤلاء ملوك اجتمع لهم أمر الملك ، غير أنه كانت لهم رياسة ونباهة ، وفيهم ،سؤدد حتى كانت العرب تسميهم كندة الملوك

﴿ تاريخ الأمارة بالحجاز ﴾

اذا ذكرنا الحجاز هنا فانما نريد البقاع الشمالية من جبل السراة مما يقع حوالى مكة والمدينة اذ كانتا أعظم المدن الحجازية التى قامت بها حكومات أو إمارات فى العصور المختلفة قبل ظهور الاسلام .

المدينة المنوره : وكانت فى الجاهلية تسمى يثرب باسم أحد العمالقة

الذين كانوا ملوكا بالحجاز فى العصور المتوغلة فى القدم . وكانت المدينة دار حكمهم، فكانوا أهل بغى وعدوان ، وقد تفرقوا فى الأرض ملوكا وجبابرة كما أسلفنا .

وفى أيام سيدنا موسى عليه السلام ، غزاهم فى الحجاز بجيش من اليهود ، وأمر ألا يستبقى منهم أحد ممن بلغ الحلم إلا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم، فأظهرهم الله على عماليق الحجاز، فقتلوهم وقتلوا ملكهم الأرقم، وأسروا ابنه وكان شابا جميلا ضنوا به عن القتل، وقالوا نعودبه إلى موسى، وعادوا وقد توفى موسى فأخبروا قومهم بشأنه، فقال لهم قومهم هذه معصية، لمخالفتكم أمر موسى لاتدخلوا علينا الشام ، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا يثرب، فكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز والمدينة، ثم انتشروا فى نواحيها واتخذوا بها الآطام (الحصون) يحتمون بها إذا خافوا ، واتخذوا الأموال والمزارع ، ولبثوا على ذلك حينا وهم أمراؤها وحكامها .

فلما ظهر الروم على بنى اسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا منهم ، خرج بنو النضير وبنو قريظة وغيرهم من اليهود فارين من وجه الروم الى الحجاز ، فنزلوا ببنى آبائهم هنالك، وتبعتهم الروم فهلكوا فى المفازة بين الشام والحجاز .

ولما كانت أيام سيل العرم ، وخرجت الأزد من اليمن مع رؤسائهم الى تهامة، ثم هاجروا الى النواحى الشمالية من تهامة ، نزل بنو حارثة بن ثعلبة ابن عمرو بن عامر بضواحى المدينة، وهم الأوس والخزرج ، ولم يكونوا حين نزلوا أهل نعم وشاء ونخل وأموال . إنما كان ذلك كله لليهود ، فعاشوا بين اليهود بالضواحى والقرى فى شظف من العيش، وهوان واذلال من اليهود، اذ حكموهم وتحكموا فيهم ، وألزموهم أداء الخراج وكان ملك اليهود إذ ذاك اسمه القيطون.

ظل الأوس والخزرج على هذا الحال حتى وفد وافدا منهم، وهو مالك ابن العجلان الى الغسانيين بالشام ونزل على أحد أشرافهم وعظمائهم وقادتهم ويسمى أبا جبيلة، فشكا له ماهم فيه من الضيق وما كان من استذلال اليهود

إياهم فقال للوافد مابالكم لم تبلغوهم حين غلبنا أهل بلدنا ! وأقسم لايمس طيبا حتى بذل اليهود ، ووعد أن يسير إليهم وينصرهم، فعاد الوافد إلى المدينة وأخبر أهلها بأن أبا جبيلة يزورهم،وقد وفى لهم بما وعد وسار إليه بجيش عظيم وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة،فلما قدم خشى أن يتحصن منه اليهود فى أطامهم،فاستقدم رؤساءهم وخواصهم وأظهر أنه يريد الأحسان اليهم ، فجاء أشراف اليهود ووجوههم فى حشمهم وخاصتهم،فأمر بهم فأدخلوا عليه رجلا رجلا وقتلهم عن آخرهم،وقال للأوس والخزرج : إن لم تملكوا بعد هؤلاء أحرقتكم بالنار .

ثم رجع إلى الشام ، فأقام الحيان فى عداوة مع اليهود أياما . ثم إن مالك ابن العجلان الخزرجى صنع طعاما ودعاهم فامتنعوا خيفة الغدر كما فعل أبو جبيلة الغسانى،فما زال يعتذر اليهم ويخادعهم حتى أجابوا دعوته فذهبوا إلى دعوته ، فغدر بهم أيضاً . وقتل من رؤسائهم ، فكانوا يصورونه فى بيعهم ويلعنونه كلما دخلوا اليها ، ولكنهم وقد قتل من وجوههم عدد كثير خشعوا وذلوا ، ونظروا فى أمرهم فحملتهم هذه الكوارث على الوفاق بعد الخلاف ، ثم أرادوا أن يميلوا الى بطون الأوس والخزرج يحتمون بهم، ونزلوا عن رياستهم ، فصارت الرياسة بعد اليهود لهذين الحيين ،فملكوا عليهم مالك ابن العجلان،وظهر عزمهم أياما حتى دب دبيب الخلاف بينهم فوقعوا فى حروب وكانت لهم أيام من أيام العرب المشهورة .

﴿ حرب سمير ﴾

وسبب هذه الحرب أن رجلا من ذبيان يقال له كعب نزل على مالك ابن العجلان الخزرجى فحالفه ، ثم خرج كعب يوما إلى سوق بنى قينقاع فرأى رجلا من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل

يثرب فقال رجل فلان، وقال رجل فلان، فوقع الاختيار على مالك، فدفع الغطفانى الفرس إليه . فقال كعب : ألم أقل لكم ان حليفى مالكا أفضلكم ؟ فغضب لذلك رجل من الأوس يقال له سمير وشتم كعبا وافترقا ، ثم بقى كعب ماشاء الله إلى أن قصد لهم سوقا بقباء ، فقصده سمير ولازمه حتى خلا به فقتله ، وأخبر مالك ، فأرسل يطلب سميرا ، فأنكرت الأوس أنه قتل كعبا ، وترددت الرسل بينهم ، هو يطلب سميرا وهم ينكرون قتله كعبا ، ومع ذلك عرضوا الدية ، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب ، فأبى مالك الا أخذ الدية كاملة فامتنعوا من ذلك ، وقالوا نعطى دية الحليف وهى النصف ، ولج بينهم الأمر حتى اقتتلوا يوما وافترقوا ، ثم اقتتلوا يوما آخر حتى حجز الليل بينهم ، ولكن كان الظفر للأوس ، ومع هذا أيضا فان الأوس أرسلوا إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجارى الخزرجى جد حسان بن ثابت ، فأجابهم إلى ذلك فانوا المنذر فحكم بينهم بأن يدوا كعبا حليف مالك دية الصريح ، ثم يعودوا الى سنتهم القديمة ، فرضوا بذلك ورضى حينئذ مالك ، وحملوا إليه الدية ، وافترقوا وقد شبت البغضاء فى نفوسهم ، وتمكنت بينهم ، فجر ذلك كله الى حروب كانوا يستعينون فى بعضها باليهود لينصروا أحد الفريقين على الآخر .

﴿ حرب حاطب ﴾

وبينها وبين حرب سمير نحو ١٠٠ سنة وهى من أخريات وقائعهم ، وليس بعدها إلا يوم بعاث .

وكان حاطب بن قيس رجلا شريفا سيداً من الأوس . فاتاه رجل من ثعلبة بن سعد من ذبيان ضيفا ، ثم غدا يوما إلى سوق بنى قينقاع فرآه يزيد ابن الحرث من الخزرج . فقال لرجل من اليهود : لك ردائى إن كسعت هذا الثعلبى ، فاخذ رداءه وقصد الثعلبى وكسعه كسعة سمعها كل من فى السوق

فنادى الثعلبي : يالحاطب ، كسع ضيفك وفضح ، وأخبر حاطب الخبر فجاءاليه فسأله من كسعك ؟ فأشار إلى اليهودى ، فضربه حاطب بالسيف ففلق هامته، فأخبر يزيد الخبر ،فأسرع خلف حاطب فادركه وقد دخل بيوت أهله، فلقى رجلا منهم فقتله ، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج واحتشدوا فقصد اليهم رجلان من فزارة ،وهماعيينه بن حصن وخيار بن مالك، وتحدثا فى الصلح وضمنا مايطلب أحد الحيين من الآخر ،فأبى الفريقان،ووقعت الحرب بينهما واشتدت ، والفزاريان يشهدان ويتوقعان أن تفلح مساعيهما ، ولكنهما أيسا من أصلاح ذات البين ، ثم انتهت الحرب بظفر الخزرج.

ثم كان بين الفريقين بعد ذلك حروب تعتبر ذيولا لحرب حاطب وكان الفريقان يتصالحان عقب كل منها على الديات ، وكانت عادتهم أنه اذا دخلت إحدى الطائفتين دورها كفت الأخرى ، إلى أن سئمت الأوس من طول الحرب فسارت إلى قريش بمكة لمحالفتها، فأجابت قريش وكان أبوجهل غائبا. فلما عاد أخبروه فلم يرض،فطلبوا المخرج من الحلف ، فقال أنا أكفيكموه.وذهب الى الأوس فاسترد الحلف منهم ، فطلبت الأوس الى بنى قريظة وبنى النضير من يهود خيبر المحالفة على الخزرج فأجابوا،ولكنهم نقضوا حينما علمت الخزرج بالأمر، فلم ترض الخزرج من اليهود اذا رغبوا فى أن يكف الخزرج عنهم إلا بالرهائن فدفعوها أربعين غلاما .

ثم أنفت نفوسهم حينماسمعوا أن يزيد بن الحرث ندد بهم فى شعر .وقالوا لابد من الغزو ، فقتلت الخزرج الرهائن . واجتمعت الأوس واليهود على الخزرج فاقتتلوا ثم تحاجزوا .

(يوم بعاث)

ثم أن قريظة والنضير جددوا العهود مع الأوس.وعادوا بعدأن تجهزوا

أربعين يوماً ، واستدعت الخزرج حلفاءها من جهينة ، والأوس حلفاءها من مزينة ، واقتتلوا فى ناحية بعاث وهى من أعمال قريظة على طريق مكة من المدينة غربا ، فانهزمت الخزرج أخيراً ووضعت الأوس فيهم السلاح حتى صاح صائح: يامعشر الأوس احسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم، وتولى قريظة والنضير وحدهم الأسلاب وأحرق الأوس دور الخزرج وقطعوا نخيلهم . وقد قتل فى هذا اليوم قائدالأوس حضير الكتائب بن سماك والدأسيد بن حضير، وعمرو بن النعمان البياضى رئيس الخزرج .

وكان يوم بعاث آخر الأيام المشهورة بين الأوس والخزرج إلى أن جاء الاسلام واجتمعوا على نصرة هذا الدين وأهله ، وهاجر اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وسماهم الأنصار، وآخى بينهم وبين المهاجرين ، ووادع اليهود وعاهدهم واشترط عليهم وشرط لهم .

﴿ مكة المكرمة ﴾

هى بلد الله الحرام ، وبها بيته الذى هو أول بيت وضع للناس ومن دخله كان آمنا ، واذا ذكرت مكة ذكر معها بنو اسماعيل من العدنانية .

ومكة بين جبال لاتسلك اليها الأبل والخيل إلا من ثلاث مواضع: احدها جهة المعلاة شمالا ، والثانى جهة المسفلة جنوبا ، والثالث جهة باب الشبيكة جهة الغرب ، والجبل الشرقى جبل أبى قبيس، والغربى الجبل الأحمر ، وكان يسمى الأعرف ، وبه من شرقيه قعيقعان، والجنوبى جبل أجياد ، ومن شعب هذه الجبال يسلك الناس مشاة لا ركبانا.

ولما بنى ابراهيم الخليل بيت الله ، لم يك حوله دور ، واستمر الحال على ذلك إلى أيام قصى بن كلاب الذى جمع قومه وأمرهم أن يبنوا حول البيت الحرام بيوتهم ، وتقدم فبنى دار الندوة ، وبنت قريش دورها بجوار البيت، ولم يتركوا

للناس إلا المطاف، ولما ظهر الأسلام وتكاثر المسلمون فى زمن الفاروق، رأى أن يزيد فى المسجد الحرام ، فاشترى الدور التى حوله وأدخلها فيه، ثم مازال الخلفاء يزيدون فى هذا المسجد حتى صار على ماهو عليه الآن من السعة والبناء الفخم .

﴿ جرهم بمكة ﴾

قدمنا أن يعرب بن قحطان لما ملك اليمن ، ولى اخوته على الأقاليم الأخرى فلما مات استبدوا بما أيديهم ، فكانت الحجاز لأخيه جرهم، ملكها وتوارث أبناؤه الملك فيها الى أن وفد عليهم سيدنا الخليل ابراهيم عليه السلام، ومعه ابنه اسماعيل ، حينما أمر الأول ببناء البيت ورفع قواعده ، فلما فرغا من ذلك أذن ابراهيم فى الناس بالحج ، ثم عاد الى الشام وترك اسماعيل بين جرهم، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليه وإلى ذريته فى هذا الموضع القفر ، وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، فنشأ اسماعيل بين القوم وتعلم لغتهم (؟) وتزوج أخيرا بالسيدة فاطمة بنت مضاض الجرهمى الاكبر ، فلما بلغ سن النبوة أرسله الله إلى جرهم وغيرهم من العمالقة وأهل اليمن ، إلى أن مات تخلفه أبناؤه من بعده على خدمة البيت .

وهنالك رواية أخرى فى نزول ابراهيم واسماعيل مكة، تتلخص فى أن سارة زوج ابراهيم وابنة عمه شجر بينها وبين هاجر أم اسماعيل الخلاف وساء ما بينهما فأمر ابراهيم أن يسير بالأخيرة منهما الى مكة، فسار حتى أنزلها فى موضع البيت الحرام، ثم ولى راجعا عوده على بدئه ، فتبعته هاجر وهى تقول. أالله أمرك أن تدعنى وهذا الصبى فى هذا البلد الموحش وليس معنا أنيس؟ فقال نعم، فقالت إذا لا يضيعنا . وأقامت ماشاء الله أن تقيم حتى نزلت فرقة من جرهم قد هاجرت من اليمن فى سنة أصاب أهل اليمن فيها قحط ، فقروا نحو تهامة ، يطلبون الماء والمرعى ، فنزلوا واديا قرب مكة فرأوا الطير تحوم حول جبل أبى قبيس، فعلموا أنها تحوم حول ماء ، فتبعوا الطير فأشرفوا على مكان هاجر ، فاذا فيه بئر زمزم ، فقالوا لها : إن شئت أقمنا معك فآنسناك والماء ماؤك ،

فأذنت لهم فنزلوا ونشأ بينهم اسماعيل وتزوج فيهم ، وظل إلى أن أمر ابراهيم ببناء البيت فجاء مكة وأشرك اسماعيل فى بنائه، ثم عاد إلى الشام وخلف اسماعيل فى القوم الى أن أرسله الله اليهم والى غيرهم حتى مات ثم عاش بنوه بين جدهم مضاض بن عمرو وأخوالهم من جرهم.

وليس فى هذه الرواية أى ناحية تستدعى إنكارها . فالمقام فيها مقام النبوة والوحى من الملأ الأعلى وكثيراً مايحصل فى أمور النبوات مايخالف العادة والمألوف ، غير أن أمراً واحداً يسترعى النظر ، وهو أن اسماعيل تعلم العربية من جرهم ، وجرهم من اليمن ، ولهم لغة غير لغة بنى اسماعيل من العدنانية، الا أن يقال إنه تعلم اليمنية فوق عربيته التى ورثها عنه بنوه

﴿ مضاض الجرهمى الأصغر ﴾

كان أهل مكة من اليمانيين جرهم وقطورا وهما ابنا عم ، ظعنوا من اليمن وعلى كل قبيل منهم ملك ، كما هى عادتهم إذا هاجروا، ظلوا على ذلك حتى ملك جرهما مضاض بن عمرو هذا ، وملك قطورا السميدع رجل منهم ،وكان مضاض وقومه بأعلى مكة وما يتصل بها ، والسميدع ومن معه بأسفل مكة، وكل فريق يأخذ العشور ممن دخل مكة من ناحيته، وكل فى قومه لايدخل واحد منهما على صاحبه . ثم بغى بعضهم على بعض ، وتنافسوا الملك بمكة ، ومع مضاض بنو اسماعيل وإليه ولاية الحرم ، يولى عليه من يشاء ،دون السميدع. فسار بعضهم الى بعض،والتقوا واقتتلوا فقتل السميدع وانهزمت قطورا ، وتداعى القوم الى الصلح فتصالحوا على أن يساموا الأمر لمضاض فاجتمع له أمر مكة أعلاها وأسفلها ،فنجر بها وأطعم .

ثم نشر الله ولد اسماعيل بمكة واخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام

على الناس، لا ينازعهم ولد اسماعيل فى ذلك لخئولتهم، واعظاما للحرم أن يكون به بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد اسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوما الا أظهرهم الله عليهم بدينهم.

ثم إن جرهما بغت بمكة حينما صار الملك بأيديهم خاصة ، واعتزوا وحملتهم العزة على الأثم، فاستحلوا خلالا من الحرمة ، وظلموا من دخل مكة من غير أهلها ، وأكلوا أموال الكعبة الذى يهدى اليها، و سرقوه مرة بعد مرة ، فرق أمرهم ، ويقال إن ملكهم مضاض نهاهم وحذرهم أن يسلط الله عليهم من يخرجهم من الحرم فابوا وقالوا: من يخرجنا ونحن أعز العرب واكثرهم سلاحا ؟ فجمع أموال الكعبة ودفنها ، وفارق مكة الى اليمن ـ فوافق ذلك خروج اليمنيين من جراء سيل العرم ، ونزل بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أرض مكة فاستأذنوا جرهما أن يقيموا بينهم بمكة حتى يرسلوا الرواد ويرتادوا منزلا حيث رأوا من البلاد ، فأبت عليهم جرهم وأغضبوهم ، فأقسم حارثة لا يبرح مكة الا عن قتال وغلبة ، فحاربوا جرهما فكانت الدولة لبنى حارثة عليهم، وهم فيما يقال خزاعة وعليه تكون خزاعة قحطانية . ولما انتهى أمرهم بالهزيمة خرج عمرو بن الحارث بن مضاض بمن معه من جرهم الى اليمن بعد أن دفن الحجر الأسود وجميع أموال الكعبة فى بئر زمزم وطمها — وحزن هو وقومه على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا يتبين فيما أثر من أشعارهم.

والأمر فى ضعف جرهم عن الدفاع واضح ؛ من أنهم كانوا إذ ذاك آخر دولتهم أو أيام هرمها ، حيث يكثر الظلم ، ويسود الترف ، فتفسد العصبية وتضعف شكيمتها .

﴿ خزاعة بمكة ﴾

وقد اختلفوا فى نسب خزاعة . أهى قبيلة يمنية من بنى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر من سبأ ، أم هى مضرية من بنى قمعة بن إلياس بن مضر ، وقد وفق بعض النسابة بين الرأيين فقال : إن لحى والد خزاعة تركه أبوه قمعة صغيراً ، وقد خلف قمعة على امرأته أم لحى حارثة ، فتبنى لحياً ، وانتسب إليه ، فلحى ابن لحارثة بالتبنى ، وابن لقمعة بالولادة ، ولحى اسمه ربيعة .

ومهما يكن من شىء بعد ، فان خزاعة نزلت مكة وأحلت جرهما عنها ، وكان لها ولاية البيت الحرام .

﴿ عمرو بن لحى ﴾

كان عمرو بن لحى حين غلبت خزاعة على البيت ، قد جعلته العرب ربا ، لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو فى الموسم ، ولقد أمرهم بعبادة الصخرة التى يات عليها السويق للحجيج ، فاستجابوا له ، وبنوا عليها بيتاً هو اللات بالتشديد ثم خفف ، زعم لهم أن اللات لم يمت ولكن دخل فى الصخرة فعبدوها من جراء ذلك ، فهو أصل عبادة الأوثان بمكة .

روى أنه خرج إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مؤاب من أرض البلقاء وجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ماهذه التى أراكم تعبدونها ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصر بها فننصر ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى ارض العرب فيعبدوه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ويقال إنه أول من أدخل الأصنام الحرم ، وحمل الناس على عبادتها ، وأن أمره وأمر ولده دام على مكة ثلثمائة سنة .

هذا والمروى أن خزاعة لم تخرج جرهما من مكة منفردة ، بل تولت كبر

هذا الأمر معها كنانة ، وبخاصة بنى بكر بن عبد مناة من كنانة ، وبنى غبشان من خزاعة ، فانهم « وقد رأوا جرهما بنوا بمكة وظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها » ؛ أجمعوا لحربهم ، وإخراجهم من مكة ، فآذنوهم بالحرب ، وغلبوهم ونفوهم ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

ثم أن غبشان وليت البيت دون بنى بكر يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية ، وفى أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ، وصارت قريش على فرقتين قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، والأولون بنو قصى بن كلاب ، وسائر بنى كعب بن لؤى ، والأخيرون من سواهم ، وهم من كانوا على أقل من مرحلة ، وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر ، وكان التقدم فى مضر كلها لكنانة ، ثم لقريش فى بنى لؤى ، وكان سيدهم قصى ، وإليه انتقلت ولاية البيت من خزاعة .

﴿ قصى بن كلاب ﴾

نشأ قصى بن كلاب فى حجر ربيعة بن حرام من عذرة ، وكان قد قدم مكة بعدما هلك كلاب فتزوج أم قصى وأم أخيه زهرة وكان هذا يومئذ رجلا ، وقصى فطيم ، فاحتملها إلى بلاده فدرج قصى وهو لا يعلم لنفسه أباً إلا ربيعة ، ولا يدعى إلا له ، فلما كان غلاماً يفعة سابه رجل من قضاعة فعيره ، وقال له : لست منا ، وانما أنت فينا ملصق ، فدخل على أمه وقد وجم لذلك فقالت له : يابنى صدق ، إنك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباؤك أشرف من آبائه ، وإنما أنت قرشى ، وأخوك وبنو عمك بمكة وهم جيران بيت الله ، فدخل فى سيارة حتى أتى مكة .

واسم قصى زيد ، وانما كان قصياً أى بعيداً عن بلده فسمى بذلك . أقام قصى بمكة ، وخطب إلى حليل بن حبشية بنته حبى فزوجه إياها ، فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله ، وعظم شرفه ، وهلك حليل رأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر لأن قريشاً قرعة ولد اسماعيل

أى نخبتهم وخيارهم ، وهم أيضاً صريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه ، وعند ذلك كتب إلى أخيه من بنى عذرة وهو رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته والقيام معه ، فخرج رزاح واخوته الأشقاء وغيرهم فيمن تبعهم فى حاج العرب وهم مجمعون نصرة قصى .

والسبب فى طلب قصى هذا الطلب ، ونزوعه هذه النزعة: هو أن حليلا كان يعطى مفاتيح الكعبة إلى ابنته حبى حين كبر وضعف فكانت بيدها ، وكان قصى ربما أخذها ففتح البيت للناس وأغلقه ، ولما رأى حليل ما صار إليه قصى من الولد والمال أوصى إليه بولاية البيت مكانه ،وقال إنك أولى بالكعبة وبالقيام عليها ، وبأمر مكة من خزاعة ، فعند ذلك طلب قصى ما طلب .

ولما هلك حليل أبت خزاعة أن تنفذ وصية قصى ، فهاجت الحرب بينه وبين خزاعة،فأرسل إلى أخيه من أمه يستنجده عليهم .

ويقال إن أبا غبشان من خزاعة واسمه سليم ، وهو ابن حليل باع مفتاح البيت من قصى بزق خمر،فقيل فى أمثالهم : أخسر من صفقة أبى غبشان ، والنتيجة النهائية أن قصيا أصبح والياً على البيت وعلى أهل مكة .

وكان الغوث بن مر من مضر يلى إجازة الناس بالحج من عرفه : ينفر الحاج لنفرهم ، ويرمون الجمار لرميهم ، وكان يقال له ولولده :صوفة ، لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيطا للكعبة ففعلت ، فقيل له ولولده صوفة .وتدورثهم هذه الخدمة صفوان بن الحرث،ثم بنوه من بعده حتى صبحهم الاسلام .

عود — ولما تم لقصى ما أراد ، فعلت صوفة هذا العام ما كانت تفعله وقد عرفت العرب لها ذلك فأتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة أو عند الكعبة.وقال: نحن أولى بهذا منكم فقاتلوه واقتتل الناس قتالا شديداً ، حتى انهزمت صوفة ، وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك — فعرفت خزاعة وبنو بكر أنه سيمنعهم كما منع صوفة ، وانه سيحول بينهم

وبين الكعبة وأمر مكة ، فانحازوا عنه ، فباداهم وأجمع لحربهم ، واقتتلوا قتالا شديدا كثر فيه القتلى من الفريقين ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر ابن عوف من بنى عبد مناة بن كنانة فقضى لقصى بأنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه موضوع يشدخه تحت قدميه ، وإن ما أصابه خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وتضاعة ، ففيه الدية موداة ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة ، فكان أول من أصاب من بنى لؤى ابن غالب ملكا ، أطاع له به قومه ، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت ، وتيمنت قريش برأيه ، فصرفوا مشورتهم إليه فى قليل أمورهم وكثيرها ، واتخذوا داره دار الندوة إزاء الكعبة لمشاوراتهم ، فكانت مجتمع الملأ من قريش ، ثم تصدى لاطعام الحاج وسقيهم لما رأى أنهم ضيف الله وزوار بيته ، وفرض على قريش خراجا يؤدونه إليه زيادة على ذلك فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء .

فالحجابة : سدانة البيت وتولى مفاتيحه . ولا تزال فى ولده من بنى شيبة إلى اليوم

والرفادة : هى ذلك الطعام الذى كان يقدمه فى الموسم للحاج .

والسقاية : سقاية الحاج الماء العذب إذ كان عزيزا بمكة .

والندوة : دار قصى التى جعلها (البرلمان) أو بيت الأمة القرشية .

واللواء : هو راية الحرب ، تلوى على الرمح وتنصب اعلانا للجند حتى يجتمعوا لحرب الأعداء .

وكان له فوق ذلك كله القيادة العامة ، وبذلك حاز شرف مكة كله

ثم قطع مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، فهابت قريش قطع أشجار الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه ، فسمته قريش مجمعا لما جمع من أمرها ، وكان أمره فى قريش فى حياته وبعد موته كالدين المتبع .

هذا ، ولما انتصر قصى على من يناوئه عاد أخوه رزاح إلى بلاد قضاعة وعمل

عمل قصى فأخاف بطنين من قضاعة حتى لحقوا بأثين ، فكان لزاح أمر عذرة ونشر الله بنيه وبنى أخيه فكانوا منهم حيا عذرة .

وكان قصى أول من أعز قريشا ، وظهر به فخرها ومجدها ، لأنها كانت قبله متفرقة الدار ، ذليلة البقاع ، وكان أدهى من لؤى بن غالب : علم أن العرب لن تمكنه من النزول بقومه فى الحرم فجمعهم ليلا وأصبح بهم حول الكعبة فجاء إليه أشراف كنانة وقالوا : إن هذا عظيم عند العرب ، ولو تركناك ما تركتك العرب ، فقال والله ما أخرج منه ، فجعلهم بما صنع أمام أمر واقع وقسم البطحاء بين قريش بفنوا مساكنهم .

ولما كبر قصى ورق عظمه ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وكذلك عبد العزى ، قال قصى لعبد الدار لألحقنك بالقوم ، وإن كانوا قد شرفوا عليك (١) لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له (٢) ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك (٣) ولا يشرب أحد بمكة الا من سقايتك (٤) ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك (٥) ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك وبذلك جمع قصى لعبد الدار ابنه جميع ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصى لا يخالف ، ولا يرد عليه شىء صنعه .

فلما هلك قصى قام بالأمر فى قومه بنوه ، أقاموا على ذلك مدة ، وسلطان مكة لهم ، وأمر قريش جميعا بيدهم ، إلى أن نفس بنو عبد مناف على بنى عبد الدار ما بأيديهم ونازعوهم فافترق أمر قريش واختلفوا فيما بينهم على ما سنبينه

﴿ اختلاف قريش بعد قصى وحلف المطيبين ﴾

قام بأمر قريش بعد قصى بنوه كما سلف ، فاختطوا مكة رباعا بعد الذى صنعه قصى من هذا القبيل ، فكانوا يقطعونها فى قومهم وفى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها ، وأقامت قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع .

ثم أن بنى عبد مناف بن قصى ، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل جمعوا أمرهم على أن يأخذوا مابيدى بنى عبد الدار بن قصى من الحجابة وغيرها ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق ، وطائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا ينزع منهم ماكان قصى جعل اليهم .

وكان صاحب أمر بنى عبد مناف : عبد شمس ، لأنه كان أسنهم ، وكان صاحب أمر بنى عبد الدار : عامر بن هاشم .

وكان بنو أسد بن عبد العزى آل الزبير بن العوام والسيدة خديجة ، وبنو زهرة أخوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنو تيم آل ابى بكر ، وبنو الحرث بن فهر آل أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، مع بنى عبد مناف .

وكان بنو مخزوم آل خالد بن الوليد ، وبنو سهم آل عمرو بن العاص . وبنو جمح آل عبد الله بن مظعون وبنو عدى آل عمر بن الخطاب ، مع بنى عبد الدار .

وخرجت بنو عامر بن لؤى آل بشر بن أرطاة ، وبنو محارب بن فهر آل الخطاب بن مرداس سيد الظواهر فى الجاهلية وابنه ضرار من فرسان الاسلام وشعرائه ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

عقد كل فريق حلفا مؤكدا على الا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا مابل بحر صوفة ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا أخرجتها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، فوضعوها لاحلافهم عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة بها توكيدا على أنفسهم ، فسموا المطيبين .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة أيضا حلفا مؤكدا على الا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا . فسموا الأحلاف .

ثم سوند بين القبائل لتكفى كل قبيلة ماسوند اليها ، فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا الى الصلح :على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوهم ، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماكان من حلف فى الجاهلية ، فان الاسلام لم يزده الا شدة .

هذا — وقد آلت السقاية والرفادة الى هاشم بن عبد مناف ،لان عبد شمس كان رجلا سفارا قلما يقيم بمكة وكان مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسرا ، فلما هلك بغزة من أرض الشام وليها أخوه المطلب بن عبد مناف وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف فى قومه وفضل ، وكانت قريش انما تسميه الفيض ،لسماحته وفضله، ثم ولى ذلك عبد المطلب بن هاشم بعد عمه المطلب فاقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من أجداده وأحبه قومه وعظم خطره فيهم ، وهو الذى الهمه الله حفر زمزم لسقى الحجيج ، فعفت على المياه التى كان قبلها يسقى عليها الحاج ، وانصرف الناس اليها لمكانها من المسجد ولفضلها على ماسواها من المياه ولانها بئر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام،وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب — ثم صارت السقاية والرفادة لابى طالب ولكنه عجز فادان من أخيه العباس مالا انفقه فى هذا السبيل ولم يستطع وفاءه فتنازل له عنهما فوليهما وورث ذلك عنه ابنه عبد الله بن العباس فأبناء عبد الله من بعده الى أن قام بهذا الأمر أبو جعفر المنصور وصار يليها الخلفاء من بعده .

﴿ عبد مناف بن قصى ﴾

واسمه المغيرة . وكان يلقب قمر البطحاء ، وقد ولى الامارة بعد أبيه فجل قدره وعظم شرفه ، حتى جاء الأحابيش « وهم بنو المصطلق من خزاعة وبنو الحرث بن عبد مناه من كنانة وبنو الهون من خزيمة » يسألون الحلف مع قريش ليعزوا بهم ، فعقد بينهم الحلف الذى يسمى حلف الأحابيش وكان على النصرة والتعاقد والتعاون على كل من كادهم من الناس جميعا ، وكان تحالفهم هذا بالله إنهم ليد على غيرهم ماسجا ليل ووضح نهار وما رسا حبشى مكانه ؛ وهو جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ؛ بينه وبين مكة ستة أميال .

﴿ هاشم بن عبد مناف ﴾

واسمه عمرو ، وانما سمى هاشما لأنه كان يهشم الخبز ويصب عليه المرق واللحم فى سنة شديدة نالت قريشا . وقد قدمنا سبب تقدمه على عبد شمس.

ولما ولى بعد أبيه ماكان اليه من السقاية والرفادة حسده أمية بن أخيه عبد شمس على رياسته واطعامه ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ، ودعاه الى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى ، ومنزله بعسفان ، فحلف باذى يحلف به لقد سبق هاشم أمية الى المآثر ، وقضى لهاشم بالغلبة ، فأخذ الابل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة أو أول خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية .

وقد اصطلحت قريش فى حلف المطيبين على أن يولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، فجمع اليهما الرياسة على قريش ، فكان يطعم بمكة ومنى وعرفة ويأمر بحياض من أدم فتجعل فى موضع زمزم ، ثم يسقى فيها من الآبار التى بمكة ، ولا يزال يعمل هذا وذاك حتى يتفرق الناس الى بلادهم .

ويقال أنه أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة ، أو رحلة الشتاء الى اليمن،والصيف الى الشام فيمتارون ويتجرون .

والأصل فيهما أن تجارة قريش كانت لاتعدو مكة ، فكانوا فى ضيق ، فركب هاشم إلى الشام فنزل بقيصر،فكتب اليهم كتابا يؤمنهم ويؤمن تجارتهم ، وعاد فجعل كلما مر بحى من العرب يأخذ منهم الأيلاف (وهو العهد وشبه الاجازة بالخفارة) أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم .

وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام،فجعل يمر بأشراف العرب ولا يلزمهم مئونة ، حتى صار الى غزة فتوفى ، وقام مقامه أخوه المطلب،ثم خافت قريش أن تغلبها العرب فخرج عبد شمس الى النجاشى ، والمطلب الى اليمن، ونوفل الى فارس وكلهم أخوة هاشم،فأخذا العهود على هؤلاء الملوك ،فكان القرشيون يختلفون إلى الأمصار فلا يتعرض اليهم أحد ، وكانوا آمنين فى امتيازهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا ، والناس يتخطفون من حولهم ويغار عليهم، فاذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض لهم أحد ، وبذلك اتسعت معايش قريش وكثرت أموالهم ، وامتن الله عليهم بقوله « لأيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، ولا يقول ابن خلدون بأن هاشما أول من سن الرحلتين « لأن الرحلتين من عوائد العرب فى كل جيل لمرعى أبلهم ومصالحها لأن معاشهم فيها ، وهذا معنى العرب — أقول ومن الواضح أن هاشما وإخوته إنما استوثقوا من كسرى وقيصر والنجاشى وحمير لقريش وحدهم،لا لعامة العرب الذين كان لهم من قديم رحلتا صيف وشتاء ،يتعرضون فيهما إلى نهب الناهبين ، فهاشم واخوته لم يسنوا الرحلتين، ولكنهم أول من أخذوا عهدا من هؤلاء على ألا يتعرضوا لقريش ولا لحلفائها فى الرحلتين بسوء ، فاختلفت قريش بهذا السبب الى هذه النواحى آمنين حتى امتلأت أيديهم وجبر الله بهم قريشا.

﴿ عبد المطلب بن هاشم ﴾

أوليته :— كان هاشم لما أراد الخروج إلى الشام حمل امرأته الى المدينة لتكون عند أبيها وأهلها ، فولدت عبد المطلب وسمته شيبة ؛ فلما مات هاشم بغزة ، خرج أخوه المطلب إلى المدينة فاسلمت شيبة أمه الى المطلب ، فاحتمله ودخل به مكة مردفا له على بعيره ، فقالت قريش : هذا عبد ابتاعه المطلب فسمى شيبه عبد المطلب من يومئذ .

فلما آن أوان رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبد المطلب . أنت أولى بموضع أبيك ، فقم بأمر مكة . فلما مات المطلب فى سفرته هذه قام عبد المطلب بأمر مكة وشرف وساد ، وأطعم الطعام وسقى اللبن والعسل ، حتى علا اسمه ، وظهر فضله وأقرت له قريش بالشرف . فأقام الرفادة والسقاية على أحسن ما كان قومه يقيمونها بمكة من قبله ، ولذلك حصل بينه وبين حرب بن أمية بن عبد شمس منافسة ومنافرة كالتى حصلت بين أبويهما ، وكانت النتيجة فى ناحية عبد المطلب ، وخذل حرب بن أمية ، ثم شرع فى حفر بئر زمزم ، فاعترضه قريش ، لأنه كان يحفر فى المسجد ، ولكنه تابع الحفر إلى أن نبع الماء ووجد سيوفا وسلاحا وغزالا مقرطا مجزعاً ذهباً وفضة . فلما رأت قريش ذلك قالت اعطنا هذا المال فانها بئر أبينا اسماعيل ، أو أشركنا معك ، فقال إنى لم أومر بالمال انما أمرت بالماء فأمهلونى ، ثم بنى حول الماء حوضا ، فكانت قريش تفسده فيبنيه إلى أن سئموا وتركوه ، فطلبوا أن يشاركوه فى الماء فلم يقبل فنافروه إلى كاهنة بنى سعد ، فركبوا إليها وكانت بمشارف الشام ، فلما كانوا ببعض الطريق عرض لهم أنهم قالوا له والله لانخاصمك فى زمزم أبدا ، فارجع إلى سقايتك راشدا . فرجع وصار عبد المطلب سيدا عظيم القدر مطاع الأمر نجيب النسل ، حتى مر به أعرابى وهو جالس فى الحجر وحوله بنوه كالأسد ، فقال إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء ، فأنشأ الله بالنبوة دولة خلد بها ذكرهم

ورفع قدرهم ، وقد أقام عبد المطلب فى رياسة قريش بمكة ، والكون يصغى لملك العرب ، والعالم يتمخض بفصال النبوة ، الى أن وضح نور الله من أفقهم وسرى خبر السماء إلى بيوتهم ، واختلفت الملائكة إلى أحيائهم ، وخرجت الخلافة فى أنصبائهم ، وصارت العزة لمضر ولسائر العرب بهم ، وتحدث الكهان والحزاة قبل النبوة وأنها كائنة فى العرب ، وأن ملكهم سيظهر ، وتحدث أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما فى التوراة والانجيل من بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وظهرت كرامة الله بقريش ومكة فى أصحاب الفيل إرهاصا بين يدى مبعثه .

﴿ أمر قريش بعد الفيل ﴾

ولما أهلك الله جيش أبرهة قال عبد المطلب فى قصيدة :

نعرف الله وفينا سنة صلة الرحم وإيفاء الذمم
لم يزل لله فينا حجة يدفع الله بها عنا النقم
نحن أهل الله فى بلدته لم يزل ذلك على عهد برهة

وقالت العرب فى حق قريش : إنهم أهل الله وقطنه ، يحامى عنهم . ثم اجتمعت قريش بينها فقالوا نحن بنو ابراهيم ، وأهل الحرم ، وولاة البيت ، وقاطنوا مكة فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا ، ولا يعرف العرب لأحد مثل مايعرف لنا ، فلنتفق على ائتلاف : إننا لانعظم من الحل كما نعظم الحرم فاننا إذا فعلنا ذلك ، استخف العرب بنا وبحرمنا ، وقالوا قد عظمت قريش من الحل مثل ماعظمت من الحرم ، فتركوا الوقوف بعرفة والأفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها ويفيضوا منها ، وقالت قريش : نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره ، ونحن الحمس « وأصل الحماسة الشدة » وجعلوا لمن دخل معهم فى ذلك مثل مالهم . ثم ابتدعوا وقالوا : لاينبغى للحمس أن يعملوا الأقط ولا يسلئوا السمن وهم حرم . ولا

يدخلوا بيتا من الشعر، ولا يستظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما . وقالوا لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم ، إذا جاءوا حجاجاً أو عمارا ، ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذ قدموا إلا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا طافوا عراة ، فان أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عريانا إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه ، ألقاها اذا فرغ من الطواف ولا يمسها هو ولا أحد غيره . فدانت لهم العرب بذلك فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم ، ويتركون أزوادهم التى جاءوا بها من الحل ، ويشترون من طعام الحرم ويأكلونه .

فكانوا كذلك الى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم فنسخه وأفاض من عرفات . وطاف الحجاج فى ثيابهم وأكلوا من طعام الحل فى الحرم أيام الحج وأنزل الله تعالى فى ذلك « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » وأنزل أيضا «يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين » فلما بعث محمد للناس بشيرا ونذيرا آذته قريش ممن لم يصدقوه ، فهاجر الى المدينة وهاجر معه بنو أبى طالب ، وعمه حمزة ، ثم العباس ، والكثير من بنى عبد المطلب ، وسائر بنى هاشم ، وبذلك خلا الجو بمكة من مكان بنى هاشم ، واستغلظت رياسة بنى أمية فى قريش ، فاستقل أبو سفيان بالرياسة والشرف عليهم والتقدم ، وكان رئيسهم فى أحد وقائدهم فى الاحزاب.

ولما فتحت مكة انتهت رياسة أبى سفيان وصارت هى والمدينة للمسلمين برياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ أحوال العرب الاجتماعية فى مواطنهم المختلفة ﴾

كانت الأمة العربية فى جاهليتها قبائل مختلفة النزعات خاضعة للشهوات فخر كل قبيلة فى قتال اختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، تسوقها

المطامع إلى ميادين الحروب — وكانت ربط النظام الاجتماعى بينهم غير وثيقة. أما من الوجهة الخلقية فقد كانوا يقتلون الأولاد ذكرانا وإناثا خشية الأملاق وفراراً من النفقات ، أو تخلصاً من العار ، وقد بلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة .

البد والحضر :

والعرب يختلفون باختلاف نحلتهم من المعاش، فالقائمون منهم على الأنعام المقتصرون على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن ، الذين يتخذون البيوت من الشعر والوبر، أو من الطين والحجارة غير منجدة قصد الاستظلال والكن لا ماوراءه — والذين يتناولون أقواتهم بعلاج يسير أو بغير علاج ألبتة إلا مامسته النار ، كل هؤلاء (البدو) ويسمون أيضاً بأهل الوبر، لأنهم يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الطين والحجارة غير منجدة وغرضهم منها الاستظلال والكن لاماوراءهما.

والمعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعاداتهم، الذين يتعاونون فى تحصيل مافوق الحاجة ، والذين يستكثرون من الاقوات والملابس ويتأنقون فيها، والذين يوسعون البيوت ويخطون المدن والأمصار، ويتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه، ويغالون فى صرحها ويبالغون فى تنجدها، ويختلفون فى استجادة مايتخذونه لعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية ، كل هؤلاء هم (الحضر) ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ويسمون أهل المدر، لأنهم يتخذون المدن والقرى يبنونها بالمدر غالبا، ومنهم من ينتحل الصناعة، ومنهم من ينتحل التجارة .

هذا، والبدو أقدم من الحضر ، لأن الضرورى أصل والكمالى فرع ، وخشونة البداوة أسبق من رتة الحضارة ، وأهل البادية أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، وهم كذلك أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر .

وبيان ذلك فى الأول : — أن الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ

وعوائد الترف والعكوف على الشهوات، قد تلوثت نفوسهم بكثير من مذمومات

الخلق والشر ، فبعدت عليهم طرق الخير ، ومسالك المكارم ، أما البدو فأقرب إلى الفطرة الأولى ، وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء المكات ، واقبالهم على الدنيا انما يكون لتحصيل الضرورى لا الكمالى ، مما يدعو إلى الترف ويقود الى عادات السوء .

وبيانه فى الثانى : — أن الحضر بترفهم وانغماسهم فى النعيم ، قد وكلوا أمر المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذى يسوسهم ، والحامية التى تؤلف حراستهم ، واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم ، فألقوا سلاحهم وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم حتى صار ذلك لهم خلقا ينزل منزلة الطبيعة . أما البدو ، فلتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم الأسوار والابواب قد قاموا بالمدافعة عن أنفسهم ، لايكلونها الى سواهم ولا ينقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح حيثما كانوا ، واثقين بأنفسهم أينما حلوا ، فصار لهم البأس خلقا ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استفزهم صارخ ، وصارت الصراحة فى القول من أخص صفاتهم . لأنه لاتلحقهم هيبة ذى هيبة

ولذلك كانت العصبية فيهم أظهر ، وحظهم من صحة النسب أوفر ، والعصبية بها تكون الحماية ، والمدافعة ، والمطالبة ، وغايتها الغلب ، وهو يؤدى إلى الملك ، والنسب الصحيح ، هو الذى يؤدى إلى الالتحام ، الذى يوجب صلة الأرحام والشفقة والنعرة عليهم أن يصيبهم ضيم ، أو يلحقهم أذى .

وكان العرب فى جميع نواحى الجزيرة بادين وحاضرين . فلما ملك الحميريون من التبابعة بلاد اليمن ، كانوا بنو كهلان بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم ، ولا أدركهم الهرم الذى أودى بحمير .

ولما ملك التنوخيون بلاد العراق أيام ملوك الطوائف ، ثم جاء أردشير ابن بابك فملك من العرب الأحلاف . أنف بقية قضاعة من الأقامة فى ملكه ، وخرجوا إلى البرية ، فكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ، بين الأنبار والحيرة على ريف العراق بادين .

ولما ملك الضجاعم وقومهم من سليح بلادالشام ؛ ثم جاءت غسان من اليمن نزلوا بجوارهم متبدين فى أطراف البلاد ؛ ثم غلبوا الضجاعم على ما بأيديهم ، وحلوا محلهم فى رياسة العرب هنالك ؛ فصاروا حضرا ؛ وهكذا .

أما وسط بلاد العرب من نجد والحجاز فكان سكانها بادين بلاشك ، فراراً من تغلب الأجانب عليهم ؛ تجمعهم الأخلاق والعادات والمدافعة عما حاوزه من الأرض ؛ ويفصل بينهم مايقع من المنافسات والمشاجرات المقرونة بسفك الدماء ؛ وكانوا سواسيه فى الأموال لتماثلهم فى الوسائل المؤدية اليها ، حتى ظهر قصى بمكة من بلادالحجاز ، وجمع قومه فبنوا مكة ، واتخذوها حاضرة ملكهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل فى نجد ؛ فظل أهلها على بداوتهم .

﴿ طبقاتهم فى النسب ﴾

أحسن ماجاء من ذلك تقسيمهم على الصورة الآتية : —

الشعب : وهو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان .

القبيلة : وهى الفرع من فروع الشعب مثل ربيعة أو مضر من عدنان .

العمارة : وهى قسم من القبيلة مثل قريش من مضر أو كنانة منها .

البطن : وهم فريق من العمارة مثل بنى عبد مناف من قريش .

الفخذ : وهو فريق من البطن مثل بنى هاشم أو بنى أمية من عبد مناف .

الفصيلة : وهى فرقة من الفخذ مثل بنى العباس من هاشم .

وقد رتبهم سيدنا عمر رضى الله عنه حين دونهم باعتبار القربى من رسول الله صلى عليه وسلم ؛ فبدأ بالترتيب فى أصل النسب ، ثم بما تفرع عنه . فالعرب عدنان وقحطان . فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشا وغيرها ، فقدم قريشا لذلك أيضا ، وقريش تجمع بنى هاشم وغيرهم ؛ فقدم بنى هاشم ؛ فجعل بنى هاشم أصل التقسيم ، ثم ثنى بمن يليهم من أقرب الأنساب

اليهم ، حتى استوعب قريشا ، ثم عطف بمن يليهم فى النسب حتى استوعب جميع عدنان .

وكان رضى الله عنه يقول: تعلموا النسب .ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا وكذا .

ولما كثر اختلاط العرب بغيرهم بعد الفتح ، اختلطت أنسابهم وفسدت وفقدت ثمرتها من العصبية ، ولم يبق شىء من ذلك إلا فى البدو وسكان الصحارى والقفار من جميع البلدان الاسلامية .

﴿ حالتهم السياسية ﴾

كان العرب فى جاهليتهم دول ،وكان لهم ملوك ،وبخاصة فى اليمن والعراق والشام،حيث الخصب الطبيعى .وموارد الرزق الواسعة ، واعتدال المناخ ، ولكن نوع الحكومة التى كانت لهم فى دولهم حيث فاقت بالقياس على الموجود الحاضر ،غير معروف، والغالب أنها كانت على وجه عام من الحكومات المطلقة ، والاستبدادية .

ولا يخفى أن اليمنيين فى دولهم كانوا متبوعين غير تابعين ، أما قضاعة والغسانيون بالشام فكانوا عمالا للروم ، يجبون اليهم ؛ ولهم فى نظير ذلك السيادة على العرب الذين ينزلون معهم ، يحكمونهم ؛ على مقتضى ما ألف العرب من النظم ، وملك العرب بالعراق كان مستقلا أيام ملوك الطوائف فقط؛ أما فى أيام أردشير ومن بعده من الأكاسرة فان العرب كانوا تابعين الى الفرس ، بدليل أنهم يعزلون ملوك العرب ويولون غيرهم ممن أرادوا ، سواء أكان ذلك من بيت الملك القديم ، أم من بيت آخر ، واعتبر هذا بما حصل من قباذ فى عزله المنذر بن ماء السماء اذ لم يعتنق المذهب المزدكى ، وتوليته الحرث بن عمر بن حجر ما كان يلى المنذر من أمر العرب، ثم ما كان من كسرى أنوشروان ، حينما تولى بعد أبيه قباذ ، من إعادة المنذر إلى ملكه .

والذى يؤخذ من المناظرة التى كانت بين النعمان وكسرى ، أن المناذرة لم يكونوا جباة لفرس ، ولم يكونوا يؤدون اليهم الخراج ، وذهب بعض المؤرخين إلى أنهم كانوا يؤدونه ، وبناء عليه يكون حكم سلطان الروم والفرس على من انضم تحت لوائهم من العرب حقيقيا لا صوريا .

إن كل واحدة من دولتين الدولتين فارس والروم ، رأت أن تقاتل العرب بالعرب خشية الاغارة ، فأقامت منهم ملوكا ، وأقرت ملكهم ، وجعلتهم لها حلفاء يكرنون معها عند الحاجة مطلقا . وهذا ما كان من شأن المناذرة مع الفرس على الروم ، وما كان من شأن الغسانيين مع الروم على الفرس .

وإذا عدنا إلى اليمن فاننا نجد أن ملوكها ملكوا ولم يخضعوا إلا حينما اختلف ملوكهم وأمراؤهم ، وتطاحنوا فضعفوا ، واضطروا الى الاستنجاد بالحبشان فدخلوا عليهم اليمن ، وملكوهم وأذلوا رجالاتهم ، ثم أراد واالتخلص منهم واستعادة ملكهم ، فاستنجدوا بالفرس ، وتم لهم ذلك أيام سيف بن ذى يزن حتى مات غدرا ، فلم تر الفرس بدا من ضم اليمن الى ملكها حتى جاء الاسلام كما أسلفنا .

هذا شأن الحضر فى اليمن والشام والعراق .

أما أهل البادية فهم قبائل ، لكل قبيلة رئيس أو شيخ يحكمها على حسب العرف ، وهو يقوم عندهم مقام القانون الذى يرجع اليه الحضريون ، وقد فطروا على التقاطع وغزو بعضهم بعضا ، فكانت كلمتهم بذلك متفرقة ، ومن أجل هذا كانوا لا يحسنون سياسة الملك ، وان كانوا يحسنون بناءه وتأسيسه لقوتهم وبسالتهم ؛ وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون :

« ولما كانت سياسة الملك تقضى أن يكون السائس وازعا بالقهر والا لم تستقر سياسته ، وكانت طبيعة العرب أخذ ما فى أيدى الناس خاصة ، والتجافى عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ، بعدت طباعهم عن سياسة الملك »

وقد تتحالف جملة قبائل فتصبح تحت لواء واحد ، وتكون الكلمة العليا فيها جميعها لمن بيده هذا اللواء ، وانما يصل الواحد منهم الى هذه المرتبة بالقوة

والغلبة ، أو بالحزم أو بالمال ، أو بالدسائس . فان كان قوى الشكيمة أذعنوا إليه ودانوا له ، ولم يطمعوا فى ناحيته ، والاقادهم الطمع إلى الاستطالة عليه ، والفتك به .

وقد ينفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه ، كالذى كان يفعله كليب وائل ، وكان من قادة معد ، وقد دخله « من جراء بقائه فى مشيخة قبائل معد مدة طويلة » زهو شديد ، واسمه وائل بن ربيعة ، وإنما لقب كليبا لأنه كان إذا سار أخذ معه جرو كلب ، فاذا مر بروضة أو موضع يعجبه ضربه ، ثم ألقاه فى ذلك المكان وهو يصيح ويعوى فلا يسمع عواءه أحد إلا تجنبه ولم يقربه ، إذعانا لأمر كليب ، وبلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويقول وحش كذا فى جوارى فلا يصاد ، ولا يورد أحد مع إبله ، ولا يوقد ناراً مع ناره ، ولا يمر أحد بين بيوته ، ولا يحتبى أحد فى مجلسه « اجتنبى بالثوب اشتمل ، أو جمع بين ظهره وساقه بعمامة ونحوها »

وهذه صورة من صور استبداد رؤساء القبائل . يصح جعلها مثلا للحالة العامة بين الحكام والمحكومين من البادين غالبا .

خرج كليب يوما يتعهد إبله ومراعيها ، وكانت إبله وإبل جساس بن مرة من بنى شيبان مختلطة ، فرأى ناقة لرجل من جرم (وجرم حيان من اليمن أحدهما من قضاعة ، والآخر من طى) نزل بالبسوس خالة جساس ، فأنكر الناقة وقال لجساس : لاتعد هذه الناقة إلى هذا الحمى ، فقال جساس : لاترعى إبله مرعا إلا وهذه معها ، فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمى فى ضرعها ، فقال جساس : لئن وضعت سهمك فى ضرعها ، لأضعن سنان رمحى فى لبتك ، فاستشار كليب أمرأته وهى أخت جساس ، فكانت تناشده الله أن لا يقطع رحمه ، وتنهى جساسا أن يسرح إبله ، ثم أن كليبا خرج إلى الحمى وجعل يتصفح الابل ، فرأى ذقة الجرمى ، فرمى ضرعها فأنفذه ، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها ، فلما رأى مابها صرخ بالذل ، وسمعت البسوس فوضعت يدها على رأسها ثم صاحت واذلاه ، وجساس يراها ويسمع ،

فقال لها: اسكتي ولا تراعي، وسكن الجرمي ، وقال لهما انى سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة — وإنما أراد بمقالته كليبا — وكان لكليب عين يسمع ، فأعاد الكلام على كليب ، ولم يزل جساس يطلب غرة من كليب حتى خرج يوما آمنا، فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه، وأخذ رمحه وأدرك كليبا، فطعنه فأرداه عن فرسه ، فلما سمع أبو جساس بذلك دعى قومه إلى نصرته فأجابوه ، وجلوا الأسنة وشحذوا السيوف ، وقوموا الرماح ، أما قوم كليب ، فذهبوا إليه فدفنوه، واجتمعت النساء للمأتم ، وأمرت أخت كليب باخراج أخت جساس وهى زوج كليب ، فأخرجتها، فلقيها أبوها ، وسألها ماوراك ؟ فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد ، ، وفقد حليل، وقتل أخ عن قليل ، وبين هذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد ، وقالت أخت كليب : رحلة المتعدى وفراق الشامت ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة — أما مهلهل أخو كليب فكان يشرب مع همام بن مرة أخى جساس ، ثم صحا فلم يرعه الا النساء يصرخن ألا إن كليبا قتل فقال :

كنا نغار على العواتق أن ترى ... بالأمس خارجة عن الأوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسرا ... مستيقنات بعده بهوان

إلى أن قال:

فلأتركن به قبائل تغلب ... قتلى بكل قرارة ومكان

ثم جز ناصيته وقصر ثوبه، وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع قومه، وأرسل إلى بنى شيبان رجالا فقالوا لمرة فيما قالوا : وإنا نعرض عليك خلالا أربعا ، لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع إما أن تحيى لنا كليبا ، أو تدفع لنا قاتله جساسا فنقتله به، أو همام فانه كفء له، أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاء لدمه . فقال لهم : أما إحيائى كليبا فلست قادرا عليه ، وأما دفعى جساسا اليكم ، فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه، فلا أدرى أى بلاد قصد ، وأما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة : كلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة

فلا كون أول قتيل فما أتعجل الموت . ولكن لكم عندى «خصلتان» أما إحداهما فهؤلاء أبنائى الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، وأما الأخرى فإنى أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق سمر الوبر ، فغضب القوم وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء ، وتسومنا (تحكمنا) اللبن من دم كليب ، ونشبت الحرب بينهم ، واعتزلت قبائل بكر الحرب ، وكرهوا مساعدة بنى شيبان ، وأعظموا قتل كليب : — وجعلت تغلب تطلب جساسا أشد الطلب فقال له أبو دمرة : الحق بأخوالك بالشام فامتنع ، وأبى عليه أبوه ، فسيره سرا فى خمسة نفر ، وبلغ الخبر مهلهلا فندب له ثلاثين رجلا من شجعان أصحابه ، فساوروا مجدين فأدركوا جساسا فقاتلهم ، ولكنه جرح جرحا شديدا مات منه

ولما مات أرسل أبوه مرة إلى مهلهل : إنك قد أدركت ثأرك ، وقتلت جساسا فكف عن الحرب ، ودع اللجاج والأسراف ، وأصلح ذات البين ، فهو أصلح للحيين ، وأنكأ لعدوهم ، فلم يجب إلى ذلك .

وكان الحرث بن عباد البكرى قد اعتزل الحرب ، فأراد أن يصلح ذات البين ، فأرسل ابن أخيه إلى مهلهل فقتله ، وقال له: بؤ بشسع نعل كليب ، « والشسع قبال النعل ، وهو زمامها الذى بين الأصبع الوسطى والتى تليها » فلما سمع بقتله ظن أنه قتله ليصلح بين الحيين ، فقال : نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابنى وائل ، ولكنه لما سمع مقال مهلهل الأخير غضب وتولى أمر بكر ، وقاتل قتالا شديدا ، وقتل فى تغلب مقتلة عظيمة فى يوم يسمى يوم تحلاق اللمم ؛ لأن بكرا حلقوا رءوسهم ليعرف بعضهم بعضا ، وأسر الحرث مهلهلا « واسمه عدى » وهو لا يعرفه وقال له : دلنى على عدى وأنا أخلى عنك ، فقال مهلهل . عليك عهد الله بذلك إن دللتك ؟ قال نعم ، قال فأنا عدى فجز ناصيته وتركه ، ثم كانت بعد ذلك بينهم أيام ثم مزاحفة ، ولهذا استمرت حروبهم أربعين سنة من أجل ناقة ، إلى أن قال مهلهل لقومه: قد رأيت أن تبقوا على قومكم ، فإنهم يحبون صلاحكم ، أما أنا فما تطيب نفسى أن أقيم معكم ، ولا أستطيع أن أنظر الى قاتل كليب ، وأنا أخاف أن

أحملكم على الاستئصال ، وأنا سائر الى اليمن . وفارقهم وساروظل ينتقل فى نواحى بلاد العرب إلى أن مات ، بعد أن ضعف الحيان ، وخضعت بكر وتغلب معا الى المنذر بن ماء السماء . ثم ملكت بكر عليها حجر بن عمرو آكل المرار ، وورثه فى ذلك ابنه الحرث الذى فرق ولده فى معد كلها ، فكانت بكر كلها الى ابنه شرحبيل ، وتغلب كلها الى ابنه سلمة .

وعلى هذا يقاس أمر كل رياسه فى قبائل العرب البادين — ومع ذلك فان الواحد من اهل النسب الواحد يرى فى كل واحد من قومه انه عدته التى يدافع بها الأعداء ، فسيف الواحد سيف أخيه ، وحربه حربه وسلمه سلمه ، وماله مبذول دونه ينصر الواحد منهم اخاه ظالما امظلوما ولا يعرفون التأويل الذى جاء به الاسلام فى هذا المعنى من معاونته على الحق ورده عن الظلم) بل تقوم القبيلة كلها انتصاراً لفرد من افرادها . ويركبون معه على اى مركب ركب . فيا كان ذلك او رشداً . فاذا احجمت الصق بها هذا الاحجام عارا لايمحى ، وهذا هو الأصل فى العصبية والمقصود منها (وهو المدافعة والتناصر فى ذوى الأرحام والقربى ، والتخاذل فى الأجانب والبعداء) وبالنسب يتم المقصود من العصبية ويدخل باب النسب الولا ، فالمولى من الحقوق ما للنسب لأن طول عشرتهم وصحبتهم يحصل به الالتحام . واذا جاء والالتحام جاء التناصر ، إلا ان الموالى لايكون لهم الشرف بالاصالة بل بالانتماء الى أهل العصبية لأنهم ليسوا من جلدتها ، والنسب يكون فى بنى الأب الواحد فاذا تشعبت البطون وافترق بنو الأب الى قبائل انحلت روابط القرابة ، وحصل التنازع بين القبيلتين ، للتنافس فى الرياسة والاستئثار بالشرف او لمجرد الغلبة على ما فى ايدى الناس لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما يملكه غيرهم . ومن دافعهم عن متاعه أعلنوا عليه الحرب ، وقد يستمر هذا التنازع بين القبيلتين الى أن يفزعوا الى السيوف فتفصل القوة بينهما ، وتثبت الحقوق للمنتصر فيملى من شروط الصلح مايملى ، وعلى هذه الصورة وقعت الحرب بين الأوس والخزرج ، وبين بكر وتغلب ، وبين مضر وربيعة ، وبين عبس وذبيان ، أى بين

القبيلتين اللتين يجمع بينهما أب واحد ، وإذا بحثت فى مثـار ذلك وجدته فى الأصل بين الرعاة مثلا فى منهل يختلفون فيمن ينبغى له أن يرده أولا .

ويقوم مقام النسب الحلف . وهو بين قبائل العرب كالمعاهدات السياسية بين الأمم الراقية الآن ، ولا يختص بأهل النسب الواحد من القبائل ، بل قد يجمع القبائل المتباعدة فى النسب ، كالحلف الذى اقامه حجر بن عمرو آكل المرار بين كندة وربيعة ، وبالحلف يحصل الالتحام الذى يؤدى الى التناصر .

وقد بلغ من احتفاظهم بالحلف ، أنه اذا عقدت قبيلة حلفا مع قبيلة ، أو قبائل آخرى ، كان حقا على كل فرد من أيها أن ينصر أى فرد من أفراد الأخرى .

وكانوا إذا عقدوا حلفا ، مالوا الى صبغه بالصبغة الدينية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، كما فى حلف المطيبين .

ويقوم مقام النسب والحلف الجوار . فالجار الذى يجيره غيره من أن يظلم ، فى منزلة النسيب والحليف ، يجب الدفاع عنه والوفاء له ، ولو أدى ذلك الى سفك الدماء ، وقتل الأولاد ، وبذل الأموال .

قال عبد الملك بن مروان لبعض بنى تغلب : مامبلغ عزكم ؟ فقال : لم يطمع فينا ولم نؤمن ، قال فما مبلغ حفاظكم ؟ (حميتكم) قال يدفع الرجل مناعمن استجار به من غير قومه ، كدفاعه عن نفسه ، وربما استهان الرجل بسفك دم أخيه فى سبيل الوفاء لجاره بما عنده له من الجوار .

وكان لرؤساء القبائل على من ينضم تحت لوائهم الطاعة العمياء ، فلا يسأل إذا دعاهم للحرب غضباً من أمر ، فى أى شىء غضبت ؟ ولا يوردون إلا عن أمره ، ولا يصدرون إلا عن رأيه .

وكانوا إذا غنموا أموال محاربيهم أخذ الرئيس مايعده لما قد يطرأ ، ولما يتحمل من النفقات وذلك هو :—

الصفى : وهو مايصطفيه لنفسه قبل القسمة .

المرباع : وهو ربع الغنيمة .

النشيطة : وهو ماأصاب فى طريقة إلى الغزو قبل أن يصل الى من يريد غزوهم .

الفضول : وهو ما لاتصح قسمته على عدد الغزاة من بواقى القسمة كالبعير والفرس .

وهو فيما عدا ذلك لايتطلع إلى مافى يد أحد من قومه قل أوجل، بل كان يواسيهم فى الضراء،ويفضل عليهم .

وكان الرؤساء عادة من أهل الحلم والشجاعة، والكرم والثروة والعدد والخصال الممدوحة ،ومن أجل هذا كانت القبيلة تلقى اليهم مقاليد الأمور.

ومع ماسبق من الرياسة ، قدكان للعرب حكام يرجعون اليهم فى أمورهم، ويتحاكمون فى منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم ؛ لأنه لم يك هنالك دين يرجعون الى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والامانة والسن والمجد والتجربة .

وكان أول من استقضى إليه فقضى : الأفعى الجرهمى ، وهو الذى حكم بنى نزار ، وكان أبوهم قد قال لهم : إن أشكل عليكم واختلفتم ، فعليكم بالأفعى،الجرهمى بنجران ، فاختلفوا فى القسمة ،فتوجهوا إليه فقضى بينهم.

ومنهم أكثم بن صيفى من حكام تميم ، وكان نصيحا عالما بالأنساب ، وقد جمع تميما حينما بعث النبى صلى الله عليه وسلم .ودعاهم إلى الاسلام،وقال لهم فيما قال : إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسناً .

ومنهم يعمر بنى عوف من بنى بكر بن كنانة ، وهو الذى قضى بأن قصى ابن كلاب أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة .

ومنهم الكاهن الخزاعى وهو الذى قضى لهاشم بن عبد مناف على ابن أمية بن عبدشمس .

ومنهم كاهنة بن سعد ، وكانت بأشراف الشام ،.وهى التى خرج إليها عبدالمطلب وقومه حينما نازعته قريش فى ماء زمزم .

ومنهم طريفة الكاهنة : وهى التى أنذرت عمرو بن عامر بزوال ملكه، وأخبرته بخراب سد مأرب .

وكانت أحكام الكهان ومن على شاكلتهم مبنية على الحدس والتخمين، أو التجربة أو العادة ، فيستدل الكاهن على الحادث بما موقع قبله ، ويقيس عليه . وقد جاء الاسلام فأبطل كل شىء من أقوالهم وأسجاعهم .

وكان فى قريش خاصة حكام . منهم هاشم وابنه عبدالمطلب ، وحرب ابن أمية، وعبيدالله بن جدعان وعبيدالله بن المغيرة المخزومى ونفيل بن عبدالعزى جد عمر بن الخطاب .

﴿ معايشهم فى الجاهلية ﴾

وكان من أهم أسبابها عامة :

التجارة : وهى شائعة فى بلاد الخصب ، وبلاد الجدب ، وكانوا يتمادحون بكسب العيش وبخاصة قريش ، وكان لهؤلاء رحلات منها رحلتا الشتاء والصيف وكان لليمن وعمان والبحرين تجارة واسعة ، لما فى بلادهم من المعادن والأحجار الكريمة والمنسوجات والغلات الزراعية التى كانت تجد لها أسواقا واسعة فى البلاد الأخرى من البلاد العربية ، وكان اليمنيون خاصة يتجرون مع الحبشة وفارس ومصر . ولهم مرافىء كثيرة منها مخا وعدن ، وكانت هذه الثغور متوسطة بين الهند ومصر والحبشة . ولذلك كانت حركة التجارة فيها واسعة إذ هى ملتقى هذه التجارة من هذه الأقطار .

أما عروض التجارة غالبا فكانت فى غلات بلادهم من الطيوب والفضة والحجارة الكريمة كالعقيق والمرجان واللؤلؤ . ثم اللبن والتمر والصمغ والمر واللبان واللحناء ، ثم الماشية والصوف والشعر والجلود ، ثم فى غلات البلاد الأخرى من الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، ثم السكر ، ثم المنسوجات الكتانية والقطنية والثياب القبطية وغيرها من مصر والشام .

وكانت أهم مخازن التجارة : مكة المكرمة ببلاد الحجاز ، وصنعاء من بلاد اليمن . وكان الربا شائعا بين العرب عامة ، واليهود خاصة ، ويعتبرونه نوعا من البيع ، وكان يتعامل به فى الطائف ونجران .

وكان كسرى يرسل لطائفه إلى نواحى بلاد العرب لتباع فيها ، وكانت طرق القوافل عامة فى جزيرة العرب تربط أطرافها بالبلاد المجاورة ، ولا يزال الاعتماد عليها إلى الآن فى النقل .

ولم يك من العرب من يستنكف أن يكون تاجرا ، أو يكون له أموال فى التجارة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشتغل بالتجارة قبل البعثة فى مال السيدة خديجة .

والاصل فى إقبال العرب على التجارة أن أرضهم لا تخرج ما يقوم بسد أودهم ، ومن أجل ذلك احتاجوا إلى جيرانهم لتبادل المرافق فاضطروا الى الاتجار لسد الحاجة أولا وللربح ثانياً .

وكان للعرب أسواق يقيمونها للبيع والشراء كالتى تقام فى « نجنى نفجرود » (بالروسيا الآن) ومنها دومة الجندل فى البادية شمالا ، وهجر بالبحرين ، وعدن وصنعاء باليمن ؛ وذو المجاز بجانب عرفات ؛ ومجنة بالقرب من مكة ، وعكاظ وهو أعظم أسواقهم ومواسمهم ، وكلها بالحجاز حول مكة .

وكانوا ينزلون دومة أول يوم من ربيع الأول ، وكانت سوقها تستمر قائمة الى آخر هذا الشهر ، يقوم بها صاحب دومة ، وقد يغلب عليها فى النصف الثانى منه أحد رؤساء بنى كلب ، وكان أكثر تجارتها فى الماشية والحبوب .

وكانوا ينزلون هجر فى جمادى الأولى ؛ وأكثر تجارتها فى التمر ، ويقوم بها تيم من رهط المنذر بن ساوى التميمى ، وينزلون عدن فى شعبان وأيام من رمضان ؛ يتجرون فى أنواع الطيب ، ومنها يحمل الطيب الى سائر الآفاق ، وينزلون صنعاء فى بقية رمضان للاتجار فى الأدم والبرود وهى الثياب المخططة والاكسية التى يلتحف بها « الشيلان » ، ثم يرتحلون فى الأشهر الحرم إلى عكاظ ؛ وكانت مجمع القبائل من قريش وغيرها وبخاصة مضر .

وكان يقوم بأمر الحكومة فيها أناس من تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس ، ولذلك لم تك قاصرة على البيع والشراء ، بل كانت دائرة العمل فيها أوسع يتحاجون ويتفاخرون ويتناشدون الأشعار . ومن كان له أسير سعى فى فدائه ، ثم ينزلون بمجنة عشرين يوما من ذى القعدة ، فاذا أهل ذو الحجة نزلوا ذا المجاز ، فيقيمون إلى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة .

ومن أجل أنه كان يفد إلى هذه الاسواق كثير من قبائل العرب لأداء الحج ، كانت أنواع المتاجر فيها كثيرة ، وبخاصة إذا لحظنا أنه كانت تفد إليها القوافل من غير بلاد العرب للتجارة بمناسبة مواسم الحج ، كلطائم كسرى . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الأسلام إلى أن كان أول ماترك منها عكاظ زمن خروج الخوارج بمكة سنة ١٢٩ هـ فنهبوها فتركت الى الآن .

وكان العرب يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسموا المحلون ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة المحرمون . وهؤلاء كانوا يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس . وكانت العرب تحضر سوق عكاظ ، وعلى وجوهها البراقع ثم بطلت هذه العادة .

﴿ أديان العرب ﴾

كانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل ، والانتقال الى البلدان والانتجاعات ، فكانت قريش ، وعامة ولد معد بن عدنان على شىء من دين ابراهيم ، يحجون البيت ، ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ، ويعظمون الاشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم ، فلم يزالوا كذلك ما كانوا ولاة للبيت ، وكان آخر من قام بولاية البيت من ولد معد ثعلبة بن إياد بن نزار بن معد ، فلما خرجت إياد وليت خزاعة حجابة البيت فغيروا ما كان عليه الأمر فى المناسك ، وخرج عمرو بن لحى

الى أرض الشام، فجاءهم بصنم يقال له هبل كما سلف، فعبدوه ودانت العرب للأصنام، ثم وضعوا أساف ونائلة، كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف اذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم به ؛ ونصبوا على الصفا صنما يقال له مجاور الريح ، وعلى المروة صنما يقال مطعم الطير، فكانت العرب إذا حجت البيت ورأت تلك الأصنام، سألت قريشا وخزاعة، فيقولون نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى ، فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصناما كثيرة، فجعلت كل قبيلة لها صنما يصلون إليه تقربا الى الله فيما يقولون ، فكان لكلب وأحياء قضاعة بدومة الجندل (ود) وكان لحمير وهمدان (نسر) منصوب بصنعاء ، وكان لكنانة (سواع) وكان لغطفان (العزى) وكان لثقيف (اللات) منصوبا بالطائف، وكان للأوس والخزرج (مناة) منصوبا بفدك ، ولمذحج (يغوث) ، ولحيوان (يعوق).

وكانت العرب فى أديانهم على صنفين: الحمس، والحلة ، وكان الحمس يتشددون على أنفسهم فى دينهم ، وأما الحلة فكانوا غير متشددين ، فلا يحرمون الصيد فى النسك ، ويلبسون كل الثياب ، ويسلئون السمن ؛ ويدهنون ويتطيبون ويأكلون اللحم ؛ ثم دخل قوم من العرب فى دين اليهود ، ودخل قوم فى النصرانية وتزندق منهم آخرون .

فأما من تهود فاليمن بأسرها بعد أن كانوا من المجوس وعبدة الشمس ونحوها ، وصل اليهم حبران من أحبار اليهود فبطلت الأوثان ؛ وتهود أيضا قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بنى الحرث بن كعب بن سعد بن زيد بن عبدمناة من كنانة ، وقوم من غسان وقوم من جذام .

وأما من تنصر من أحياء العرب : فقوم من قريش من بنى أسد بن عبدالعزى، ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد، وقوم من تميم ، وقوم من طى ومذحج وبهراء ولخم وغسان ونجران وبنو عدى بن زيد العبادى بالعراق وبنو تغلب بالجزيرة .

وأما من تزندق فالحرث بن عمرو بن حجر الكندى تابعا قباذ فى اعتناقه مذهب مزدك .

وقد شرع العرب فى الجاهلية لأنفسهم شرائع افتروا فيها على الله الكذب « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه أباءنا » .

ومن ذلك ما اتخذوه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فكانت الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . بحروا أذنها أى شقوها ،وخلوا سبيلها ، فلا تركب ولا تحلب ، وكان الرجل منهم يقول اذا شفيت فناقتى سائبة ، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها ، واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وان ولدتها قالوا وصلت الانثى أخاها ، واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن ، حرموا ظهره ولم يمنعوه ماء ولا مرعى وقالوا لقد حمى ظهره .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء مايحكمون » وبيان ذلك أنهم كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله ، ويصرفونه الى الضيفان والمساكين ، وشيئا منهما لآلهتهم ،ينفقونه على سدنتها ويذبحون عندها ، ثم ان رأوا ماعينوا لله أزكى بدلوه بما لآلهتهم ، وان رأوا ما لآلهتهم أزكى ، تركوه لها حبا لآلهتهم .

(وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ،لايطعمها الا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) .

(وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ،وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) .

وغير ذلك مما ابتدعوا وانتحلوا وألزموا أنفسهم به كأنه شريعة منزلة من عند الله تعالى.

ومن أقبح ماشرعوه وأدالبنات وقتل الأولاد

فاما الأول . فدفن البنات أحياء ، إما لمزيد الغيرة، وإما لخافة لحوق العار بهم من أجلهن ،وكان هذا العمل شائعا فى بنى تميم وكندة وغيرهم .

وأصله فى بنى تميم . أن النعمان بن المنذر لما منعته تميم الأتاوة التى كانت تؤديها اليه، جهز اليهم أخاه الريان بن المنذر ومعه بكر بن وائل،فغزاهم فاستاق النعم وسبى الذرارى ، فوفدت إليه تميم وسألوه النساء،فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه ، وأن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلهن اخترن آباءهن ، إلا ابنة لقيس بن عاصم اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج، فنذر قيس لايولد له ابنة الا قتلها . فوأد بضع عشرة بنتا. فاعتل بهذا من وأد وزعم أنه حمية .

وأما الثانى فقتل الولد مطلقاً : ذكوراً وإناثا خشية الأملاق . أو من الأملاق وهو الفقر.

وكان يستفظع هذا الابتداع كثير من عقلاء العرب وسراتهم،ويعتبرونه عملا وحشياً،وجرماً فظيعاً ، وقد قام نفر منهم بافتداء الموءودة والقيام عليها حتى تبلغ رشدها، ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل وصعصعة بن ناجية المجاشعى جد الفرزدق ، الذى يقال إنه أحياستا وتسعين موءودة فى الجاهلية وقد ذكره الفرزدق فى شعره الذى يقول فيه مفتخراً :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وقد جاء القرآن الكريم بابطال ماابتدعوه،والتشهير بهم فى آيات كثيرة منها«قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم،وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ،قد ضلو وماكانوا مهتدين»

وكان الرجل منهم ينذر اذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحدا منهم ، وقد أراد هذا العمل عبد المطلب بن هاشم بابنه عبد الله والد النبى عليه الصلاة والسلام . إذ هم بذبحه بين أساف ونائله ،فأمسك بيده أبو طالب . ونصره

أخوال عبد الله من بنى مخزوم ، وقالوا لانسلم ابن اختنا للذبح . فاذبح من شئت من ولدك غيره ، فاحتج عليهم بالنذر فلم يقبلوا ؛ وأبى إلا الوفاء، فتحاكموا إلى كاهنة بنى سعد ، فحكمت بان يقوم الغلام وعشرة من الابل، ثم يضربوا عليها وعليه القداح ؛ فان خرج القدح عليه زادوا عشرة وهكذا حتى يرضى الله . فرجعوا من عندها وفعلوا ما أمرت به، وضربوا القداح فخرجت على عبد الله . فما زالوا يزيدون عشرات الأبل حتى صارت مائة ، وضربوا القدح فخرجت عليها، فنحرت كلها فداء لعبد الله وتركت فى مواضعها ينتهبها الناس ، وقد اتبع عبد المطلب فى هذا العمل سنة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، اذا أراد أن يذبح ابنه لرؤيا رآها ففداه الله بذبح عظيم ؛ مما يدل على أن قريشا كانت لاتزال تستمسك بشريعة الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام كثيراً

﴿ شىء من عاداتهم فى الجاهلية ﴾

كان للعرب فى جاهليتهم عادات ومذاهب صارت لطول الامد على التزامها كالشريعة المتبعة ، وقد وافق الأسلام على شىء منها وهدم أشياء .

فمما وافق عليه ما كانوا يعملونه من قطع يد السارق ، وأول من قطع فى السرقة الوليد بن المغيرة . وتكفين الموتى والصلاة عليهم ، وصوم بعض الأيام كعاشوراء ؛ إذ كانوا إذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله .

كان أهل مكة خاصة مستمسكين بكثير من شريعة إبراهيم ، فلم يكونوا كالأعراب الأجلاف ، ولا كمن لايوقره دين ولا يربيه أدب ، فكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ؛ ويقيمون المناسك ، ويغتسلون من الجنابة؛ ويتباعدون فى الزواج من البنت وبنتها والأخت وبنتها ؛ غيرة وبعداً من المجوسية ، وكانوا يتزوجون بالصداق والولى والشهود ؛ ويطلقون ثلاثا ، ولكنهم كما ابتدعوا فى المناسك ابتدعوا فى الزواج فكانوا يتزوجون فى القبائل بلا شرط ، ولا يزوجون أحداً حتى يشترطوا عليه أن يكون متحمسا على دينهم ، يرون أن ذلك لايحل لهم ، ولايجوز لشرفهم حتى يدان لهم ،

وقد حمسوا خزاعة وكنانة وثقيفا وغيرهم من سكان الحرم ومادانوه ،وحمسوا عامر بن صعصعة من سكان الحل لأن أمه من قريش وهى مجد بنت تميم بن مرة.

وبمناسبة ذلك نقول إن مقاصد العرب من الزواج كان منها .

الالفة : — فقد يحصل بالصهر فيما بين اثنين، الأنس بين القبلتين المتعاديتين والولاء بين العشيرتين المتنافرتين .وهذا إلى قيام النساء بتدبير البيت . ومايكون من تربية الأولاد .

طلب البنين والبنات : — إذ كانوا يقولون من لايلد لاولد له ، وكانوا يختارون البعداء والأجانب من الزوجات . ويرون أن هذا أنجب للولد .

قال شاعرهم :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى على سليلى

والضوى الضعف .

وكانوا يطلقون ثلاثا متفرقة . ويخالعون على مال . ويظاهرون من نسائهم ويؤلون منهم . فاقر الاسلام الطلاق طلاقا ، وحكم فى الايلاء والظهار بما بين فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . . . إلى سميع عليم) (سورة البقرة) وقوله جل شأنه فى سورة المجادلة (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة . . . إلى قوله وتلك حدود الله).

ومن عاداتهم التى أقرها الأسلام التيامن فى الشرب ولوفى اللبن، والبراءة من الذين يخلعون لباس المروءة ويرتدون رداء الفجور .

أما ما أنكره عليهم الأسلام فلا يكاد يدخل تحت حصر . ومن ذلك الجمع بين الأختين فى الزواج ، وأن يخلف الرجل منهم أباه على امرأته بعد موته ، وقد قال الله فى هذا النوع (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا).

ومنه المباعضة : رغبة فى نجابة الولد يقول الرجل منهم لزوجه بعد الطهر ارسلى الى فلان فاستبضعى منه.

ومنه المسافحة : وهو كل مايكون من صور الزواج بلا ولى ولا صداق

وشاهدى عدل ، ويدخل فيه البغاء ، وكان للبغى راية تنصبها على بابها علامة على أنها لاتمنع من جاءها ، فاذا حملت جمعت العرافين والقافة ، فألحقوا ولدها بمن يشبهه، فلا يمتنع من استلحاقه وماكان فى قريش ولا من صميم العرب بغى، بل كن غالباً من الاماء الساقطات .

ومن ذلك الضرار : وهو أن يعمد الرجل الى مطلقته إذا قرب انقضاء عدتها فيراجعها لارغبة فيها ، بل ليطيل عليها أمد الانتظار اضرار بها ، وقد نهى الله تعالى عنه فى قوله (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) ومنه أيضاً العضل، وهو منع النساء من الازواج بعد انقضاء العدة غيرة على من كن تحتهم أن يصرن تحت غيرهم ، وحمية جاهلية .

ومنه أيضاً : أن يقوم أولياء الميت على امرأته يرون انهم أحق بأن يتزوجها الواحد منهم، أو يزوجها من يشاء ليأخذ صداقها ، او يبقيها بلا زواج ليأخذ ميراثها اذا ماتت ، او ترد الواحدة منهن صداقها اليهم اذا أرادت ان تكون فى حل من أمرها .

ومن مذاهبهم حبس البلايا ، كانوا اذا مات منهم كريم اوعظيم قاموا على ناقته فشدوها عند قبره حتى تموت ، كانوا يقولون ان صاحبها يحشر عليها ، وتسمى البلية فاذا افلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى .

ومن خرافاتهم الهامة : يزعمون انه مامن ميت يموت ولا قتيل يقتل إلا خرج من رأسه هامة ، فان قتل ولم يؤخذ بثأره، نادت الهامة على قبره اسقونى فانى صدية « عطشى » قال شاعرهم :

ياعمرو الا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة: اسقونى

ومن ذلك الزجر والطيرة: وهما فى معنى واحد، واصله أنهم كانوا اذا ارادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ، فان طار يميناكان له حكم ، وان طار شمالا كان له حكم ، وان طار من فوق رأسه كان له حكم ، ومن ثم سميت الطيرة ، أخذا من الطير ، واكثر ماعولوا عليه من ذلك الغراب، ثم تعدوه الى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا ذلك الى مايحدث فى الجمادات من كسر أو صدع.

وقد وردت السنة بإبطال حكم الزجر والطيرة ، قال عليه السلام (أقروا الطير فى وكناتها ، (واستحسن الفأل) والفرق بينهما ، أن الطيرة تقصد ، والفأل يأتى من غير قصد .

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من طيب خرج فى حاجة له . ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشرب ، فاذا غراب ، فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم سار حتى كان وقت الظهيرة فأناخ ليشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب ، فضرب الرجل السقاء بسيفه فاذا فيه ثعبان عظيم فقتله ، ثم سار فاذا غراب واقع على سدرة ، فصاح به فوقع على سلعة ، فصاح به فوقع على صخرة ، فانتهى اليها فأثار من تحتها كنزا ، فلما رجع إلى أبيه قال له ماصنعت ؟ قال سرت صدر يومى فأنخت لأشرب فنعب الغراب ، فقال أثر راحلتك وإلا فلست بابنى . قال فعلت قال ثم ماذا ؟ قال سرت حتى وقت الظهيرة فأنخت لأشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب ، فقال اضرب السقاء والا فلست بابنى ! قال فعلت فاذ فيه ثعبان عظيم فقتلته قال ثم ماذا قال ثم سرت فاذا غراب واقع على سدرة قال : صح به وإلا فلست بابنى قال فعلت — فوقع على صخرة ، قال أثر ماتحتها والا فلست بابنى ؟ قال فعلت فوجدت كنزا .

ولا شك فى أن هذا حديث خرافة . وكانوا يضربون الغراب مثلا فى الشؤم واشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب قال شاعرهم :—

وصاح غراب فوق أعواد بانة بأخبار أحبابى فقسمنى الفكر

فقلت غراب ، باغتراب ، وبانة ببين النوى ، تلك العيافة والزجر

قال بعض العلماء بهذا الفن من العرب القدامى ، ونقله أبو عثمان الجاحظ : إن خرجت تطلب ما لا ضل عنك أو سرق . فنعب غراب على شجرة يابسة فلا تطلبه فقد استهلك وقد يأتيك بعضه.

وإن خرجت تريد الضال فنعب من ورائك فارجع . فليس لك فى ذلك خير وإن نعب عن يسارك فانى خائف على نفسك إلا أن يشاء الله.

وإن خرجت تريد الصيد فنعب من فوقك فارجع . فان نعب أمامك فامض فأنك تدرك خيرا.

وان خرج الرجل فى أمر فلقى بقرا فليرجع ، فان لقى من البغال شيئاً لم تركب فليرجع . والمركوبة صالحة لابأس بها :

وان خرج من منزله فاستقبلته جنازة فليرجع يومه ذلك ، ولا يعد لحاجته فانها غير مقضية .

وان خرج فرأى دجاجتين تقتتلان فذلك يدل على أنه يقع بينه وبين امرأته كلام وغضب .

وان خرج من منزله فرأى قردا يتقلب والناس من حوله فليمض لحاجته فانها مقضية .

وان خرج فتعلق بثوبه شيء فليرجع .

وان خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخرها .

وهكذا من ضروب الخرافات التى لايزال بعضها عالقا بأذهان كثير من الناس الى الآن .

ومن الطيرة مايحكى أن رجلا صاح من خلف عمر بن الخطاب ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال يا أمير المؤمنين فقال رجل من خلفه دعاه باسم ميت ، مات والله أمير المؤمنين فقتل عمر قبل الحول .

ومنها ماقيل : بينا مروان بن محمد فى إيوان له ينفذ لأمور اذ انصدعت زجاجة الأموال فوقعت الشمس منها على منكب مروان ؛ وكان هناك عياف فقال : صدع الزجاجة أمر منكر على أمير المؤمنين. وسئل عن تفسير مايقول فقال : صدع الزجاجة صدع السلطان ، ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان . ذلك عندى واضح البرهان ، قال فما ورد لذلك شهران حتى ورد خبر أبى مسلم .

وهذا النوع من الطيرة ضرب من الكهانة وكلها تخدع فى النصيحة واخلاص ، اذ المعقول أن هذا القائف كان يعلم حركة الشيعة فى خراسان فأراد أن ينبه مروان الى تدارك أمره قبل أن يفوت أو أن تداركه . لا أنه استنبط من كسر الزجاجة علم ما لا يعلم .

ومما حرم أيضاً من عاداتهم الميسر وهو ضرب من القمار . كانوا يقتسمون به لحم الجزر التي يذبحونها بحسب قداح يضربونها ، لكل قدح منها نصيب معلوم ، وهي احد عشر قدحا : سبعة منها لها حظ ان فازت . وعليها غرم ان خابت بقدر ما لها من الحظ عند الفوز . وأربعة منها تثقل بها القداح ان فازت ، ولا غرم عليها ان خابت . ومن السبعة التي لها حظ ما يسمى المعلى ، وفيه سبعة حزوز وله سبعة أنصباء ، فهو أوفرها حظاً ، ولذلك يضرب به المثل في الحظ فيقال قدح فلان المعلى .

ومنها الازلام . وهي نوع من الطيرة . كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الشأن فيه ، أخذوا قداحا مكتوباً على بعضها افعل ، وعلى بعضها لاتفعل ، وعلى بعضها نعم . وعلى بعضها لا ، إلى غير ذلك فاذا أراد أحدهم سفراً مثلا أتى سادن الأوثان فيضرب له بتلك القداح ويقول اللهم ان كان خيراً له فاخرجه ، فما خرج له عمل به ، واذا شكوا في نسب رجل أجالوا القداح وفي بعضها مكتوب : صريح ، وفي بعضها ملحق ، فان خرج الصريح أثبتوا نسبه وان خرج الملحق نفوه .

ومما سبق بيانه تفهم أن مادان به العرب أو انتحلوه من الشرائع ، أو التزموه من العادات ، كان من بين العوامل التي فرقت كلمتهم في الجاهلية ، وأوقعت بينهم العداوة والبغضاء وأشعلت نار الحروب . فلما جاء الاسلام جمعهم على دين واحد وأبطل ما كان من نحلهم وعاداتهم السيئة ، واجتمعت كلمتهم ، فكانوا بنعمة الله إخواناً . وتحولوا من الحروب التي كانت بينهم الى محاربة الروم والفرس فانتصروا . ونشروا كلمة التوحيد في أرض المجوس وبلاد المسيحية . وصدق فيهم قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

علوم العرب فى الجاهلية

كان للتبابعة وملوكهم مذهب فى آثار أحكام النجوم ، وميل إلى معرفة طبائعها . قيل أنهم لم يكونوا يستعملون من القواد والاكفاء الا من عرفوا مولده ووجدوا أدلته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلة لها.

وكانوا إذا أرادوا غزو أمة من الأمم تخيروا الأوقات السعيدة، والطوالع المشاكلة لمواليدهم ، والملائمة لتغلب دولتهم، وهى التى مكثوا فى ارتيادها زمنا طويلا ، وجربوها فمكنتهم من اختيارهم ، فكانوا يبلغون بها ماشاءوا من المراتب والظفر بالاعداء وبعد الصيت ، وهذا هو التنجيم .

ومع هذا فلم يكونوا يعنون بأرصاد الكواكب، ولا باختيار حركتها ، ولا بأيثار شىء من علوم الفلسفة. وكذلك كان سائر ملوك العرب فى الجاهلية.

وإنما كان علمهم الذى يتفاخرون به، ويتبارون فيه علم اللسان وأحكام اللغة ونظم الأشعار وتأليف الخطب ، فكان الشعر أصل علم الأخبار ومعدن معرفة السير والأمصار.

قال الهمذانى : ليس يوصل الى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم . وذلك أن من سكن من العمالقة وجرهم وخزاعة بمكة، أحاطوا بأخبار أمم مختلفة من العرب البائدة، والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب .

وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس.

وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم ، قد حووا علم الأعاجم وأخبارهم ، وعنهم صار أكثر ماروواه محمد بن السائب الكلبى والهيثم بن عدى من رواة الاخبار .

وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان ، خبير بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان .

ومن وقع بالبحرين من تنوخ وغيرهم ، فعنه أتت أخبار ضسم وجديس . ومن وقع بعمان من ولد نصر بن الازد فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند

وشيء من أخبار فارس . ومن وقع فى اليمن أتته أخبار الأمم جميعاً ؛ لأنه كان فى دار مملكة حمير . وفى ظل الملوك السيارة الى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ولم يك ملك منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها.

والعرب أصحاب حفظ ورواية ، لخفة الكلام عليهم ورقة ألسنتهم ، ولذلك حفظوا من أخبارهم وأخبار الأمم الأخرى الشيء الكثير المختار

وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم .

أما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئاً منه، ولا هيأ طباعهم للعناية به

وأما علم الجغرافيا فقد فقدوا شرط النجاح فيه ، ولا عبرة بما جاء فى أشعارهم من أسماء الأمكنة والبقاع والجبال والمياه فان هذا لا يؤخذ عنه علم منسق مفيد . وكان من أكبر عوائقهم عن النبوغ فى هذا العلم :

(١) خوفهم من ركوب البحر ، ونقص تجارتهم البحرية نقصا فاحشا .

(٢) عدم اشتغالهم برصد حركات النجوم رصداً يستنبط منه العلم علم الفلك أو الجرافيا الفلكية . ولم يك ذلك للعرب إلا بعد الاسلام حيث ألفوا فيه كتبا هى خير ما ألف فى القرون الوسطى .

ولا تنس أن أخص صفات الأمة العربية (الأمية) وقد وصفهم الله تعالى فى القرآن بها إذ يقول جل شأنه (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وما كان لديهم من علم أو نحوه فانما هو من الأشياء الفطرية التى وصلوا اليها بقوة فطنتهم وكمال استعدادهم . فمن ذلك :—

(١) علم الشعر : وإن من الشعر لحكمة . وكانوا يأنفون من التكسب

به ، وإنما يضع أحدهم مايصنع منه فكاهة أو مكافأة على يد لايستطيع أداء حقها إلا بالشكر . وفى عرب الجاهلية شعراء كان أكثرهم فى ربيعة كامرىء القيس والمهلهل وليس هذا موضع إحصائهم .

(٢) علم الانساب : وكان لهم عناية بضبطه ومعرفته ، لأنه سبب التعارف، وسلم الى التواصل والتآلف والتناصر والتآزر . وبخاصة بين القبائل التى يجمعها أب واحد : فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس ؛ ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس.

(٣) علم الفراسة : وهو الاستدلال بهيئة الانسان وأوصافه الدالة على أخلاقه من خير أو شر . وقد كان منهم من يصل فى هذا العلم إلى حد الاعجاز ويلحق به الكهانه والعرافة .

(٤) علم الزجر والعيافة : وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها، على معرفة مايكون من أمور الناس .

(٥) علم الطب : كان علم الطب عند العرب فى جاهليتهم (كما هو عند جميع الأمم فى حال بداوتهم) مقصورا على تجارب بسيطة نافعة وصلت اليهم بطريق التوارث . أو عن طريق العقائد الوهمية .

وكان يقوم بمزاولة هذه المهنة الكهان والعرافون ومن على شاكلتهم . فيعالجون المرضى بالعزائم والرقى والتمائم والاشربة المتخذة من العسل والمركبات المصنوعة من بعض الاخلاط ، وكان لهم عناية خاصة باستعمال الكى بالنار فى كثير من الأمراض، والحجامة وفتح الحمصة) .

وقبيل مبعث الرسول عليه السلام اشتهر منهم أطباء حقيقون عرف لهم الناس فيما بعد فضلهم وحذقهم والمامهم ، ومنهم الحرث بن كلدة الثقفى طبيب العرب فى عصره — أصله من ثقيف من أهل الطائف . رحل إلى فارس وتعلم الطب فيها ومارسه وأجاد فى هذه الصناعة حتى زاولها فى بلاد فارس نفسها، وكان موضع الثقة من زملائه والناس جميعا حتى أصبح ذا مال وفير، وعاد إلى الطائف ، وعاصر الرسول عليه السلام ، وكان يوصى باستيصافه .

واشتهر بعده ابنه النضر بن الحرث ، ثم ابن رومية التميمى، وكان جراحا ماهرا ، ولما جاءت الشريعة الاسلامية وفيها شيء كثير من التعاليم الصحية أخذ المسلمون ينشرونها ويأخذها عنهم الناس بالسماع، ويتناقلونها بالافواه، إلى أن

فتح عمرو بن العاص الاسكندرية ، وكان فيها مدرسة للطب تدرس فيها كتب جالينوس ، فمن ذلك الوقت ابتدأ العرب يدرسون الطب عن اليونانية؛ أى على أساس صحيح من كل وجه .

(٦) علم الرمى بالنبال والسهام : وهو من أخص مايلازمهم فى بواديهم للحرب والصيد ، ويدخل فيه معرفتهم بأحوال السهام، ورمى النبال، وكيفية الوقوف والرمى من قرب ومن بعد ، وإلمامهم بخواص الأشجار والأغصان التى تتخذ منها القسى .

(٧) علم الخط — أما حظهم فى الكتابة فكان ضعيفا جدا ، وقد عرف خط الجزم فى طى ، وعنهم نقل إلى الحيرة والأنبار ، وخط الجزم مقتطع من المسند، وهو خط حمير ، قال ابن خلدون (وقد كان الخط العربى بالغاً مبلغه من الاحكام والاتقان فى دوله التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميرى ، وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من وله آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية، والمجددين لملك العرب بأرض العراق .)ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر ، يقال إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ، ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة .

***

وبعد فان الذى سردناه من علوم العرب قليل جداً إذ قابلناه بعلوم الأمم الأخرى ، كالفرس واليونان والكلدان ، وذلك لأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران ، وتعظم الحضارة، ولأن تعليم العلم من الصنائع ، والصنائع إنما تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة .

على أن العدنانيين من عرب الجاهلية كانوا أبعد الناس عن الصنائع ، ومنها مزاولة تعلم العلوم والفنون وتعليمها ، لأنهم أعرق فى البداوة ، يقتصرون على الضرورى فى أحوالهم عامة ، ويعجزون عما فوقه .

وأما القحطانيون فى اليمن فقد فضلت أعمالهم عن معاشهم ، فانصرفوا إلى ماوراء المعاش من التصرف فى خاصة الانسان ، وهى العلوم والصنائع، وإن آثارهم الباقية من المبانى وغيرها لتدل على أنهم بلغوا فى ذلك كله الغاية القصوى

الباب الثانى

الدول التى لها علاقة بالعرب

قبل الأسلام

تمهيد

موجز تاريخ الكلدانيين والأشوريين والبابليين

قبل الكلام فى تاريخ هذه الأمم ، نصف البلاد التى قامت فيها دولهم وهى أرض النهرين ، دجلة والفرات ، وصفا إجماليا فنقول :—

تعرف البلاد التى يرويها هذان النهران عند الأغريق باسم ميزوبوتاميا ، وعند العرب يطلق اسم الجزيرة « الذى هو معنى الكلمة الأغريقية » على القسم الشمالى فقط من أرض النهرين ، وهو الذى قامت فيه الدولة الأشورية ، أما القسم الجنوبى فهو السواد أو العراق العربى ، وهو الذى قامت فيه الدولتان الكلدانية الأولى ، والكلدانية الثانية وهى البابلية .

وليست هذه البلاد التى فى حوض النهرين إلا واحة من واحات السلسلة الصحراوية الممتدة فى نصف الكرة الشمالى بين المحيطين الهادى والأطلسى ، تنقطع أول مرة من المغرب بوادى النيل ، وتنقطع المرة الثانية بحوض هذين النهرين .

والقسم الشمالى على وجه عام بين جبال مرتفعة وصحارى مقفرة ، وإنما يوجد الخصب حيث تتوافر مياه الرى فى الوديان والسهول منها .

والقسم الجنوبى سهل واحد منبسط خصيب كله ، والراجح أنه كان فى الأيام الخوالى قرارا للبحر ، ثم ردمته رواسب النهرين بمرور السنين .

فكان منه بلاد بابل إلى ملتقاهما ، ثم بلاد كلدة من هذا الملتقى إلى البحر ، أى فى حوض مايسمى الآن شط العرب .

وهذه البقاع تشبه بلاد مصر من وجوه كثيرة ، إذ تتكون منهما من الرواسب التى تجرها المياه من الجهات العالية ، وكل منهما خصيب يخرج منه الشىء الكثير بالعمل القليل ؛ وكل منهما تحيط به الأرض القفر التى لاتنبت إلا نكدا ، وكل منهما صالح بفطرته إلى أن يؤمه عدد كثير من بنى آدم ؛ ومن أجل ذلك تداولتهما أمة بعد أمة وملة بعد ملة ، وفيهما نشأت المدنيات والحكومات والدول التى تعتبر أقدم ماعرف بعد الطوفان .

وفيهما أنشئت المدن العظمى كبابل ونينوى هناك وكمنف وطيبة عندنا بمصر وكان هناك قانونا يقضى بأنه لاينبغى أن يكون البلدان المتشابهان فى الأحوال الطبيعية والمواد المالية إلا فى يد واحدة ؛ وكذلك رأى تحتمس الثالث وسيتى الأول من ملوك مصر أن يملكا الفراتين ، وحاول كثير من ملوك أشور وبابل أخذ مصر ، وجعلوا مقدمة ذلك الاستيلاء على مستعمراتها فى سورية ومنهم أسر حدون وأشور بانيبال .

والفرات أطول من دجلة ، ولكنه أقل منه أهمية لكثرة جزائره ورواسيه ، ويستمد ماءه من أمطار أرمينية وثلوجها ، وهو فى أيام فيضه صالح للملاحة بالسفن الصغيرة ، وفى ايام غيضه ينقص حتى يخاض ، وقد يعبر على رماث تقوم على قرب منفوخة من جلد الماعز ، وليس عليه فى الجزيرة مدن عظمى ، ولاتصب فيه روافد تذكر .

ودجلة كالفرات فى الاستمداد من جبال أرمينية ، وتخالفه فى أنها تستمد أيضا من جبال زغروس ، ويمدها من شاطئها الأيسر روافد مهمة ، منها الزاباذ ، وديال ، وكرخا ، وكلها تجلب الوفير من الغرين ؛ لأن حر الصيف وثلج الشتاء يساعدان على اكتساح وجه الأرض التى تجرى فيهما هذه النهيرات ،

على أن دجلة سريعة التيار جدا لانها تنحط باستمرار فى قطعة من الأرض مائلة ميلا شديدا . واسمها فى ثلاث لغات يدل على شيء مما ذكر ، فهى فى لغة أذربيجان القديمة تسمى تجرة ، وفى العربية دجلة ، وفى العبرية حذقل ، وكلما كانت مياه النهر أسرع ، كانت على تحت الارض وحتها أقدر.

وشط العرب : هو مجمع النهرين جنوبا ، وطوله الآن ١٢٠ ميلا وعرضه نحو نصف ميل ، وعرض واديه لايقل عن ٦٠ ميلا . وهو يتقدم كل سنة فى الخليج الفارسى نحو ١٠٠ قدم يدل على ذلك أن مدينة أريد وهى الميناء الكلدانية القديمة سنة ١٨٦٤ ق .م أصبحت على بعد ١٣٠ ميلا من البحر

هذا ولئن كانت أرض النهرين الآن بين رمال ماحلة ومستنقعات مقيمة وبيئة ، لقد كانت فى أوقات مضت تقوم بأود عدد وفير من الناس ، وكانت مقام دول عظمى ، لأن البلاد كانت باستعمال الرى المنتظم جنة من جنان الدنيا ، فضلا عن أنها تخرج مايقوم بحاجة السكان ، بل وتفضل عنهم ، وفى بابل ألوف من السدود الخاصة بحجز الماء أو رفع مستواه ، ومن الجداول التى تؤدى الماء إلى أقصى أطراف البلاد ، وكانت تسمى البقعة التى يلتقى عندها النهران جنة عدن لوفور مائها ونماء نباتها وشجرها .

والبلاد عامة ذات مناخ قارى ، والصيف فيها أشد من الشتاء ، حتى على أهليها أنفسهم ، وفيه تثور العواصف الرملية التى تدوم خمسة أيام من كل أسبوع ، وتشبه الخمسين فى مصر ، وهى تثير الرماد والغبار حتى لاتكاد تواجه ، وبها يظلم الجو فلا يرى الأنسان يده إذا مدها ، ولشدة حرها ، وتمددها لايطاق التنفس فيها ، وأمطار هذه البلاد على وجه عام قليلة إلا فى الجبال العالية حيث ينبع النهران .

الفصل الأول

تاريخ الكلدان

مصادرة — يستمد تاريخ الامم التى استوطنت أرض الفراتين السفلى من المصادر الآتية.

(١) بقايا مدنهم التى كشف عنها ، ومبانيهم وآثارهم الأخرى التى كتب عليها بخطهم السفينى أو الاسفينى وهو السريانى الأول وهو أيضا السنانى

(٢) الصحف الباقية من (تاريخ بابل) الذى ألفه الحبر الكلدانى (بيروز) معتمدا على التقاليد والاساطير التى جاءته من مصادرها الاصلية فى أيامه وكان بيروز كاهنا لبعل مروخ فى بابل سنة ٢٥٠ ق م ، وقد ترجم تاريخه بنفسه من السريانية الى الاغريقية ، ثم فقد هذا المؤلف النفيس ولم يبق منه الا مقتبسات فى كتب القدامى .

(١) تاريخ كل من هيردوت وديودور واسترابون

(٤) ما جاء فى الاسفار التى يقال لها التوراة وشروحها

(٥) ما كتبه المحققون من الأثريين فى العصر الحالى ، مستندين الى الآثار التى عثر عليها اخيرا فى أطلال « أور الكلدانيين »

هذا وكانت حدود دولة الكلدان أولا بين هيت وسامرا شمالا ، والخليج الفارسى جنوبا ، وبين بلاد عيلام شرقا والبادية غربا ، وفى هذه الرقعة توجد مدنهم ذات الشأن فى تاريخهم ، وعلى طول الايام اتسعت الدولة بالفتح حتى انتهت الى جبال أرمنية وطوروس والبحر المتوسط

وهذه الدولة فى نشوئها الاول تعتبر أول نظام اجتماعى سياسى حصل على الارض بعد الطوفان ، وكانت حضرتها (أور) ولذلك قيل لها الدولة الاورية الاولى مثلا ، ثم خلفتها بابل فسميت بابلونيا . أما انها سميت دولة الكلدانيين فقد ظهر أنه فى الفترة التى كانت نار الحرب فيها مشتعلة بين السومريين

والا كاديين جاء أمير اسمه كلدة ونزل بقومه بطائح العراق ، ونشأ من نسله الملك مرذخ بلادان من ملوك بابل ، فعمل على رد الاشوريين عن تملك أرض بابل ، فعظموه وتعاونوا معه ونسبوا الدولة برمتها الى جده

اصل سكان العراق

يرجع الفضل فى بيان من استوطنوا أرض الفراتين من الجنوب، إلى المباحث التى تقوم بها البعثة الانجليزية الامريكية بزعامة مستر ولى مدير بعثه بنسلوانيا، والمتحف البريطانى فى اطلال (اور) مدينة الخليل عليه السلام منذ سنة ١٩٢٣م وهذه المدينة هى التى كانت خيالا لاحقيقة لها ، الى أن كشف عن اطلالها قنصل انجلتره فى البصرة سنة ١٨٥٤ ، وقد كان كشفها موضع دهشة واعجاب وبخاصة لدى قراء التوراة لانها مدينة جدهم الأعظم.

ولقد عثرت البعثة على آثار عجيبة جعلتها فى الصف الاول من آثار التمدين القديم ، اتقانا فى الصناعة ، وجمالا فى المنظر ، ومكانة فى وثائق التاريخ ، واعتبارا فى نفوس الأثريين المدققين ، وقد استقينا منها فى التعريف بالامم التى توالت على أرض العراق منذ القدم ومايتعلق بها مانبينه على المنوال الآتى :

(١) الساميون الأولون

لايمعن تاريخ (أور) المحقق إلا إلى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد، وهو مبدأ عصر الملوك فى هذه المدينة ، ولكن ظهر من الآثار التى كشف عنها حوالى اطلال هذه المدينة ١٩٢٨ ، انه سبق هذا العصر فيها عصر آخر يمعن فى القدم كثيرا ، وهذه الآثار هى آنية من الخزف المدهون دهانا لامعا وقطع من الصوان وغيره ، وهى تدل على أنه قد استوطن هذه الاطراف فى

فجر التاريخ شعب يختلف فى درجة تمدينه وفيما يزاوله من الأعمال ، عن الشعب اللاحق به هنالك وهو الصعب السومرى

وهذه الآثار وجدت تحت طبقة سمكها ثمانى اقدام من الغرين نشأت دفعة واحدة فى عهد واحد ، ولم يعرف منها مدى تمدين هذا الشعب ؛ ولا نوع هذا التمدين ، وانما عرف أنها لم تستعمل قط فى العصر التالى ، والطبقة الغرينية هذه تدل بنشوئها هذا على حدوث طوفان أو فيض عظيم حصل فى تلك الجهات فلم يبق على شىء منها ؛ طمر آثارها تحت مارسب من الغرين وقد رأى الاثريون أن هذا هو الطوفان الموصوف فى سفر التكوين، وبعد ان كان موضعيا صار فى عرف أهل التوراة عالميا ، ومن أجل ذلك قيل ان ان عهد (اور) يرجع الى عهد الطوفان .

وقد عثر على اسطورة الخليقة البابلية فى المكتبة التى انشأها اشوربانيبال (٦٦٨ - ٦١٦ ق م) منقوشة على سبع لوحات ، سنعود اليها فى موضع آخر

(٢) السومريون

وهم الذين ملكوا هذه البلاد بعد سابقيهم ؛ ولا يعرف لهم نسب مضبوط ويظن انهم يافثيون ؛ وانهم أهل جبال نزحوا الى الرافدين السفلى لامرما ، وغلبوا عليها ، واسسوا لهم فيها ملكا وبنوا لهم دولة عمرت زمانا طويلا

وقد عرفت آثارهم فى الطبقة الغرينية التى فوق الطبقة الخزفية السابقة ، وهى فى جملتها وتفصيلها آثار شعب جديد له المام تام بصياغة الذهب والفضة وسبك الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن الصلبة ، وقطع الاحجار الكريمة وتسويتها ، من العقيق واللازورد .

ومن الآثار التى عثر عليها فى قبور ملوكهم : آلات موسيقية من الذهب الخالص المنقوش نقشا بديعا وآنية من الذهب هى آية فى الابداع ، ورءوس ثيران ذهبية أو خشبية مكسوه بصفائح ذهبية ، وخنجر من الصلب ويده من الذاهب المزوق باللازورد ، وغمده من الذهب المزركش بأنواع من الاحجار

الكريمة ، وتمثال لكبش من الخشب ، وبدنه مكسو بالصدف ، ورأسه وقوائمه بصفائح ذهبية ، وتماثيل ذهبية صغيرة دقيقة الصنع لحيوانات مختلفة وجدت فى لباس الرأس الخاص بالملكات .

وهذا الى ماعثر عليه من مبانيهم التى كانت فى (اور) من الرخام والآجر ومن أخصها : السور الذى يضم هياكل القمر (ننار) وزوجته (ننجال) والسور رباعى طول ¾ ميل وعرضه ½ ميل ، وبرج زاجورات الذى لايزال التنقيب فيه مستمراً ، وقد يكشف مايحويه عن معلومات تاريخية واسعة النطاق ، وعن تحف فنية شتى

وتدل هذه الآثار على تمدين قد بلغ أعلى الدرجات إذ كان السومريون يبنون البناء المحكم المشيد على القناطر التى لم تعرف فى أوربا إلا بعد أن مضى على استعمالها فى أرض (اور) ٥٠٠ سنة ، وكان لهم ملابس متقنة ، وخزف بديع وأدوات من البرنز واختام ، وكل من يزور المتحف البريطانى يفهم من آثارهم أن مستوى ذوقهم الفنى كان أعلى من مستوانا الآن ، وقد اتخذوا من الوسائل الصحية فى بيوتهم مانظن انه من مبتكرات التمدين الحاضر وهو المجارى التى تصرف مياه المنازل ، وكان لهم جيش عامل ، وكان التجنيد اجباريا فى الملمات ، وكان لهم عبيد لهم حقوق ثابتة ، ومنها حق الملكية ، كأن يكون للرقيق رقيق ، وكان عندهم قانون للحقوق المدنية ، وآخر للجنايات : وقضاة يجلسون للفصل فى الخصومات أى أن بلاد العراق فى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد وكانت أعلى كعبا فى التمدين من نصف المعمورة اليوم .

ويظهر أن فكرة الطوفان وجدت لها رواجا فيما بينهم ، ولذلك اتقنوا مبانيهم وبنوها بالآجر بدل اللبن ، ورفعوها كثيرا حتى تقاوم وتعمر ، وقد شقوا الجداول للرى والصرف فحولوا بذلك مستنقعات الرافدين الى جنات معروشات وغير معروشات .

كان هذا الشعب غير معروف الا لطائفة قليلة جدا من خواص المنقطعين لدراسة تاريخ القدامى ، ولكن منذ عشر سنوات فقط عرف هذا الشعب

وتحدث عنه أهل الثقافة عامة ، وذلك بعد أن وفق الناس إلى معرفة خطهم السفينى ، وقد كانوا الشعب الأول الذى كشف عن فن الكتابة قبل غيره فضلا عن صناعة المعادن ، واستنباط كنوز الارض بالوسائل الموفقة .

ووجود المعادن النفيسة وغيرها فى مخلفاتهم ، تدل على انه كانت لهم تجارة واسعة فى بلاد هذه المعادن من الاناضول وقفقاسية والسند والهندوفارس وسورية ومصر .

ومع أنهم لم يستعملوا الورق فى كتاباتهم ولا الرق ولا البردى الذى كان بمصر ، فانه قد عثر على شىء كثير قيم من كتاباتهم التى صنعوا لها الواحا من من الغرين ثم نقشوا عليها كتاباتهم بقلم معدنى حاد ، ثم شووا هذه الألواح فى النار ، فحفظت الى ان ظهرت فى العصر الحاضر سليمة .

وكانت الكتابة عندهم أولا صورية ، تعبر كل صورة عن الشىء الذى تمثله ، ثم صارت صوتية ، لكل صوت رسم يمثله ، ومن صوتين أو ثلاثة تتألف كلمة لايستطاع وضع صورة تمثلها جملة ، ومن أجل ذلك كانت كتابتهم معقدة ، حتى حينما أخذها الساميون من بعدهم لكتابة لغاتهم بها ، غير أنه يدلك على علو كعب الكتابة السومرية ، أن شعوب آسيا الغربية جميعا استعملو لغة السومرين وكتابتهم ، إما على حالها ، وإما بعد تهذيب قليل أو كثير .

وبعد فما أدراك أن كلمة هيكل مأخوذه من السومرية ، اذ أصلها فيها : إكل ، ومعناها القصر الكبير ، وكذلك كلمة خيمة الربية ، فانها بالسومرية أهل ، وبالسريانية هيخالو ، وبالعبرية هيخال ، وبالبابلية اكالو

هذا ومن آثارهم الكتابية أسطورة الخليقة البابلية التى نقشت على سبع لوحات طينية وسطورها نحو ٨٠٠ ، وقد أشرنا اليها فيما سبق ، واكثر مافيها يتفق مع اسطورة الخليقة العبرية التى وردت فى سفر التكوين والخلاف بينهما فقط فى أن العبرية موحدة ، و البابلية مشركة تجعل آلهة للخير وآلهة للشر ، والعبرية تجعل الله واحدا منذ القدم وهو خالق الخير وخالق الشر .

ملوك السومريين

(١) مس إنى بدّا - وهو أقدم ما عرف إلى الآن من ملوكهم ، وقد رتقى الى عرشه سنة ٣١٠٠ ق م ، ولابد من أن يكون قد سبقه ملوك آخرون ، وهم الذين وجدت آثارهم الى سنة ٣٥٠٠ ق م ، ولم تعرف اسماؤهم ولا أخبارهم ، كما ان الذين جاءوا من بعد هذا الملك كانوا مجهولين ، غير أنه يستفاد من آثارهم أن الدولة الاوريه الأولى كانت واسعة الثروة الى درجة حملت رجال المال فيها على السفر الى بلاد نائية ، لاستيراد ماليس فى العراق من المواد ، كالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة وأن (اور) من كثرة الحروب الداخلية بين المدن ذلت ودالت بها دولة مس-انى بدا سنة ٢٩٠٠ ق م

(٢) أورنامو - ظلت اور مستذلة الى سنة ٢٣٠٠ ق م ، حيث ظهر أمير بهذا الاسم وهو صاحب الخنجر الذهب السالف وصفه ، فاعاد الى اور استقلالها والى الدولة كيانها ، وقد كان رجلا عصاميا لم يقنع بان يطلق عليه اسم (ملك سومر وأكاد وأور ، وملك أربعة أطراف المعمود) ثم يقيم ببلاد العراق ، بل شق الى طريق المجد طريقا تكتنفه المصاعب وتحيط به الأهوال ، فسار من تلك البلاد بجنده الى ان اشرف على سواحل البحر المتوسط وهذا الملك هو الذى حول مبانى (أور) من دور مشيدة باللبن ، الى قصور مبنية بالآجر — وقد ظلت دولته الى سنة ٢١٧٠ ق م ثم اغار عليها (لضعف خلفائه) أهل عيلام ، وكان اخر ملوكها يسمى ايبى سن ، وحوالى ذلك التاريخ كانت بابل قد ظهرت .

(٣) الاكاديون

هؤلاء فى نظر بعض الاثريين حاميون ، ولكن المحققين منهم يذهبون إلى انهم ساميون كالعرب ، نزحوا الى هذة البلاد من جهة الغرب إذ كانت مساكنهم فى جهات حوض الارنت وهو نهر العاص أو نهر انطاكية ، ونزولهم

قبل السومريين فى السهل المضاف اليهم شمالى سهل شنعار من الغرب ؛ وهو الذى نشأت فيه بابل ، ويظن أنهم من العمونيين ، تدفقوا الى هذه البلاد الخصبة لأمر ما نزل بهم فى ديارهم ، كضيقها عليهم وقد كثروا ، ولم يكونوا فى منزلة السومريين تمدينا وعلما ؛ ولذا تخلفوا عنهم قرونا ؛ حتى اذا بلغت السومرية أوج مجدها ثم اصابها الهرم الطبعى ، كما جرت سنة الله فى خلقه برز الأكاديون وقد تقووا ووثبوا على السومريين ، فملكوا منهم أرضهم وديارهم وأصبحت أور خاضعة للساميين الذين طردوا أهلها منها فتفرقوا فى مستنقعات العراق الجنوبية وبطائحه ، وعاشوا عيشة عزلة لم يفارقوها ، ثم تقاطر الساميون على هذه الاطراف ، وامتزجوا بالسومريين من أهلها وامتزجت لغاتهم بلغاتهم ، وصار للجميع لغة واحدة ، بعد أن أصلح الساميون منها ما اصلحوا ، وبعد أن اختزلوا كتابتهم ، وأدخلوا فيها ماشاء الله أن يدخلوا ، حتى بلغت فى العصر الاول من ملكهم حدها من الاتقان ، وقد تعلموا من السومريين علومهم وفنونهم ، واقتبسوا أساليبهم فى السياسة والادارة ، والحرب والصناعة إذ كان للسومريين كعب عالية فى التشريع والعلوم والفنون ، ومنزلة سامية فى العلوم الرياضية ، حتى لقد قيل إن اليهود ورثوا التقويم القمرى عن السومريين .

ملوك الاكاديين

(١) سرجون ـ وهو أول من بنى للساميين ملكا ثانيا فى بلاد الرافدين ويذكر البابليون انه كان قبل المسيح بنحو ٢٨٠٠ ، ومن أهم أخباره : انه لم يكتف بأرض سومر ، بل ملك أيضا عيلام التى كانت تغير من وقت إلى آخر على هذه البلاد ، ثم حذا حذو الفراعنة بمصر ، واتخذوا أساليبهم حينما استعملوا النيل صاعدين فيه للاستيلاء على النوبة والحبشة ، فصعد فى النهرين يغز ويفتح ، حتى وصل إلى جبال ارمينية وطوروس والبحر المتوسط ، وملك سورية ، ولم يتعرض الى فينيقة ، لانها اذ ذاك كانت لمصر ، ويظهر أنه أجل فتح مصر إلى فرصة أخرى ، لأن غزواته هذه كانت أيام الدولة السادسة

المصرية ، وأن هذا الملك كان ميمون النقيبة فى الحرب إذلم يهزم له جند ـ

ولما هلك حذا حذوه الأولون من خلفائه ، فزادوا رقعة الدولة اتساعا، وعلومها وفنونها وشرائعها ارتفاعا ، حتى سادت قواعد العدل والمساواة والتسامح ، فامحت بذلك من بينهم العصبية النسبية ؛ وصاروا شعبا واحدا له مصلحة واحدة ، وكان ذلك أولا بالمصاهرة بين العنصرين المختلفى النسب ثم بغير ذلك من الاساليب التى تقضى الالفة والتعاون والتنافس فى ميدان الأعمال المفيدة لها جميعا ، وهذا هو سر النبوغ البابلى الذى ظهر فى هذه الدولة ، واقتبس الناس منه ماقتبسوا وورثوا منه ماورثوا ، إذ كان ذلك نتيجة لازمة لما أبدعته قرائح هذه الشعوب متعاونة متضافرة متكاتفة .

ولكن سنة الله فى الدول ثابتة من أن لها أعمارا كاعمار الأشخاص ، فقد جاء دور تحاسد فيها الناس وذكر السومريون ماضيهم فقامت الحروب الطاحنة فيما بينهم وكان الملك لمن غلب ، ثم ضعفوا جميعا وهنا وثب على بلادهم .

« ٤ » الكوسانيون

وهم قوم من جبال عيلام كانوا يرتقبون ضعف بابل ، فلما حصل سارعوا اليها ، وحكموا أهلها ، فلم تزل بأيديهم الى أن استعادها منهم الساميون مرة ثانية بقيادة حمورابى .

ومما تقدم ترى أن سكان العراق صاروا فى النهاية خليطا من الساميين الاولين والسومريين والعمونيين والكوسانيين

ولا بأس بعد مامضى من الاشارة إلى المدن المهمة وما كان لها من شأن: والمعروف انها كانت على قسمين قديما : شمالية وجنوبيه ، فمن الأولى بابل أو بابليون وبرسبا ؛ ومن الثانية أور وأرك ولا رسام واريدوا ، ونيبور بينهما كانت أحيانا تضم الى الشمال واحيانا تكون مع مدن الجنوب ، والمؤرخون على أن هذه المدن كانت مستقلة ، ولها سياستها ولها الهتها ، ثم سادت أور على مدن الجنوب بسرعة ؛ كما سادت بابل على مدن الشمال ، وفى القرن الخامس والعشرين ق.م سادت بابل على الجميع ، ويقال إنها سادت على مدن الجنوب بالتجارة والصناعة وسادت على جهات الشمال إلى البحر المتوسط

بالغزو والحرب، وخلفاء سرجون هم الذين أسسوا أمثال آشور ونينوى وأربل فى حوض دجلة، وعانة وحران فى حوض الفرات، وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ضعفت بابل فاستقلت هذه المدن وكونت امارات مستقلة كانت أقواها آشور، ثم انقسمت دولة الكلدان الى دولتين عظيمتين هما آشور شمالا وبابل جنوبا.

أور — أقدم مدن العراق وقد كانت على جزيرة فى مستنقع ثم نمت فصارت مدينة عظيمة وحضرة للشعب السومرى بعد ن أصابها الطوفان، والفضل فى نموها يرجع الى عبقرية هذا الشعب الذى أم تلك البلاد الخصيبة ونشر فيها تمدينه، وأنشأ فيها دولته.

أرك — تشتهر بملكها الخرافى الذى يعتبره الكلدانيون اعتبار الاغريق لهرقل وقد ملكها العيلاميون حوالى سنة ٢٢٥٧ ق م وحملوا آلهتها الى بلادهم. ولم يسترجعها الا اشور بانيبال سنة ٦٤٧ ق م

نيبور — تشتهر بالهها (انليل) أى اله الريح الاله السومرى الذى يؤلهه أهل المدن جميعا ويقدمون اليه القرابين مع احتفاظ كل مدينة بالهها المحلى فهى حينئذ الحضرة الدينية للسومريين

بابل — وهى حضرة الاكاديين أسسها أول ملوكهم سرجون: وكان البابليون الاولون إذا ذكروا بابل فانما يريدون العالم بأسره، وكانت أولا قرية حقيرة وكان الهها مردخ كذلك. فلما جاء العمونيون واتخذوا بابل حضرة وكانوا أقوياء. فعلا صيتهم، وانتشر سلطانهم. وبذلك ارتقى شأن الههم فصار اله الآلهة: أو رب الأرباب، واتخذ مكانة انليل.

أريدو — وهى الميناء الكلدانية القديمة، وكانت على البحر مباشرة حوالى سنة ٦٨٠٠ ق م، وهى الآن على ١٣٠ ميلا منه وكان سكانها يرحلون إلى الجهات النائية، ويفد عليهم الناس من جهات شتى وكل ذلك للاتجار فيفدون ويستفيدون، ولذلك صار الهها اله النور والعلم.

عود — وأقف هنا مكتفيا بما مضى فى شأن الدول الكلدانية الأولى ثم أسير على مقتضى ماجاء فى جدول الدول المأثور عن بيروز. مع العلم بانه لم يتعرض الى الساميين الأولين ولا إلى السومريين مقتصرا على مايأتى

(١) دولة نمروذ — وهى الأولى ، وكانت حضرتهـا أور ، وكان نمروذ جبارا عنيدا مشركا ظالما ، لايعرف للمساواة قيمـة ، بل كان يتحيز إلى بعض القبائل من شعوب العراق رعيته دون بعض ، ولذلك اضطر فريق منهم الى الهجرة من العراق ، طلبا للاستيطان فى بلاد يسود فيها العدل ، ومن هؤلاء العبرانيون آل سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وله مع النمروذ قصة قد فصلها القرآن الكريم فى سورة الانبياء .

(٢) دولة حمورابى — وهى سامية على التحقيق بل يقال إنها عربية وهى الخامسة من بيروز . والسامية الثانية بعد دولة سرجون الاكادية . أما حمورابى فسلم يبق أدنى ريب فى أنه أمرافل ملك شنعار الذى ذكر فى سفر التكوين ، وأنه كان ساميا ، دخل على الراجح أرض شنعار الخصيبـة أو بلاد سومر أوكلدية الواطئة من بلاد العرب ، وغلب الكلدانيين واستولى على بلادهم) بعد أن مر على العيلاميين قرون وهم سادة على بابل ، فحاربهم وطردهم من أرض الكلدان ، وملك العالم المتمدين فى عصره من بلاد العجم الى البحر المتوسط ماعدا مصر ، والذى يستفاد من اسمه (حمورابى) أنه عمورى أى من العموريين ، الذين كانت مساكنهم فى حوض الأرنت من بلاد الشام — ومعنى اسمه عمو = الله ، رابى = ربى ، ومهما يكن من نسبة فله شأن عظيم فى أرض بابل ، واليه ينسب شىء كثير من أعمال الاصلاح هناك ، ومن أهمها:

(١) الخليج الذى حفره من بابل الى الجنوب وكان لرى الاراضى بنظام كالرياحات عندنا بمصر ، كما كان للملاحة ، وقد وفق الاثريون الى قطعة من الآجر المشيدة به جدران هذا الخليج فى بعض مواضعه ، وقد نقش عليها مامعناه أنا حمورابى القدير ، ملك البابايين ، القابض على أزمة الاقطار الاربعة : بابل وأراك واكاد وكلدة ، والقاهر المناوئين لمروخ إلهى وناصرى . وقد كريت نهر حمورابى الذى كان سعادة على البابليين وباغت به ارض السومريين والاكاديين فامرعت به الفيافى الماحلة ، وناديتهم أن أقيموا فى رغد وخصب فهذه أرضكم أرض النعيم والهناءة ...)

(٢) السدود التى أقامها لحماية من فيض الفرات ودجلة

(٣) الشرائع التى نسبت إليه وهى التى يقول فى فاتحتها ما معنـاه . (أنا حمورابى الملك الموحد لالهى المعبود ، رسمت شريعة لنشر العدل فى البلاد ، للشاهد والمدعى والمدعى عليه لينتصف المظلوم من الظالم)

وقد وجدت هذه الشرائع مـكتوبة على عمود من الصوان الأسود طوله ثمانى أقدام (نحو ٢٫٥ متر) فى خرائب سوس من بلاد عيلام القديمة سنة ١٩٠٢ ، عثر عليه دومرجان فصوره ، وقرأ أحد الأثريين ماعليه وترجمه إلى الفرنسية — وعلى العمود صورة هذا الملك العادل أمام معبوده الجالس على العرش ، واللهب منتشر من منـكبيه على شـكل جناحين وهو يملى على حمورابى هـذه الشرائع ، وفى رأى المترجم أن هذا المعبـود هو الشمس ، والـكتابة منقوشة على العمود فى ٤٩ نهرا فيها ٣٠٠ سطر بالقلم السفينى المتقن جدا ، وهى المهذبة عن السومرية الأولى ، ومنها (أنا قاهر القبـائل ومرشد الشعوب ، الذى رد إلى آشور صنمها) وغير ذلك من أخبار حروبه وفتوحه واصلاحه فى الأقطار التى خضعت اليه .

أما الشرائع خاصة ففى ١٩ نهرا ، مقسومة إلى ٢٨٠ فصلا ، وقد جاء فى فاتحتها : أقمت شريعة العدل فى البلاد ، فأسعدت بها العباد) وقد كتبت شرائعه بلغة سهلة يفهمهـا العوام والفقراء والضعفاء وفيها يقول (إنى كنت لشعبى كالأب لبنيه) ، وهى تتناول جميع المعاملات الانسانيه من الفرائض الدينية إلى أجور العمال . والخاص منها بالأرض مفصل كما ينبغى فى مثل هذه البلاد الزراعية ، والخاص منها بالتجارة غاية فى الأهمية كما هو المنتظر فى بلاد تروج فيها التجارة وتكـثر فيها المبادلة —

وكلا مبينة على أساس المساواة وحفظ حقوق الضعفاء

وقد قابل بعض الأثريين هذه الشريعة بشريعة موسى عليه السلام فوجد بينهما توافقا فى كثير من الأحكام ، وقال إنها مستمدة منها . لان سلطة البابليـين كانت منتشرة فى فلسطين قبل أيام موسى . ونحن معاشر

المسلمين تنكر هذا فان ألواح موسى كتبها الله له بنص القرآن الكريم (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) إلا أن قلنا إن حمورابى من رسل الله الذين لم يقصصهم على نبيه ، ودين الله واحد فى كل عصر ، فلا يبعد أن يكون من شريعة موسى ماهو مستمد بنصه من شريعة حمورابى .

تتمة

فى ذكر شىء من أحوال الكلدانيين الأولين

(١) قدم تمدينهم — مع أن البعثة التى تنقب فى أور الكلدانيين لم تجد آثارا يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد ، فان البعثة التى سبقتها إلى التنقيب فى أطلال نيبور منذ سنة ١٨٨٨ قد وجدت خرائب هيكل قديم بناه الملك أورغور منذ ٤٠٠٠ سنة ، وتحته رصيف بناه الملك سرجون الأول الذى كان قبل المسيح بثلاثة آلاف وثمانمائة سنة ، وتحت ذلك آثار أخرى يستدل من الرواسب التى حولها أنها أقدم من عصر سرجون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وهذا يقوى الأثريين الذين يذهبون إلى أن عمران العراق قديم جدا ، وأن تمدينهم يمعن فى القدم إلى عصر الطوفان .

(٢) هياكلهم — بنى الملك أرغور هيكلا فى نيبور وآخر فى أور على منوال واحد ، وكان للأول برج قائم على قاعدة طولها ٥٩ مترا وعرضها ٣٩ مترا . وزواياه متجهة إلى الجهات الأربع كأكثر الأبراج البابلية ، وكان ثلاث طبقات فقط لا سبعا كما فى هياكل بابل الحديثة ، وكان مطليا بالآجر والقار ويحيط به وبداره سور منيع .

والملحوظ أن هذا الهيكل وبرجه يماثلان أهرام مصر القديمة ، كهرمى ميدوم وسقاره ولذا ظن بعض علماء الآثار أن أهرام مصر مأخوذة عن

الهيا كل الكلدانية ، وذهب آخرون إلى أن الكلدان هم المقلدون للمصريين وهو الأرجح فان هيكلى أورغور فى أور ونيبور كالمساطب المصرية التى هى أصل الأهرام، وهما أقدم مابنى من نوعها فى بلاد الكلدان.

أما هيكل سرجون الأول فى أور، فقائم على قاعدة أخرى من الآجر الذى طول الواحدة منه كعرضها نصف متر ، وعليها كلها ختم هذا الملك وابنه نارام سين ، فهى أقدم من هياكل أورغور بألف سنة ، لأن تاريخها سنة ٣٨٠٠ ق م .

وإلى الشمال الشرقى من هذا الهيكل سور ضخم جدا بناه ترام سين ذلك الملك الذى استدل من عظمة سوره هذا على عظمته .

وإلى الجنوب الشرقى منه غرفة طولها ١١ م وعرضها ٥ر٣ م ولا باب لها ولا شباك ، كتب على آجرها الملك أرغور، وتحتها غرفة أخرى كتب على آجرها الملك سرجون ، وثبت أن الغرفتين كانتا لحفظ سجلات الهيكل ، وقد فتحتا فى أدوار مختلفة ونهب مافيهما ، وربما كان ذلك أيام غزو العيلاميين لهذه البلاد سنة ٢٢٨٥ ق.م لان كثيرا من مخصصات هياكل الكلدانية وجد فى حاضرة عيلام .

ولما عمقت البعثة الحفر وجدت انقاض هيكلين تحت الهيكل الاعلى أحدهما حول الآخر فاستدلت من تراكم الغرين حولهما أن أساسهما وضع قبل المسيح بنحو ٧٠٠٠ سنة ، وقد وجدت غير ذلك أوانى من الخزف ، ومجارى للماء مبنية بالآجر ومقبوة بالقناطر ، وصفائح وشواهد مكتوبة ، والكتابة عليها تبين أنها وصف حروب قديمة .

(٣) شرائعهم : وصفنا فيما مضى شرائع حمورابى والظاهر أنه كان معمولا بها فى سورية على عهد الخليل عليه السلام كما يظهر من جواز اقتناء سارة لهاجر ، ومن توريث بنى اسرائيل بناتهم كابنائهم وغير ذلك .

وكانت شريعة الملك دنجى الذى حكم أور سنة ٢٣٤٠ ق.م لا تقل عن شريعة الملك جورج الرابع فى أوائل القرن الثامن عشر ؛ فقد كان يحل الاسترقاق ولا يحرم على الرقيق أن يسترق ، ولا أن يملك الدار والعقار ، ويجعل للمرأة

حق وراثة الملك ، وإذا كان التشريع يمثل نصف المستوى الأدبى فى الدولة فانه يصح أن يقال ان المستوى الادبى لم يرتق كثيرا منذ ذلك العصر المتوغل فى القدم .

(٤) الاسرة : كانت الأمم التى عمرت هذه البلاد من أصلين مختلفين أحدهما يجعل السيادة للزوج والآخر يجعلها للزوجة ، فالساميون من الاصل الأول والسومريون من الاصل الثانى — وعلى أى حال فكان شأن المرأة عظيما عند الفريقين ، بمعنى أن المرأة تشارك الرجل فى الأعمال التجارية والقضائية من المخاصمة والدفاع والشهادة ، وكذلك فى الحقوق الدينية ، وكانت الزوجة تأتى بالصداق من بيت أبيها ولكنه يبقى ملكا لها توصى به الى من تشاء بعد موتها وربما كان مجيئها بصداقها من العوامل التى جعلتها تساوى زوجها فى المنزلة ، وحفظت لها استقلالها ورفعت مقامها عنده ، وأبقت لها حق التصرف فيما تملك من غير أن ترجع اليه ، وكان التبنى كالتسرى من امورهم الشائعة التى لا تقتصر على الاحرار ، بل يزاولها الارقاء ايضا ولا يكون الزواج عندهم شرعيا الا اذا كتب فى عقد يوقع عليه القاضى والشهود .

(٥) العلم — يمكنك ان تقول فى غير ريبة استنادا على ما كشف عنه مكاتب البابليين . أن القارئين والكاتبين فى بلاد العراق منذ ٤٠٠٠ سنة بالنسبة الى عدد السكان اكثر منهم ايام كانت البلاد للدولة العثمانية ، وكانت كذلك نواحى العمران المختلفة ودرجة التمدين .

وكانوا لا يكتبون فى الرق كالفرس ولا فى البردى كمصر ولكن فى الخزف نقشا بقلم حاد ، والمعروف ان انتشار العلم كان من عصر السومريين وقد وجدت صحيفة خزفية لتعليم الكتابة وفى اعلاها النموذج الذى يقلده المتعلم كما وجدت صفحات اخرى من اثر البنات مما يدل على ان التعليم فى بابل كان عاما ، بل انه تناول ابناء الاحراء والارقاء .

وان كان من الصعوبة بمكان لكثرة الحروف او العلامات والكلمات المتشابهة ، وكان لهم معاجم للسومرية بالسامية ، وكتب نحو وصرف ومطالعة

وفهارس لاسماء الكتب المحفوظة فى مكاتبهم واسماء مؤلفيها وفاتحة كل كتاب

وقد عثر لهم على مؤلفات فى التاريخ والجغرافية والشريعة واللغة والفلك والتنجيم والعلوم الخرافية من العرافة والعيافة . كما عثر على شىء من دواوينهم الشعرية وكتبهم الادبية ، ومنها ما كان لا يزال على ترتيبه حيث وضع منذ ٢٧٠٠ سنة ، وقد ذكر هيرودوت أنه كان لهم مدارس اتسعت حتى صارت كليات ، ومنها واحدة كانت فى ضواحى بابل للطب الذى كانوا يعرفون منه أكثر مما يعرفه أهل العراق الآن ، وكانوا يتعلمون لغات الأمم المجاورة كالآرامية السورية ، وكان لهم مراصد كثيرة لرصد الافلاك ، وقد خططوا السماء ، وقسموا نجومها الى مجاميع وعينوا الابراج التى ينزلها كل من الشمس والقمر ، وحسبوا أوقات الخسوف والكسوف وكتبوا فى ذوات الاذناب ، وقسموا السنة الى ١٢ شهرا ، جعلوا كل شهر ٣٠ يوما ؛ ثم أضافوا شهرا لكل ١٢٠ سنة ليزول الفرق ؛ وجعلوا مبدأ السنة الاعتدال الربيعى ، وكان عندهم سنة قمرية وسنة شمسية ، ولهم غير ذلك ، مما يدل على علو كعبهم فى هذا الفن ؛ وقد ظل الناس يقتبسون من جداولهم الرياضة الفلكية ويستعملون تقاويمهم (الازياج) الدقيقة المضبوطة الى منتصف القرن الماضى .

(٦) الديانة — كان فى العراق دينان : دين الجمهور وهو كثير الخرافات والاوهام ، ودين الخاصة وهو كثير القواعد والاحكام ، وهو مؤلف من أصلين : سامى يقول بوجود اله ؛ وسومرى يقول بالارواح ؛ فما يسميه الاولون اله السماء يسميه الآخرون روح السماء وما يسميه السومريون روح الجو (أنو) يسميه الساميون اله الجو ، وهكذا .

غير أن السومريين كانوا مشبهة او كانوا يزعمون أن اله السماء يشبه الناس فى صفاته ولكنها فيه اكمل .

ويسمى الساميون هذا الاله بعلا ، أى سيدا وكان لكل مدينة بعل

وقالوا ان البعل تجسم فى الشمس ، وكانوا يرصدون الكواكب فحسبوا ان لها علاقة بمصالح الناس واشركوا معها الارواح فألهوها .

وقد اقتضت اللغة السامية وجود مؤنث لبعل هو بعلة ؛ فقالوا بآلهة مع الاله ، ولما كان مقام المرأة عندهم أحط من مقام الرجل انحطت منزلة الآلهة عن الاله ، الا مقام استارا والزهرة ؛ لانها كانت من آلهة السومريين الذين يجلون مقام المرأة ، فبقيت على مقامها الرفيع .

والخلاصة أن الديانة الرسمية فى بابل كانت مزيجا من الاصلين السامى والسومرى — ومن أقدم هياكلهم هيكل فى نيبور للاله (مل ليل أو آل ليل) أى مولى عالم الارواح ، وهيكل فى أريدو للاله (إيا) إله القمر ، وهو عندهم أول مشرع ، وأول من أوجد العمران وسلطته تمتد على المياه كلها ، وابنه (إسارى) يستطيع أن يحيي الموتى ، وهو مردخ إله بابل ، التى لما قوى شأنها قوى شأن إلهها هذا فحل محل أبيه (إيا) كما حل زفس الاصغر محل زفس الاكبر عند الاغريق .

وعلى طول الايام تمكن علماؤهم من جمع المعتقدات القديمة وتمحيصها وتدوينها . وكان للبابليين كتب دينية يؤتمن عليها الكهنة ويتعلمها خاصة الشعب ولا يمنع من تعلمها من يريد من عامة الشعب ، وبخاصة الاناشيد والتراتيل وقد كتبوا ذلك كله بالسومرية لانها اللغة الدينية ، وترجموها الى السامية وكانوا يختمون كل نشيد بكلمة (أمانو) وهى أمين ، ومن أناشيدهم التى أثرت يتبين أن فريقا كبيرا منهم كان يعتقد بوحدانية الله تعالى ، وقد بين بعض علماء الآثار أن التوحيد نشأ أولا فى أرك ، وقام فريق من موحديها بتعليم الناس أن الآلهة المختلفة ما هى الا مظاهر للاله الواحد (أنو)

الفصل الثانى

دولة الاشوريين

نشأت هـذه الدولة السامية أولا على الضفة اليسرى من دجلة حوالى نينوى وكالح وآشـور ، ثم اتسعت على طول الأيام حتى كانت بين جبال زغروس والبحر الابيض المتوسط .

وأقدم مدنها آشـور ، أما نينوى فأطلالها تبرهن أنها كانت مقامة على ١٨٠٠٠ فدان ، وكانت مسورة ، ولأسوارها أبواب وعليها أبراج ، وكان سكانها نحو ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة

ويستمد تاريخهم مما استمد منه تاريخ الـكلدان ، غير أن آثار آشـور كانت أبقى ، فـكان المسـتفاد منها اكثر ، لأنهم كانوا يبنون بالحجارة الجديدة وينقشون أخبارهم عليها .

وكانوا أول أمرهم على هيئة طوائف لـكل طائفة أميرها أو رئيسها ، ثم اجتمعت كلمتهم ، فصاروا مجموعة واحدة سياسية ، وكانت حاضرتهم آشور ، وقد كانوا كالقوامين على ملوك الـكلدانيين حينما ضـعفوا وتقوى الأشوريون .

هذا . ويمكن تقسيم بقية أخبار الآشوريين إلى مدتين :

المدة الاولى ١٣٠٠—٩١١ ق . م .

سلسلة الملوك الأولين فى هذه المدة غير تامة ، وأزمنتهم مظنونة وأخبارهم منقطعة .

وكان اشهر ملوكهم فيها تجلتفلسر الأول . وأخباره فى السنوات الخمس

الاولى من حكمه مستوفاة لانها مستمدة من كتابته الرسمية التى كشفت فى خرائب آشور ، ويستفاد منها أنه غزا كثيرا من البلاد المجاورة ودوخها فى مدة قصيرة وغنم منها وضرب عليها الجزية ، ومن ذلك : ما شك وقموخ وقد أسر منهم ٦٠٠٠ وصير مدنهم آكاما ، والحيثيون وأهل نهرابنا وضرب عليهم الجزية ، والآراميون وغيرهم من الجاليات السورية وأحرق مدنهم وكذلك صنع بأهالى المقاطعات التى حوالى جبال زغروس .

ومما أثر من أقواله : تسلطت من بداءة ملكى إلى السنة الخامسة على اثنين واربعين بلدا مع ملوكها ، من شطوط الزاب والفرات ، الى البحر الغربى وجعلتهم تحت حكم واحد ، وأخذت منهم رهائن ، وضربت عليهم الجزية

وهذا إلى ما يذكره من فخاره بالقدرة على الصيد والقنص ، وما أقامه من المبانى والقصور ، وما رممه من الهياكل فى مدينة أشور ، وما كان من عنايته بالحصد والزرع وتربية الماشية ، ثم ما كان من اعتماده على الآلهة التى نسب إليها كل ما كان من نجاح .

وبينما كان عائدا من حروب بعض القبائل هاجمه فى نواحى هيت أخو ملك بابل وضايقه ، فظلت بابل مستقلة ، ومات سنة ١١١٠ق . م .

وبعد فان أخبار الآشوريين قد انقطعت من بعده نحو ٢٠٠٠ سنة لكنه ظهر بين اسماء الدولة الثانية والعشرين المصرية أسماء آشورية ، مثل شيشنق ووأشركون مما يدل على أن الأشوريين فى هذه الفترة ملكوا مصر فضلا عن بقاء دولتهم . وقد يكشف المنقبون فى آثارهم سلسلة الملوك الذين خلفوا تجلتفلسر ثم ظهر أشور ناصر بابل فلبث فى الملك ٢٥ سنة وأعاد الدولة الى حدود تجلتفلسر ، وكان أكثر غزواته فى أرمينية ومادى ، ثم عبر الفرات عن طريق كركميش واستولى على سورية كلها إلى حدود فلسطين ، حيث مملكتا يهوذا وإسرائيل القويتان وقد عثر على حجر دونت عليه سائر غزواته بالقلم السريانى وجاء فيها بعد أن وصف نفسه

بالشجاعة والبأس : إنى لم أتأخر عن أن أسلخ حيا كل من يتجاسر عن خلع الطاعة من الملوك التابعين لمملكتى ، ويظهر من نصوص هذا الأثر أنه لم يقض سنة من سنى حكمه من غير أن يشهر فيها حربا ، وله صرح فى كالح عليه نقوش بديعة تدل على رقى الفنون الجميلة فى عصره كثيرا

وخلفه سلمناصر ، فغزا البلاد التى غزاها أبوه ، لأن الحيثيين وملوك دمشق وفينيقية تآمروا على مقاومته ، فأخضعهم كما أخضع السامرة ، وتدخل فى أمور العبرانيين ، وأدخل ياهو أحد ملوكهم تحت طاعته .

أما أخبار الملوك من بعده فلا قيمة لها ، ويظهر أنهم أخلدوا إلى الترف وآثروا النعيم ، فضعفوا حتى طمع فيهم جيرانهم ، وفى مقدمتهم فول ملك بابل ، واجمعوا على محاصرة نينوى ، حتى سلمت بعد سنتين فاستباحوها ، ثم أضرموا النار فيها ، وملك الكلدان اكثر بلاد الأشوريين وذلك حوالى ٧٨١ ق . م . أما أهل مادى فقد اكتفوا باسترجاع استقلالهم ، ولم يلتفتوا الى الجزيرة الفراتية

المدة الأشورية الثانية ٩١١ — ٧٤٥ ق . م

ولما كان الاشوريين قوما شجعانا لم يصبروا على الضيم ، ولم يناموا عن ملكهم ، بل فكروا فى حالهم ، وتذكروا ماضيهم ، وأخذوا يعملون على استرداد سيادتهم ، فما هو إلا ان ثاروا ثورة عامة ، وعمدوا الى احد أمراء بيتهم الملكى ، ممن نجا من أيدى الكلدان ، فاتخذوه قائد ثورتهم ، وحاربوا الكلدان ثلاث سنين ، حتى أخرجوهم من آشور وتبعوهم الى بابل وفتحوها وضربوا عليها الجزية .

هذا الامير هو تجلتفلسر الثانى الذى لم يكتف بمجرد استعادة الملك ، بل شرع يعيد الدولة إلى حدودها ايام مجدها وكان النصر حليفه فى أرمينية والشام وبلاد العرب ، والبلاد التى تجاور بحر الخزر وما يليه إلى بلاد آرى ، وقد سن هذا الملك سنة سيئة لم يسبق إليها ، وهى التغريب

وإجلاء الناس عن أوطانهم إذا فتحها ، رجاء الا يحتاج الى غزوها مرة ثانية ثم مات سنة ٧٦٧ ق . م

وخلفه سلمناصر الرابع ، والمرجح أنه كان ابن تجلفتلسر الثانى ، وقد ظهر له بعد أن تبوأ عرش البلاد أن السامرة خانت ، فحاربها حتى خضعت ، ثم استعان ملكها بملك مصر سبقو (الدولة الخامسة والعشرين الكوشية) وقطع الجزية ، فزحف إليه سلمناصر وأسره واعتقله ولكنه لم يفتح السامرة بل حاصرها مدة سنتين أو ثلاث سنين ، هاجم فى خلالها صور ولكنه لم يفتحها وأطال عليها الحصار .

ويظهر أن الأشوريين سئموا غياب ملكهم عن بلاده كثيرا من غير أن ينتصر ، ولم يجدوا من أفراد البيت المالك سواه فأجمعوا أن يولوا كبير القواد وهو سرجون ملكا عليهم ، فلما أولوه هذه الثقة أراد أن يبرهن أنه عند حسن ظنهم به ، وكان شجاعا مقداما ، فما لبث أن باشر الحرب وظل يغزو (١٥ سنة) غزا عيلام وهزم مردوخ بلادان ، وكان قد استرجع ملك بابل ، ثم خضعت له السامرة ، اذ فتحها الجيش الذى كان يحاصرها ، وأجلى سرجون أهلها ، واسكنها قوما من عيلام ، وأقام عليها واليا أشوريا ، وضرب عليها الجزية ، ثم زحف الى الشام ، وأوغل جنوبا لمحاربة ملك غزة الذى حالف ملك مصر سبقو الثانى ، فلما التقى الجيشان اضطر ملك مصر الى الفرار من وجهه ، وكان ذلك حوالى رافيا « رفح » ، بل يقال انه اضطر ملك مصر الى دفع الجزية اخيرا .

وقد روع اهل الجهات المجاورة فخضعوا اليه من غير حرب ، حتى لقد جاءه اهل رودس يعلنون اليه طاعته ، وله آثار حسان فى مدينته التى أنشأها لنفسه بالشمال الشرقى من نينوى ، وتسمى دور سرجينا أى دار سرجون وكان بها قصر بديع الهندسة ، محكم البنيان ، جيد النقوش داخلا وخارجا وهلك سرجون سنة ٧٠٥ ق . م

وتقلد الملك بعده أبنه سنحاريب ، ولم يك دون أبيه فتحا وحزما

وبطشا بالأعداء وبعد نظر بالسياسة . وقد أعاد نينوى إلى مجدها الأول ، واتخذها دارا للملك ، وبنى فيها صرحا دون على جدرانه أعماله العظيمة التى رفع بها شأن الاشوريين ، وقد جاء ذكره فى التوراة ، ونوهت به الكتب الاغريقية ، ولم يباشر الحرب الى بعد سنتين من تتويجه .

وخرجت عليه بابل مرات ، وكان لعيلام ضلع فى خروجها ؛ فسار إلى بابل ومنها إلى عيلام بحرا ، فغزاها وانتصر ، وفى خلال غزوه إياها ثار أهل بابل وأعلنوا الاستقلال على زعم أنه لن ينتصر فى عيلام ، فما هو إلا أن انقض عليهم كالصاعقة المحرقة ، فهزمهم ومن ناصرهم ، واستولى على بابل واستباحها ، ثم هدم أسوارها ، وأحرق هياكلها . وبعد حين نظر الى الغرب وسار ففتح كيليكية ، وأخضع المدن الفينيقية ، ثم أغار على مملكة يهودا وأجلى أهلها ؛ وهدد فراعنة مصر « ترهاقة » وأرسل إلى حزقيا ملك أورشليم يطلب اليه أن يسلم قبل أن يقدم فرعون مصر فلم يقبل ، فتوجه بجيشه إلى حدود مصر ، وأدركه الليل فلما أصبح وجد الوباء قد تفشى بين جنوده ، فانصرف عن مصر وأورشليم معا .

وقد ذكر المصريون قصة الأشوريين وما أصابهم فى هذه الدفعة ويظهر أن ترهاقه لم يك قد توج ، وإنما كان قائداً للجيش فقط .

ولما عاد سنحاريب غزا سوس وعيلام ، وكان النصر حليفه هنالك ، ثم قتله أحد بنيه . والسبب فى ذلك أنه أوصى لابنه اسرحدون بخواتم من الذهب ومقادير كبيرة من العاج وكؤوس من الذهب وصحائف وقلائد وثلاثة أحجار كريمة فانتهز أبناه الأخران فرصة مضى اسرحدون مع الجند الى ارمينيه وقتلا أباهما واغتصبا الملك .

وتولى بعده ابنه أسرحدون (أشور أخى الدين) فطارد اخويه المتهمين بقتل أبيهما حتى مالا إلى ملك أرمينية ، فآواهما واقطعهما القطائع ، فعند ذلك هجم على سورية فأخضع ملوكها ، واجلى كثيرا من اهلها واسكنها جماعة من الاشوريين وفى عودته منها غزا ارمينية ثم انحدر الى بابل وغزا بلادا سماها باز وقال انه قطع فيها فلوات طولها ١٤٠ فرسخا ، ويظهر انها بلاد العرب ،

وغزا أيضا مادى وعاد الى الغرب لأن ترهاقة ملك مصر قد أغرى الفلسطينيين بالعصيان ، فسار اليه سنة ٦٨٣ ق . م ففر ترهاقة إلى كوش ، أما أسرحدون فانه أوغل حتى دخل مصر ، واستحدث فيها نظاما إذ قسمها ٢٠ قسما وولى على كل قسم واليا وجعل نخاو على منف ثم عاد وكتب على الصخور التى عند نهر الكلب تاريخ مهاجمة مصر سنة ٦٧١ ثم مات سنة ٦٦٨ ق . م وله مبان وهيا كل مزخرفة بصفائح الذهب والفضة ومنها قصر فى كالح نصب فيه كثيراً من التماثيل الحجرية ومنها أبو الهول المصرى الذى نقله من مصر

وخلفه ابنه أشور بانيبال . وهو آخر المشهورين من ملوك هذه الدولة ولما استقر على عرش البلاد اضطر الى مهاجمة مصر ، لأن ترهاقة عاد من الحبشة وتاب النظام الأشورى بها ظهرا على عقب ، فلما وصل اليها هرب ترهاقة فأعاد الى البلاد نظام أبيه غير أن بعض الولاة الذين اقامهم خانوه فقبض الموالون اليه على هؤلاء الذين خانوا وأرسلوهم مقيدين الى نينوى فعاقبهم جميعا إلا نخاو فانه عفا عنه ، وارسله لمحاربة ترهاقة ، ولما لم يفلح سار أشور بانيبال مرة ثانية إلى مصر فقهر جيوشها وامعن حتى بلغ طيبة وعاد بالغنائم الوفيرة من الذهب والفضة والعاج والاحجار الكريمة والفيلة والقردة ثم بالأسرى ولم تستعد مصر دولتها إلا على يد أبسمتيك ويظهر انه كان ابن نخاو احد الولاة السابقين وهو غير نخاو بن ابستميك هذا صاحب الطواف حول افريقية .

ولما عاد اشور بانيبال من مصر حاصر صور لأن ملكها عصاه ثم استولى على أرواد بعد مقاومة شديدة وفتح كيليكية وعاد الى نينوى وهنالك جاءته وفود ليديا يسألونه المعاهدة .

ثم غزا فى بلاد المشرق بلاد مادى وبخاصة البقاع التى حول بحيرتى وان وأرمية ثم حارب عيلام لأن قوما منها هاجروا الى اشور فى سنة مجدبة فلما اخصبوا ارادوا العودة الى وطنهم فمنعهم اشور بانيبال فغضب ملك عيلام من جراء ذلك وهاجم بابل انتقاما وكان واليها اخو اشور بانيبال فاستغاثه فأغاثه وبذلك تقوى على ملك عيلام وطرده ، ثم مات هذا الملك

عقب ذلك ونشـــأت بموته الثورات فى بلاده ، وانقسم أهلها أحزابا استعان بعضها على بعض بملك آشور ، فانتهزها فرصة طيبة وأغار على عيلام وضمها إلى أشور نهائيا ، وبالغ فى عقاب المخالفين له فاستأصل ألسنة بعض وسلخ بعضهم أحياء ، وجدع أنوف الآخرين ، كما قتل منهم عددا كثيرا ومن جراء هذه القسوة كرهه القوم ، فعصاه أخوه ، وشاركه فى هذه العصيان كثير من القبائل ، وبخاصة أهل عيلام غير أنه انتصر عليهم جميعا بعد حروب طاحنة دامت فى عيلام وحدها من سنة ٦٥٥ الى سنة ٦٤٦ ق م .

ثم شن الغارة على بلاد العرب لانهم كانوا قد أعانوا أخاه فى عصيانه ، وكان ميدان حربه بين خليج العجم وحدود الشام ، ويقال إنه فى جزيرة العرب وصل إلى جدة ويثرب ثم انقطعت أخباره بعد سنة ٦٤٥ ق م .

ويظهر من أحاديثه السابقة أنه كان من صناديد الآشوريين وعظمائهم إذ اتسعت الدولة فى عصره إلى مالم يعهد من قبل وبلغت أخباره اليونان فسموه سردنبلس ولهم فيه روايات كثيرة .

وكان مقتدرا فى الصيد يجلب الوحوش من مواطنها ثم يحبسها فى نينوى ثم يطلقها ويلهو بصيدها أيام السلم .

وزاد على أسلافه عنايته بالعلوم فجمع كتبا كثيرة وأكرم العلماء وحثهم على التأليف فاجتمع له مؤلفات فى اللغة وقواعدها والفلك والدين والهندسة وغيرها وقد جمعها فى المكتبة الملكية التى ذهب أكثر ما كان بها ولكن الباقى لا يقدر بثمن وكانت الكتب على ألواح من الخزف .

واشتهر كأسلافه فى إقامة المبانى الفخمة بل إن صرحه الذى شاده فى نينوى لم يسبقه اليه أحد من أسلافه فى إحكام مبانيه وزخرفتها بالحجارة الملونة والرخام والمرمر وقد بلغ إحدى حجراته ١٠٨ بالقدم فى عرض ٢٤ قدما ولكنه كان فظا غليظا لا يراعى حقوق الناس ولا يقبل عذرا ولا يقيل عثرة . وكان يجعل من ساعات لهوه المدة التى يقضيها فى قتل أسراه بعد أن يعذبهم عذابا أليما وكانت نينوى فى عصره تسمى مدينة الدماء من جراء ذلك .

ويظهر أنه فى آخر مدته ضعف وضعفت معه دولته فاستقلت مصر وتجرأ الماديون على مهاجمته وزاد فى ضعف آشور ما كان من هجوم السيتيين الذى كان كالسيل الجارف من شرقى بحر الخزر على آسيا العربية عامة وآشور خاصة فعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا فتح مدنها الحصينة أباحوا لأنفسهم ما عدا ذلك من النهب والتخريب وبعد ذلك تولى على آشور امدالن وهو ابن الملك السابق فازدادت الدولة ضعفا وهاجمها الماديون من الشرق والعيلاميون من الجنوب فلما رأى امدالن هذه المصائب أرسل نبوبلسار (وهو من القواد) إلى بابل فخان وحالف الماديين وزوج ابنه بختنصر من ابنة مليكهم واتفقوا جميعا على حصار نينوى فحاصروها سنتين واتفق أن دجلة فاضت وارتفعت مياهها فهدمت ناحية من أسوار المدينة فأيقن الملك الآشورى بالهلاك وجمع أهله وماله فى قصره وأضرم فيه النار أما المهاجمون فانهم اقتحموا المدينة واستولوا عليها وبذلك سقطت الدولة العظيمة القوية بعد أن دامت نحو ٧٠٠ سنة منذ استقلالها أى من نحو ١٣٠٠ إلى ٦٢٤ ق م وكانت كلمتها نافذة فى البلدان التى تمتد من أرمينية وليد شمالا ومصر وبلاد العرب جنوبا وبلاد مادى شرقا والبحر الأبيض المتوسط غربا .

غير أن سياسة هذه الدولة عامة كانت سيئة إذ لم يك فيها غير القوة والمعروف ان القوة وحدها تخضع الأجسام ولا تملك القلوب . من أجل هذا كان الناس الذين خضعوا اليهم يظهرون الطاعة ويخفون العصيان مرتقبين الفرص .

وهنالك باب من ابواب سياستهم كان شديد الأثر جدا وهو التغريب فقد قضى التغريب على شعوب برمتها فذهبت صفاتها وتغيرت اخلاقها وضاعت أنسابها وامحت آثارها كما حصل للأسباط العشرة من اليهود الذين أجلاهم الأشوريين عن اوطانهم .

علاقة الاشوريين بمصر

يتبين مما سبق ان الأشوريين وقعت بينهم وبين المصريين حروب فى اوقات مختلفة وان الأشوريين ملكوا مصر وصارت من مستعمراتهم .

وأول من ملك منهم مصر شينشق الأول وكان مقره فى بوبسطة واليه ينسب ما كان من تقدم هذه البلاد بعد أن اعتراها الوهن وانحطت غير أن الذين ملكوا من بعده كانت اخبارهم قليلة وتدل اسماؤهم على أنهم اشوريون وان الدولة الثانية والعشرين المصرية كانت اشورية ويقال انها حكمت ١٧٠ سنة ، وأن الدولتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين كانتا أشوريتين أيضا ، الى أن ضعفت الاخيرة منهما ، ووقعت البلاد فى قبضة الاحباش أيام الخامسة والعشرين .

فلما جاءت أيام سرجون ملك أشور أراد أن يملك مصر ، فقاد جيشا لمحاربة أهل غزة الذين حالفوا مصر فهزمه ثم انقض على مصر حتى اضطر أن يفتدى نفسه وملكه بالهدايا فرجع عنه .

ولما ملك سنحاريب سار إلى فلسطين لمحاربة ملكها حزقيا . فاستعان بملك مصر فبعد أن فرغ سنحاريب من فلسطين تقدم الى مصر ولولا أن الطاعون تفشى فى جنده لدخلها وملكها .

ولما ملك اسر حدون أو أشور آخى الدين جرد جيشا على مصر ، وكان ملكها الأتيوبى طهراقة قد أغرى أهل فلسطين بالخروج والعصيان فتقدم الجيش الأشورى ودخل مصر ، ففر طهراقة الى أتيوبيا ثم كر عليها مرة ثانية لان طهراقة عاد الى مصر . وفى هذه المرة دخل أسرحدون البلاد ونظم إدارتها وقسمها إلى عشرين قسما وجعل على ولاة هذه الاقسام نخاو والى منف ، ثم عاد فعاد طهراقة وهدم كل ما جدد أسر حدون .

فلما ملك أشور بانيبال كر على مصر وأعاد ما أحدثه أبوه ، ثم قبض على الذين خانوه ومنهم نخاو ، وأرسلهم مكبلين بالحديد الى نينوى ثم عفا عن نخاو ، وجهز لمحاربة طهراقة فلم يفلح فاضطر أشور بانيبال الى الاغارة على

هذه الديار وقهر جنود الثائرين ، وأوغل الى أقصى الصعيد وعاد بالغنائم الوفيرة كما سلفت الاشارة الى ذلك .

ثم ضعفت الدولة الاشورية فتمكن أبسمتيك بن نخاو من الوثوب على ملك مصر ، وشرع يعمل على وفائها من الأشوريين الى أن تم ذلك ، وتكونت الأسرة الثالثة والعشرين المصرية .

شيء من أخبار الأشوريين

(١) الشعب الاشورى فى أخلاقه : لقد فطر الاشوريون على حب الصيد والحرب ! وقلما تراهم فى الصور التى نقشوها الا مسلحين ممتطين متون الخيل ، مستعدين الى النزال والضراب ، ولقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء واستعباد الناس ، ولقد أذلوا شعوبا برمتها فى نحو سبعة قرون أقاموها فى ملكهم وكثيرا ما يكون غزوهم البلاد مجرد الميل الى سفك الدماء والرغبة فى التدمير والنهب واخافة الآمنين وكانوا يرون انهم فوق جميع الناس ومع ذلك كانوا أقدر الناس على ضبط نفوسهم فقد غلب عليهم النعيم فسقطت دولتهم الاولى ولكنهم سرعان ما نشطوا الى انشاء دولتهم الثانية فى ظرف ثلاثين سنة واستعادوا ملكهم وصيتهم وفتوحهم .

(٢) الملك . وكان الآشوريون يرون أن ملكهم خليفة الله على خلقة ولذلك أطاعوه طاعة عمياء لا فرق بين عظيمهم وحقيرهم فاذا دعاهم الى حمل السلاح أجابوه من غير تردد وخاضوا معه معامع الحروب وكان إذا عاد منصورا وهو الغالب صور مآثره على جدران قصره وهذه فقرات مما نقشه آشور ناصر بال . « إنى أقمت جدارا امام ابواب المدينة العظمى ، وسلخت جلود زعماء الثورة وغطيت بها هذا الجدار ودفنت بعضهم أحياء فى أساس البناء وصلبت فريقا آخر .وكتب سنحاريب . (انطلقت كالعاصفة المدمرة فضبحت السرج والاسلحة فى دماء الاعداء كأنها فى . . . . . نهر ، وجمعت جثث جندهم كما تجمع الغنائم ، وبترت اصابعهم ، وهشمت عظام من اخذتهم احياء على نحو ما تقصف التبنة . وقطعت ايديهم عقابا لهم بما جنت ايديهم)

(٣) . — ولغة الاشوريين سامية كالعربية ، وفى اللغتين كلمات متقاربة جدا (انت = انى ؛ هو = شو ، هى = شى ، وانسان = نسو وميت = متو . . . الخ) ولكن خط الاشوريين هو السفينى أو المسمارى أخذوه عن الكلدان بعد اتقانه أو جعلوه حروفا أو علامات حقيقية ولكنها أكثر من ٣٠٠ حرف وعلامة وكان من خطوطهم الدقيق الذى لا يرى إلا بمنظار

(٤) الكتب والعلوم والفنون: ولهم كتب كثيرة جدا ومطولات فى التاريخ وروايات وصكوك ، وليست فى ورق أو نحوه بل على جدران الأبنية وفى ألواح متخذة من الحجارة أو صفائح من الخزف ومن أعظم آثارهم عمود سلمناصر الذى أقامه فى كالح تخليدا لفتوحه وعليه سطور عددها ٢١٠

وعلومهم هى التى أخذوها من الكلدان كعلم الفلك وعلوم الدين والتشريع وما أدراك أنهم تعلموا لغة الامم المجاورة كالآرامية والعبرانية ليحسنوا مخاطبتهم وكما اقتبسوا العلوم من الكلدانيين اقتبسوا الفنون وعنهم أخذ الاغريق الفنون الجميلة والصناعات ، وفاقوا أساتذتهم فيها وبخاصة البناء والنقش ، يدل على ذلك صروحهم وقصورهم وما نقشوه على جدرانها من الصور المختلفة كصور الحروب وزحف الجيوش وقطع الانهار وحصار المدن والآلات الحربية والمركبات والحيوانات ، والوحوش والاشجار والاعشاب ، والمياه والسمك والصيادين وقد صنعوا الزجاج شفافا وغير شفاف ، والمنظار المكبر ، وأتقنوا التطعيم والوشى بالذهب والفضة وغيرهما ، وصقلوا الحجارة على اختلاف خواصها ، وقد بلغت الفلاحة عندهم درجة سامية جدا ؛ وكانت أساليبهم فيها مؤسسة على أقوى الاصول العلمية وأقومها مما استمدوه من الكلدانيين

(٥) الدين : وكان دينهم أصلا من الاصول التى نشأ منها اكثر المذاهب الدينية فى الشام وآسيا الصغرى من الصابئة وعبدة الأوثان وكان أعظم آلهتهم آشور بعد أن نسوا عبادة الواحد جل شأنه وأشركوا به . وكان الفاتح منهم حين عودته منصورا يفتتح الكلام بشكر الآلهة ويتوسل اليها ، ويسألها الاعانة والنصر المبين دائما ، وكان لهم أناشيد دينية وصلوات عثر على كثير منها فى آثارهم التى كشفت حديثا .

الفصل الثالث

دولة بابل او الكلدانية الاخرى

كانت هذه الدولة أولا فى أرض الكلدانيين فقط ، فلما سقطت اشور كما سلف ضمت بابل اليها شيئا كثيرا من الأراضى الأشورية ، ثم أخذت تتسع حتى امتدت من بلاد عيلام الى البحر المتوسط

وحاضرتها بابل ، وكانت على جانبى الفرات : وقد بالغ هيردوت فى وصفها حتى قال أنه لا يوجد فى عصرها مدينة تقارن بها ، وقال إن فى كل ناحية من ناحيتى المدينة ما يستحق مزيد الاعجاب ، ففى احداهما بلاط الملك وهو قصر فسيح محكم البناء متقن الصنع . وفى الثانية هيكل جسيم للمعبود بعل ، وفى وسطه برج فسيح يعلوه ثان وثالث ، الى أن تكون ثمانية أبراج يرقى الى كل منها بسلم خارجى ، وفى وسط الأبراج مقاعد يستريح فيها الصاعد ، وفى الأعلى منها معبد وسرير كبير ، وبجانبه مائدة ذهبية . . الخ .

ويحيط بالمدينة سوران أحدهما ضمن الآخر ، ومحيطها ٤٢ ميلا ، وبعضها تشغله المبانى ، وبعضها أعد للزراعة حتى اذا حوصرت لا يسلم أهلها جوعا ، وكان ارتفاع اسوارها ٣٠٠ قدم وعرضها ٨٠ ، وعليها ٢٥٠ برجا ، ولها ١٠٠ باب ٢٥ من كل جانب لأنها كانت مربعة الشكل ، وكانت الطرق تمتد من هذه الابواب مستقيمة يقطع بعضها بعضا على زوايا قائمة ، وكان على جانبى النهر منها سور لمنع العدو من اقتحام المدينة بالسفن ، وفيه ابواب تفتح نهارا وتغلق ليلا ، وكان على النهر جسر « كبرى » عظيم وتحته سرب يوصل بين قسمى المدينة

وكان فى ناحية قصر الملك البستان المعلق ، وهو مرفوع فوق الأرض بقناطر يحمل بعضها بعضا . وهو فى شكل مربع ضلعه ٤٠٠ قدم وارتفاعه

٧٥ قدما ، وفى أعلاه الأشجار العظيمة ، قيل إن بختنصر أنشأه لزوجته تسلية لها عن بلادها الجبلية ؛ إذ لم يكن بسواد بابل جبال ولا تلال .

وقد عظمت بابل حين لقبت بها المملكة وأهلودا ، ومع ذلك فان آثارها قليلة لأنها كانت مبنية من الآجر النىء الذى لا يعمر كثيرا بل يكون ترابا بعد حين .

أخبارها الأولى .

تسلط عليها الآشوريون منذ تقووا واستقلوا ، ولكنهم لم يخضعوها إلا من ايام سرجون ، غير أن البابليين لم يغمضوا جفونهم عن ملكهم ، ولم يستنيموا للآشوريين أبدا ، إذ كانوا يخرجون عليهم باستمرار ، ولذلك تابع الآشريون غزوهم . وأول من استقل بها مردوخ بلادان فى نواحيها الجنوبية ، وقد حير الآشوريين أمره ، فلما تولى اسرحدون لم يول عليها بل باشر أمرها بنفسه ؛ فظلت خاضعة للآشوريين إلى أن كان واليها نبوبلسر

وقد علمنا ما كان من اتفاقه مع ملك عيلام ؛ ومهاجمته معه نينوى حتى سلمت ، فكان نصيبه بعد ذلك بابل وأكثر ما بين النهرين والجهات الغربية إلى حدود مصر ، وكان ذلك سنة ٦٢٥ ق م ، وبقى نبوبلسر إلى سنة ٦٠٤ ، ق . م وفى أيامه أغار نخاو ملك مصر على بلاده ووصل إلى كركميش على الفرات ، ولم يستردها ملك بابل إلا بعد ثلاث سنوات .

بختنصر :

وهو ابن نبوبلسر الذى حينما بلغ من الكبر عتيا ، ولم يستطع محاربة ملك مصر ، جهز بختنصر فسار بجيش إلى المغرب ، وأخذ كركميش ، واسترد سورية ، وبلغ حدود مصر ، ثم بلغه وهو هناك خبر أبيه ، فعاد ليتولى الملك

وأول حرب أثارها كانت فى سورية ، إذ خرجت عليه صور ، وأورشليم فخرج فى جيشه ، ولما أشرف على صور ، قسم جيشه قسمين : قسم يحاصر صور ، وقسم يهاجم أورشليم كان يقوده بنفسه فلما وصل اليها سلم اليه يهوياقيم ملك يهودا وتعهد له بالخراج ، فعزله وولى ابنه يهوياكين ولكنه لم يبقه كثيرا بل أخذه إلى بابل أسيرا ومعه جماعة من أعيان اليهود كرهائن ، وأقام عمه وهو صدقيا ملكا على مملكة أورشليم .

ولم يكتف بهذا . بل دخل المدينة المقدسة وانتهك حرمة البيت الكريم ، وانتهب خزائنه وخزائن قصر الملك ، وأخذ ١٠،٤٠٠٠ أسير من أعيان اليهود وذوى الحرف والصنائع ، ولم يترك فى بيت المقدس إلا الفقراء والمعوزين .

ثم إن صدقيا عميت بصيرته ، فخيل له أنه يستطيع الخروج عن طاعة ملك بابل ، فجاهر بالعصيان وامتنع عن دفع الخراج ، واتفق مع فرعون مصر وملوك المدن الفينيقيه .

عند ذلك غضب بختنصر ، وقاد بنفسه جيشا الى بيت المقدس ، ووضع عليها الحصار المحكم ، ثم توجه إلى محاربة ملك مصر الذى قدم مددا لصدقيا ، ففر ملك مصر من وجهه ، وبذلك عاد بختنصر إلى بلاد اليهود يفتح مدنها إلى أن وصل حاضرتها ، فضيق عليها الحصار ، ومكث اليهود داخل مدينتهم تسعة عشر شهرا ، حتى اشتد عليهم الجوع ، فساءت حالتهم ، واضطروا إلى تسليم مدينتهم ، واتفق أن صدقيا حاول الفرار إلى جهات الأردن ، فلحقه بعض جنود بابل فى سهل أريحا وأحضروه الى بختنصر ، فقتل أبناءه على مرأى منه ، ثم سمل عينيه وأخذه مكبلا بالحديد إلى بابل ، وبعد ذلك بقليل دخل أحد قواده المدينة المقدسة ودمرها عن آخرها ، ودمر قصر الملك والهيكل ، وذبح ستين من أعيان المدينة ، وأجلى بقية سكانها إلى بابل .

وأراد بختنصر الاستيلاء على بلاد فينيقية لعظم ثروتها ، وكانت مدينة صور حصينة جدا ، فوضع عليها الحصار ، وقاومه الصوريون ١٣ سنة ، وأخذها عنوة وفعل مع أهلها ما فعل مع أهل أورشليم من التعذيب ، وبسقوط صور أذعنت بالطاعة إلى بختنصر جميع المدن الفينيقية ، بل والمستعمرات الفينيقية الأفريقية ، والتى على سواحل بلاد الأندلس من الشرق

ثم شن الغارة على مصر ، ويقال إنه دخلها وقتل ملكها أو عزله وولى غيره ولكن ذلك لم يثبت .

ثم غزا جزيرة العرب ووصل إلى الحجاز واليمن وأجلى كثيرا من سكانهما إلى بابل وسخرهم فى إقامة مبانيه الكثيرة وأعمال الأصلاح التى أنشأها فى بلاده . وله خبر مع معد وأبيه عدنان سبقت الأشارة اليه

وكان له أخلاق حسان وأخرى ذميمة فكان واسع الحلم ، كما كان سريع الغضب ، يطرح من يخالفه فى النار ، ولا يقبل عذرا وكان متكبرا فخورا ، وقد جن فى آخر حياته فظن نفسه بهيمة ، وصار يرعى مع الأنعام ، وانقطع عن الناس ، ولزم البوادى نحو ٧ سنين ثم أفاق وعاد إلى تدبير المملكة ، ولكنه مات بعد قليل ، وبموته سقطت دولته ؛ لان خلفاءه كانوا ضعافا ؛ ولما تولى ابن بختنصر بعده قام عليه أحد الثوار فقتله ، وتوالت الاضطرابات فى الدولة البابلية ؛ واتفق أن كيروش ملك الفرس استولى على بلاد مادى ، وأراد إخضاع بلاد الغرب كلها إلى البحر ، فعلم ملك ليديا أنه يقصده لامحالة فاستنجد بملك بابل وملك مصر فأجاباه وأخذ ملك بابل يحصنها ، غير أن كيروش بعد أن فرغ من ليديا عاد إلى نواحى بابل فخرج اليه ملكها فانهزم وفر الى برسبا ، وعند ذلك حول كيروش مجرى الفرات فجف أو كاد وتمكنت جيوشه من الوصول إلى أبواب المدينة على جانبى النهر ليلا ، فاقتحموها ولم يمانعهم أحد ، وأصبحت بابل فى يد كيروش ، فأمر بهدم سورها الخارجى وخرج الى برسبا فسلم اليه ملك بابل ، ومن أجل ذلك استحياه وأقطعه ولاية من مملكته

والمعجب فى هذا الامر هو سرعة سقوط هذه الدولة ، مع نها بلغت فى مدة يسيرة درجة عظيمة ، والأسباب فى ذلك كثيرة نذكر أهمها وهو : —

١ — أن الدولة لم تقم على أساس متين يرجى معه أن تعمر طويلا .

٢ — أن الكلدانيين لم يكونوا من الامم الحربية التى تصبر على الجهاد ، وتقوى على الجلاد كما كان الاشوريون .

شىء من احوال البابليين : —

١ — العلم : حدث عن علوم البابليين ولا حرج ؛ فقد سبقوا العالم كله إلى علم الهيئة وتحروا فيه ما فات آباءهم الكلدانيين ، وعنهم أخذ الاغريق وغيرهم ، وكانت بلادهم ومدينتهم مناسبة لرصد كواكب السماء ، لأن الغالب عليها الصحو طول السنة ، وقد عرفوا السيارات وميزوها بأسمائها ، وعينوا الأبراج السماوية وسموها بيوت الشمس ، وعرفوا منازل القمر

وعينوا أوقات الخسوف والكسوف قبل حلولها ، ويقال إنهم صنعوا ما نسميه الآن التاسكوب ، واستعانوا به فى مراقبة نجوم السماء ، ومما بعثهم على ذلك اعتقاد كهنتهم أن الكواكب آلهة عظيمة تعمل عملها فى حياة الناس ومن هذا نشأ التنجيم عندهم ، فما يحدث فى السماء يتخذونه علامة على ما سيحدث فى الأرض

والسحر البابلى يضرب به المثل ، وكان دمدمة لطرد الارواح واستحضارها وهو من البقايا الطورانية ، ثم انتشر فى بلاد الروم فى آسيا وأوربا .

٢ ـ الصناعة : ولولا مبانى الآشوريين لذهبت أخبار الصناعة عند البابليين فان آثار البابليين الصناعية لا يعتد بها ، نعم إن منسوجاتهم كانت غاية فى الحسن والاتقان ، وقد اشتهرت فى بلاد مختلفة ، وتسابق الى شرائها ملوك أمم شتى ، أما مبانيهم فكانت غاية فى الاحكام ، وقد خالفوا أهل الارض عامة فى بناء الهياكل ، لانهم بنوها على هيئة الهرم المدرج ولم تك طبقاتهم فى الوسط بل كانت أقرب الى أحد الجانبين منها الى الآخر ، وكان لكل طبقة لون خاص ، وكان برج بابل سبع طبقات للسيارات السبعة ، فالسفلى سوداء وهى لزحل ، والتى تليها بيضاء للزهرة ، والتى بعدها أرجوانية للمشترى ، والرابعة زرقاء لعطارد ، والخامسة قرمزية للمريخ ، والتى تليها فضية للقمر ، والسابعة ذهبية للشمس .

٣ ـ التجارة : وكانت تجارتهم البرية والبحرية راقية جدا وقد وصلت سفنهم إلى الهند وحضرموت واليمن ، كما بلغت قوافلهم وادى نهر الكنج شرقا ، وفينيقة وبلاد الاغريق غربا ، واتجروا شمالا مع أرمينية .

وكانت متاجرهم غاليا فى المنسوجات الكتانية والصوفية الراقية جداً يستبد لونها بغلات الامم التى يتجرون معها .

٤ ـ الديانة : ولاتختلف ديانتهم عن ديانة آبائهم الكلدان الأقدمين فى شىء ، وظهر أن لغة كهنة بابل وعلمائها كانت غير لغة العامة ، وقد ظلوا يستعملون هذه اللغة الخاصة محافظة على العقائد والفرائض والعلوم ، وهكذا كان شأن كهان الأقدمين

الباب الثالث

تاريخ العبرانيين

مآخذ تاريخهم – يستمد تاريخ العبرانيين من هذه المصادر

(١) – أسفار التوراة (٢) تاريخ يوسفيوس القائد اليهودى المؤرخ (٣) – ما كتبه المؤلفون من العرب كالطبرى (٤) ما كتبه المؤرخون من الأوربيين فى العصر الحديث .

تاريخ هؤلاء القوم أظهر تواريخ الأمم السورية عامة ، لبقاء كتبهم المطولة متداولة يعرف الناس منها أحوالهم السياسية والدينية ، ولتاريخ العبرانيين أثره العظيم ، لعلاقته الدينية بسائر أمم الأرض تقريبا.

والعبرانيون هم الاسرائيليون فأما اسرائيل الذى ينسبون اليه ، فهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ، وأما عابر فهو الجد الاكبر لابراهيم وهو من بنى سام بن نوح كما هو معروف.

وقد رأيت أن أقسم تاريخ العبرانيين إلى المدد الآتية .

المدة الاولى

« من ظهور الخليل الى التعرب فى مصر »

يبتدىء المعروف من امر العبرانيين بظهور سيدنا ابراهيم ، وكان وطنه الأول اور الكلدانية ، وقد هاجر مع قومه صاعدين فى حوض الفرات (لجور الطوائف المختلفة على الساميين فى وطنهم الأول ، وقصته مع نمروذ معروفة) حتى وصلوا الى هار ان وهى حران ، ثم هاجروا إلى ارض كنعان واستولى الخليل فى طريقه على دمشق وصار ملكا على نواحيها ، ثم سار فى وادى الاردن ، ونزل شكيم وهى سيشام او نابلس من ارض كنعان ، وقد سبقه الكنعانيون من بنى حام الى هذه البلاد بنحو ٣٠٠ سنة ، ثم انتقل الى بيت ايل وعاى ثم الى حبرون ، واتفق أن قحطا أصاب هذه النواحى فى سنة ما فهاجر الخليل الى مصر ليمتار ، وعاد الى أرض كنعان ، ثم اتفق ان بعض ملوك كلدة اغار على جهات الشام الجنوبية ، واسر لوطا وهو ابن اخى ابراهيم فجد الخليل فى اثر هذا الملك وحاربه وانتصر عليه ، وخلص ابن اخيه ، واسترد ما كان قد اخذ من ماشيته ، مما يدل على ان ابراهيم كان فى قومه قائدا حربيا

وقد ولد له اسماعيل ، وقصته مع أمه « فى هجرتة إلى بلاد العرب وبناء الكعبة ، وإقامته هناك وأنه صار أبا القبائل الاسماعلية والعدنانية » معروفة.

وحدث على عهد الخليل أن مدن قوم لوط الخمس خسفت ، ونجى الله لوطا وآله من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، وقد جهلت موضع هذه المدن ، ولعلها كانت فى ناحية من نواحى البحر الميت ، لا فى موضعه برمته لأنه قديم جدا .

ثم إن الخليل أقام أخيرا فى جرار ، وهناك ولد له اسحق ، وبعد قليل مات ابراهيم ، ولم يمت اسمه ولا ذهب صيته ، لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب .

وولد لاسحق يعقوب أو اسرائيل فنزل شكيم أخيرا ، ولكن أبناءه اشتبكوا مع الكنعانيين فى حروب اضطر معها إلى النزول فى بيت ايل ، ثم هاجر الى حبرون .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، وهم الذين صاروا أصول الأسباط الأثنى عشر ، ومنهم يوسف عليه السلام الذى كان والده يحبه ويؤثره على أخوته بالاحترام والاكرام ، فحسدوه وأرادو قتله ، ثم أجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب ، فالتقطه بعض السيارة فباعوه بثمن بخس ، « وقال الذى اشتراه من مصر لأمرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ثم حصلت الفتنة بينه وبينها وظهرت حجته وبراءته ، « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » فلبث فى السجن بضع سنين ، ثم اطلقه الملك واستخلصه وجعله على خزائن الأرض فأدارها إدارة حكيم عليم

واتفق أنه حصل قحط فى الشام فاضطر اخوة يوسف الى قصد البلاد المصرية ليمتاروا طعاما « فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » وبعد جملة إختبارات ومحاورات بينهم وبينه عرفوه واستغفروه ، فقال « ائتونى بأهلكم اجمعين » فدخلوا مصر آمنين واتخذوها وطنا ، فتغيرت احوال حياتهم وتغير سياق تاريخهم ، وكأن بيع يوسف فى مصر قد جعل الاسرائيليين يهاجرون اليها دون غيرها ، ويتمكنون من الاحتفاظ بحياتهم وقوميتهم ، ولو ظلوا فى أرض كنعان لهلكوا أو لاختلطوا بقبائلهم هناك وفسدت عصبيتهم

ولما جاءوا الى مصر رحب بهم فرعون «ويظهر انه لم يك مصريا» وأنزلهم بوادى جاسان ، وهو فى مديرية الشرقية الآن ، ويسمى وادى الطميلات، فكان مناسبا للاسرائليين والمصريين جميعا ؛ فاما الاولون فانه مناسب لرعى ماشيتهم ولانفرادهم به ، وأما الآخرون فلأنهم أمنوا غزو الذين طالما هددوا مصر من جهة الشرق ؛ ومن أجل أن العبرانيين كانوا بادين واهل مصر من الحضر . ومن أجل ان أخلاقهم وعاداتهم وديانتهم تخالف ما كان عليه أهل مصر ، لم يكن بين الفريقين اختلاط ، بل ان المصريين كانوا يعتبرونهم أنجاسا ، وبذلك تم للعبرانيين فى غربتهم الاحتفاظ بقوميتهم وما يتعلق بها .

المدة الثانية

« إلى موت موسى عليه السلام »

وأقام الاسرائليون فى هذا الوادى نحو ٤٣٠ سنة ، فكثروا وصلحت حالهم ، وقوى عضدهم ، حتى صاروا كأنهم أمة ذات شوكة وعصبية قوية ، بلغ عدد رجالها الذين يستطيعون حمل السلاح ٦٠٠٫٠٠٠ ، وعلى طول الأيام تولى مصر من الملوك فرعون لا يعرف يوسف ، واستراب الاسرائيليين وخشى أن يمالئوا أعداءه ، وأراد إذلالهم فسخرهم فى الأعمال الشاقة ، واستخدمهم فى إقامة رمسيس وغيرها من المدن ، وذبح أبناءهم واستحيا نساءهم ، واستمر ذلك العسف فيهم نحو ٨٠ سنة ، حتى ارسل الله موسى عليه السلام ، الذى لم ينس أصله الاسرائيلى مع أنه تربى فى بيت الملك ، واتخذه فرعون وامرأته ولدا ، وتعلم علوم الفراعنة فى قصر الملك ، يتبين ذلك من مراجعة القسم الأول من سورة القصص . ولما ارسله الله الى فرعون وكان معه أخوه هرون ، وكان من حديث السحر والسحرة ما كان ، ثم أسرى بالاسرائيليين ، خرج بهم من رمسيس الى البحر الأحمر الذى ضربه بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وعبره بمن معه ، واتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وسار الاسرائيليون فى طور سيناء.

إلى الجنوب ، حتى وصلوا إلى الجبل جبل المناجاة ، وهنالك أنزل الله على موسى الشريعة ، « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » فبلغها إلى قومه ، لكنهم عبدوا العجل فى غيابه كما يفعل أهل مصر ، فأرشدهم الى عبادة الله تعالى ثم ارتحل بهم الى جهات جبل سعير ، ومن هنالك بعث البعوث أو الجواسيس الى أرض كنعان ؛ فعادوا يخوفون الاسرائيليين بأس الكنعانيين ، فجبن بنو اسرائيل وأبو أن يتقدموا فلما أمرهم بدخول الأرض المقدسة (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فحرمها الله عليهم وقضى عليهم بالتيه أربعين سنة ، فلما أحسو غضب الله أجابو وتقدموا فهزمهم العمالقة الكنعانيون ، وبعد حين غيروا وجهتهم ، وحاولوا دخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم من الشرق ، فنزلوا أيدوم ومؤاب وأرض العمونيين ، واستولوا على شرق الأردن من نهر أرنون الى جبل حرمون ، ومن هنالك أرسل موسى فريقا من الجيش الى محاربة عمالقة الحجاز وامره الا يستبقى أحدا منهم فانتصر هذا الجيش ، ولكنه لم ينفذ أوامر الكليم بحذافيرها ، فلما عاد وجد موسى قد مات بجبل نبو ، وقيل انه مات بطور سينا ومات أخوه هرون هنا أيضا . كما سبقت الاشارة الى ذلك فى يهود يثرب

المدة الثالثة

« إلى افتتاح كنعان »

ولما مات موسى قام يوشع برياسة بنى اسرائيل ، وكان موسى قد جعله خليفة فكان قائدا شجاعا ومحاربا مقتدرا ، فتح أرض كنعان على وعورة مسالكها وحصونها الطبيعية ، وكثرة أهلها وجبروتهم ومدنهم الحصينة ، والذين معه من بنى اسرائيل كانوا ٦٠٠٫٠٠٠ فقط لم يتعودوا الهجوم ولا ذلك الحصون ، قادهم يوشع وقطع بهم الأردن ، ونزلوا جريكو وهى أريحا ، وكانت حصونهم منيعة فحاصروها سبعة أيام حتى سقطت فى أيديهم ، وبهرهم

ماغنموه من الذهب والفضة والحديد والنحاس والمنسوجات الكتانية ، فتقووا وتشجعوا ، وطمعوا فى فتح بقية البلاد وهاجموا عاى ، وأرادوا جبعون فسلم أهلها بغير قتال فاستحيوهم ، وكان فتح هذه المدينة بمثابة تمهيد لفتح البلاد الغربية ، ثم حصلت موقعة أخرى فى بيت حورون انتصر فيها الاسرائيليون انتصارا باهراً ؛ فتجمع إليهم الكنعانيون ولكن الجيش الاسرائيلى أوقع بهم ، وشتت شملهم ؛ واستولى على البلاد عامة من الشمال إلى الجنوب ؛ وأخلد الكنعانيون إلى السكينة ، والتزموا الطاعة ، وكان يحكمهم نحو ٣٥ ملكا خضعوا جميعا ، وكان سبب انهزامهم وخضوعهم تفرق كلمتهم .

وبعد أن تم ليوشع فتح البلاد قسم الأرض بين الأسباط الأثنى عشر ، فتوطن منهم سبطان ونصف سبط شرقى الأردن ، وبقى الآخرون غربى الأردن ، أما سبط ليوى ، وهو الثالث عشر ، فكانوا بمثابة الكهان فلم يجعل لهم ناحيه معينة بل جعل لهم ١٠ ما يخرج من الأرض وثمانيا وأربعين قرية للاقامة بها ، ثم التفت يوشع إلى الاصلاح الداخلى فأنشأ المحاكم ، ونصب الحكام والقضاة ، وعين لكل قاض عمله ، ثم مات بعد أن أسس ملكا فى أرض كنعان للاسرائيليين خاصة كانت حاضرته الدينية سيلوه والسياسة شكيم .

المدة الرابعة

(عصر القضاة)

لم يك لبنى إسرائيل فى هذا العصر ملك واحد يجمع كلمتهم ، بل كان كل يعمل مايراه حسنا ، مستأنسا بشريعة موسى ؛ وكانت شريعة موسى مؤسسة على العدل والانصاف ، والرأفة بالناس والاحسان إليهم ، والتصدق عليهم ، وقد وضع لهم قوانين عادلة لاتزال موضع إجلال واحترام ، لمتانتها وملاءمتها ، ومنها ماقضى بأنه لايصح أن يكون بين اليهود طبقات العبيد والموالى ، ولا جماعة الحاكمين والمحكومين ، أى أنها كانت ضد الاسترقاق بحذافيره ، وعلى جميع درجاته ، ولما انقسم اليهود إلى أسباط تولى كل سبط أمر نفسه ، ولكن اتصالهم بالنسب والمجاورة جعلهم كأنهم ولايات متحدة ، أو جمهوريات

أو نحو ذلك ، لـكنها كانت منفصمة العرا ، فطمع فيهم أعداؤهم المحيطون بهم وضعفوا عن مدافعتهم ، وكانوا من وقت إلى آخر يقعون فى قبضتهم ، فيتقونهم بالجزية ، وكان ينقذهم من السقوط فى هوة الاسترقاق رجال منهم أولو قوة وأولو بأس شديد ، يقودونهم لمقاتلة الأعداء حتى إذا انتصروا عادوا كأفراد الشعب ، وهؤلاء قضاتهم أو حكامهم ، وما كانوا يرضون أن يلقبوا أو يتوجوا ملوكا ، وكان عددهم ١٤ قاضيا ، منهم أمرأة تسمى ديبوره ، وكانت تقضى بينهم تحت ظل نخلة فى جبل أفرايم ، وقادت الجيوش وانتصرت على الأعداء .

ومن أوائل هؤلاء القضاة وأشهرهم عثنيال ، وكان يسميه الجند سيف الله وهو الذى خلص قومه من استعباد أحد ملوك الجزيرة ، فظلوا مستقلين ٤٠ سنة ، ومنهم جدعون الذى خلصهم من المدينيين والعمالقة والقبائل الاخرى وطلب قومه أن يكون ملـكا فأبى ، وقال : « إنما الملك لله » وبقى قاضيا فيهم ٤٠ سنة ، ومنهم شمسون الجبار ، الذى حارب الفلسطينيين ٢٠ سـنة ، ولم يقدروا عليـه بعد أن قتل منهم خلقا كثيرا الا بحيلة دبرتهـا امرأة تسمى دليلة . ومنهم شمويل أو صمويل ، وهو بنى من أنبيائهم وهو الذى ظل يعظ قومه حتى التزموا دينه جل وعز ، وبعث فيهم الشجاعة الدينية ، وأغار بهم على الفلسطينيين فانتصر وغلب ، وأجبرهم على رد صندوق الشهـادة وكانوا قد سلبوه من اليهود ، وعاد فأحدث المدارس فى المدن ، ومجالس الوعظ فى القرى ، وأراد بنو إسرائيل أن يقيموا عليهم ملـكا فقالوا : « اجعل لنا ملـكا نقاتل فى سبيل الله » فبعد أخذ ورد قال لهم : « إن الله قد بعث لـكم طالوت ملـكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ، قال : إن الله اصطفاه عليـكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملـكه من يشاء ، والله واسع عليم » وباختيار طالوت انتهت مدة الاضطراب والفوضى ، وهى مدة القضاة .

المدة الخامسة

(مدة الملكية ١٠٩٥ — ٩٧٥ ق م)

لما تعين طالوت وهو شاول أنقذ البلاد من ذل الاستعباد للأمم المجاورة ورفعها إلى درجة العز والقوة التى ظلت مستمتعة بها ، إلى أن صارت على عهد سليمان فى مصاف الدول العظمى .

لم يك طالوت من بيت مجد ، ولم يك من الموسرين ، ولكنه كان شجاعا فتولى أولا كقائد مجاهد ، وترك الدين لصمويل ؛ وأراد أن يبرهن لليهود على أنه يستحق هذا المقام السامى ، فقادهم وحاصر العمونيين فى يابس جلعاد وكانوا قد أغاروا عليها ، فاستغاث أهلها بشاول والاسرائيليين فجمع لهم وأوقع بهم ، وشتت شملهم ، وبذلك انتصر عليهم انتصارا باهرا ، حبب فيه قومه فسلموا عليه بالملك ، ثم حارب الفلسطينيين والعمالقة وقهرهم جميعا ثم أراد أن يجمع السلطتين الدينية والسياسية فى يده فغضب صمويل ، وظهر فى ذلك الوقت داود عليه السلام واشتهر بالشجاعة والحزم ، ومنازلة جالوت أشهر شجعان الفلسطينيين وقتله إياه ، فجعله صمويل ملكا على اليهود سرا ، ثم مات طالوت .

داود عليه السلام — ١٠٥٥ — ١٠١٥ ق م

لما مات طالوت قام سبط يهودا ، وتوج داود ملكا ، فلم يرض سائر الأسباط وانحازوا إلى ابن طالوت ؛ ووكلوا إليه أمرهم ، فوقعت الحرب بين الفريقين عدة سنين ، حتى قتل ابن طالوت ، وبعد ذلك بسبعة أشهر حضر مشايخ بنى إسرائيل عند داود بمدينة حبرون ، وأطاعوه وأقروه ملكا على الأسباط جميعا ، وكان عمره حينئذ ٣٧ سنة .

وبعد أن تم له الأمر ، وكان محاربا ، فتح أورشليم قلعة اليبسيين ، وكانت تسمى يبس أو سالم ، واليبسيون من الكنعانيين ، ولكنهم أشجع قبائلهم ثم أغاروا على الفلسطينيين ، وهم قبائل مجتمعة على سواحل البحر بهيئة جمهورية

وكثيرا ما أغاروا على اليهود ، وفرضوا عليهم الجزية ، فقاتلهم داود وأخذ منهم بلادهم وقراهم ، ومنها جث ، ثم استلحم مع المؤابيين ، وضرب الخراج على الآراميين ، وأذل العماليق والأيدوميين ، وأخذ من هؤلاء قريتى أيلة وعصيون مع جابر ، وأحدث صلة تجارية بين بلاده وأقصى بلاد أفريقية وأوربا وآسيا لأنه صالح حيرام ملك صور ، فأعانه على التجارة البحرية ، وساعده على بناء ما أحدثه فى أورشليم التى أصبحت مركز الدين والسياسية معا ، وكانت أيام داود كلها أيام سعادة ورخاء وقوة ، وكانت مملكته تمتد من الفرات إلى خليج العقبة ، بل روى بعض المؤرخين أن نفوذه وصل إلى مرو وبلخ وأرض الترك والصين شرقا ، وإلى بلاد كرمان ومكران وفارس .

وقد عهد الملك من بعده إلى ابنه سليمان ، بعد أن أوصاه باقامة الهيكل لله تعالى ، وكانت وفاته بعد أن ملك ٤٠ سنة منها ٧ فى حبرون و٣٣ فى أورشليم ، ومزاميره من آيات البلاغة والحكمة والتشريع المتين .

سليمان عليه السلام — ١٠١٥ — ٩٧٥ ق . م

ولما مات داود كان الملك من نصيب ابنه سليمان الذى سخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون له عملا دون ذلك ، وقد بلغت الدولة على عهده أوج مجدها مع أنه لم يك محاربا كأبيه بل كان مسالما لأن أباه قد أخاف الأمم المجاورة وروعها ، فلم تجسر على عدائه ومهاجمة بلاده ، بل عظمه الملوك فزوجه ملك مصر ابنته ، ويظن أنه كان آخر ملوك الدولة الحادية والعشرين المصرية . وعاهده ملك صور وشاركه فى التجارة البحرية فاغتنى سليمان وباشر الأعمال العظيمة ، وشاد الأبنية الفخمة وأنشأ هيكلا بأورشليم لعبادة الله تعالى ، وسور حاضرة ملكه ، وأنشأ مدنا وقرى ، وكان يستخدم فى ذلك كله الكنعانيين والأمم الأخرى ، لأنه اختص العبرانيين بالجهاد وولاية الادارات العامة ، وقد قسم دولته إلى ١٢ عمالة وجعل على كل واحدة منها عاملا يجبى له خراجها ، ونظم الجند وكان عددهم ٦٠ ر ٠٠٠

ومن المدن التى بناها فى البادية تدمر ؛ جعلها محطا للقوافل بين الجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتد إلى الفرات شمالا ، وإلى خليج العقبة جنوبا .

أما الهيكل فقد يسر عليه القيام بانشائه ما كان من مصافاته ملك صور ومعاهدته إياه . فقد أرسل إليه العملة والأخشاب المطلوبة . فأقام يبنى فيه سبع سنين ونصفا ، وكان غاية فى الاحكام والزخرفة وكان داود قد بدأ فى بنائه ثم مات قبل أن يتمه ،فأقامه سليمان وبناه بناء لم ير الناس مثله ،وكان يضىء فى ظلمة الليل إضاءة السراج الزاهى من كثرة ما كان جعل فيه من الجوهر والذهب . ولما أتمه جمع القوم وأعلن أنه وقفه لعبادة الله تعالى ووضع تابوت العهد وصندوق الشهادة منه فى المكان الأعلى . وأولم وليمة إلى الناس جميعا وذبح من أجلها ٢٢٠٠٠ ثور ٢٢٠٠٠٠ شاة . وحرم التضحية فى غير الهيكل المقدس وجعل اليوم الذى فرغ فيه من الهيكل عيدا فى كل سنة . ولم يزل قائما حتى غزا بختنصر القدس وأخربها ونقض ذلك الهيكل وأخذ ما فيه من الذهب والفضة والجوهر ونقله الى العراق .

هذا وقد بعث سفنه مع سفن حيرام ملك صور الى أطراف البحر المتوسط وبلاد أسبانيا غربا ، فكانت أرباحه وفيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج والمنسوجات ، والحيوانات الغريبة . فاتسعت بذلك ثروته التى تتناسب مع ما أقام من المبانى ، وشاد من الصروح والهيا كل .

وهذا إلى ما جمع من نفوذ الكلمة ، وارتفاع الصيت ، والجاه والهيبة لا بين شعبه فحسب ، بل بين الأمم الأخرى . وقد وفد عليه الملوك من سائر الاقطار ، ومنهم بلقيس ملكة سبأ فتنازلت له عن ملكها ، وقالت أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . ثم مات.

وقام بالأمر بعده ابنه رحبعم فانتقل إلى شكيم ، وهنا لك طلب منه الاسباط أن يخفف عنهم ما فرض أبوه عليهم من الضرائب ، فأبى فاستدعوا يربعم بن نباط الذى فر من وجه سليمان إلى مصر ، هو من سبط أفرايم ،وأقاموه ملكا عليهم ، واجتمع اليه عشرة أسباط وتبع السبطان الباقيان وهما يهودا وبنيامين رحبعم . وبذلك انقسمت الدولة الى مملكتين سميت إحداهما مملكة إسرائيل أو الاسباط العشرة، وسميت مملكة السبطين يهوذا .

مملكة اسرائيل

٩٧٥ — ٧٢١ ق م

وهى مملكة الأسباط العشرة . لم يجبهم رحبعم إلى ماطلبوا فقال بعضهم لبعض مالنا ولآل داود وجعلوا يربعم ملكا عليهم سنة ٩٧٥ ق م وكانت مملكتهم تمتد من دمشق إلى ما يقرب من أرشليم ، وكان سكانها ضعف يهوذا غير أن الاسرائليين انتحلوا عبادة الأوثان ففسدوا ، وانقرض ملكهم قبل ملك السبطين بنحو ١٣٥ سنة ، وكان عدد ملوكها ١٦ قتل منهم ثمانية .

لما ملك يربعم أقام فى الملك ٢٠ سنة وكان سيء السيرة ، يتضح ذلك مما يأتى :

(١) منع إسرائيل من حج أورشليم ، وأقام فى بيت أيل جنوبا ، وفى دان عند منبع الأردن شمالا ، أى فى أطراف مملكته عبادة العجل تعلمها من مصر أيام إقامته بها فراراً من سليمان عليه السلام ، فكان من نتائج هذا الحادث أن الكهنة واللاويين فروا إلى يهوذا فزادت بهم قوتها واضطر يربعم إلى إقامة كهنة من رعاع القوم لخدمة العبادة التى انتحلها .

(٢) كان أول من استغاث بالأجانب فى الأمور الخارجية فقد التحمت الحرب بينه وبين يهوذا فاستعان بشيشنق ملك مصر ، ولكنه انكسر وهلك بعد أن ملك ٢٢ سنة.

وتولى بعده ملوك بعضهم من نسله ، وبعضهم من قواد جيشه ، وكانوا شرا منه ، غير أنهم اتخذوا مدينة السامرة حاضرة للدولة ، فظلت للاسرائليين إلى أن انقرض ملكهم ، وكانت الحاضرة من قبل ترشة وهى إلى الشرق من السامرة .

ومن هؤلاء أحوب الذى تزوج بنت ملك مصر « إيزابلا » فأدخل عبادة بعل « صنم الصوريين » فى بلاده ، وبنى له معبدا يناظر به بيت الله المقدس ، ولما تقلد ابنه يهورام الملك من بعده ، خروج عن طاعته من كان يدفع له الجزية ، فاستعان بملك يهوذا وملك أيدوم ، وغلب المؤابيين ،

ثم حصر راموث جلعاد ليستردها فجرح وعاد ، فاتفق أن رجلا اسمه ياهو علن نفسه ملكا على الأسرائيليين فى المعسكر ، فرضيه الجند ، فقام إلى يهوارم فقتله ، ثم قتل إيزابلا وأمر بها فداستها الخيل ؛ واستقصى بالقتل أولاد أحوب ، وجميع أهل دولته وقسس بعل . وهدم هيكله ، ومع ذلك لم يهتد إلى عبادة الملك الحق وعكف على عبادة العجول المتخذة من الذهب

ومنهم يربعم الثانى الذى أعاد إلى المملكة عظمتها وقوتها ، واسترد ما كانت قد فقدته من البلاد ؛ واستولى على البلدان الشرقية من حماة إلى بحيرة لوط ، وأخضع ملك حماة ودمشق ، لأنهما ضعفا من جراء الاغارات الاشورية ، وكان هذا آخر نجاح حصل عليه الاسرائيليون ، فان الملوك الذى جاؤا بعد يربعم عرضوا بلادهم لأشد الأخطار بانتهاكهم حرمات الله ، وإغفالهم شرائعه الحكيمة ، وعبادتهم الأصنام والكواكب . وخوضهم فى ظلمات الأوهام باعتقاد السحر وأخبار الكهان . ولذلك انحطت دولتهم ؛ فكان يتولى العرش من لايلبث الاشهرا أو أشهرا . ثم اضطروا إلى حماية أنفسهم بالجزية يقدمونها الى فول ملك بابل . ثم إن تجلتفلسر الثانى ملك الأشوريين أغار عليهم ، وملك بقاع الأردن الشرقية ، وبلاد نفتالى . وأجلى كثيرا من أهلها إلى العراق ، ولما تولى هوشع آخر ملوكهم ، أقام على سرير الملك ثمانى حجج يدفع فيها الجزية الى سلمناصر ، ثم أراد أن يخلص من هذا العار فاستعان بأحد ملوك الدولة الخامسة والعشرين المصرية ، فانقض سلمناصر على الاسرائليين وحاصر السامرة ، فقاومت مدة إلى أن فتحت فى عهد سرجون كما سلف ، وبسقوطها سقطت دولة اسرائيل سنة ٨٢١ ق م وقال سرجون فيما كتبه عن السامرة إنه أجلى ٢٧٢٨٠ من أهل البلاد ، وكان تجلتفلسر قد سبقه إلى مثل ذلك . فلم يبق الا الهاربون ، وأسكن ملك أشور بلاد السامرة قوما وثنيين من جهات مختلفة ، فطلبوا كاهنا يعلمهم ديانة الاسرائليين ففعل ، ولكنهم لم يتخلوا عن عبادة آلهتهم ، هؤلاء السامريون الذين لا يزال نسلهم إلى اليوم فى فلسطين لايتزوجون من غير نسبهم ، واليهود الآن يكرهونهم . وعددهم آخذ فى النقص ولابد من انقراضهم بعد حين.

مملكة يهوذا

كانت مملكة يهوذا أصغر من مملكة اسرائيل ، وأقل سكانا لأنها لم تك سوى سبطين فقط هما سبط يهودا وسبط بنيامين ، ولكنها كانت أغنى وأقوى ، وكانت أيضا أطول عمرا ، ويرجع السر فى ذلك كله إلى العوامل الآتية :

(١) أن أهلها لم يضلوا عن دين الملك الحق غالبا ، ولم ينتحلوا ما انتحله الاسرائيليون من الاشراك بالله ما لم ينزل به سلطانا ، بل نصروا الله باقامة دينه فنصرهم وثبت أقدامهم.

(٢) أن حاضرة يهوذا وهى أورشليم كانت أقوى من السامرة لحصانتها الطبعية ، وقد زاد فى قوتها هجرة أهل الرأى إليها من الكهنة ومن على شاكلتهم حينما أدخل يربعم عبادة الأوثان فى مملكة اسرائيل .

(٣) أن ملوك يهوذا من واحد معين هو نسل داود وسليمان غالبا فكانت عصبيتهم قوية ، أما الاسرائيليون فكان ملوكهم من عصبيات شتى إذ كان يثب على الملك أحيانا القواد ونحوهم .

من أجل ذلك لبثت يهوذا قائمة بعد سقوط اسرائيل نحو ١٣٤ سنة

وأول ملوكهم رحبعم ، ولم يك حكيما كأبيه ولا تقيا صالحا ، ولم يحتفظ بدين آبائه ، بل غير وبدل ، واتخذ الأصنام ، وأقامها على رءوس الجبال وتحت ظل الأشجار ، ولذلك سلط الله عليه شيشنق ملك مصر . فأغار على بلاده ودخل مدينته ، ونهب الهيكل ، وما فى خزائن الملك ، وأخذ دروع سليمان التى كانت محلاة بالذهب ، ولما تولى آسا ، وكان ملكا رشيدا محا الأصنام وأخلص لله الدين ، فتقدمت البلاد فى عهده وقويت ، فأعلن استقلالها عن مصر ، وغضب عليه فرعون من جراء ذلك وأراد إذلاله . فجرد عليه جيشا كان عدده ألف ألف ، فلم ترعه كثرة العدد ، وجمع جنده وانقض بهم على المصريين فى مريشه فأبادهم ، وعاد بالغنائم الوفيرة ، ولما رجع إلى أورشليم قدم القربان شكرا لله على نصره إياه ، وعاهد ملك سورية معاهدة دفاع ضد

ملك اسرائيل ، ثم مات بعد أن لبث فى الحكم ٤١ سنة .

وتولى بعد ابنه يهوشافاط ، فسار على سنن أبيه فى العناية بأمر الدين ثم جد ثانيا فى تنظيم الجيش وتقويته ؛ فنجح فى أموره وهابته القبائل من حوله ، وأدى اليه الفلسطينيون والعرب الجزية ، وعقد محالفة مع أحوب ملك اسرائيل ؛ وشاركه فى حصار راموث جلعاد ، غير أنه تزوج ابنة أحوب وهى عثليا بنت ايزابلا فجرت على يهوذا المصايب . فانها لما تولت ابتدأت أعمالها بقتل ذرية البيت المالك ولم تبق منهم الا من يسمى يواش ، وقد أخفته مرضعته وعمته ، زوجة الحبر الأعظم يهوياداغ . لكن أهل أورشليم لم يخضعوا اليها طوعا ، فأزالوا سلطانها بعد سبع سنين وفى السنة السابعة جمع الحبر الأعظم فى داخل الهيكل طوائف اللويين وقواد العبرانيين ، وأخبرهم بأمر يواش وأخذ عليهم العهد بمبايعته وحمايته ، فأجابوا ، وسمعت عثليا فأسرعت إلى قتله ، ولكن الكاهن أمر من بادر اليها فقتلها فلم تبلغ أمانيها ، وأمر بها فألقيت على الأرض وداستها الخيل ، وتوجوا يواش وكان عمره سبع سنين ، فكان وصيه الحبر الأعظم حتى بلغ أشده ، وباشر أمور الدولة بحزم وحسن سيرة حتى مات الكاهن ، ففسد ، إذ تسلط عليه بعض الأشرار من الرؤساء ، فانقاد إلى عبادة الأوثان ، وقتل ذكريا ابن يهوداغ ، ولم يراع فضل أبيه ولا حرمته الدينية ، ولذلك انتقم الله منه ، فسلط عليه جيش الآراميين فدخل أورشليم وافتتحها ، وأهلك أولئك الرؤساء ، وأخذ ذخائر الهيكل وأموال الملك ؛ وأصيب يواش بأمراض كثيرة ، ثم قتله عبيده بعد أن لبث فى الملك ٤٠ سنة ، ولما تولى أمصيا ابنه ـ وكان رجلا تقيا ـ نصره الله على الأويدميين ، فانه بعد أن قتل قتلة أبيه ، شهر الحرب على أيدوم ، وجمع جيشا جرارا من يهوذا وبنيامين ، واستأجر ١٠٠،٠٠٠ من اسرائيل ليكونوا عند حاجته اليهم ، ثم سار إلى أيدوم ونصر نصرا عزيزا ، ولكنه أتى فى عودته بآلهة بنى سعير وعبدها ولذلك وجد هؤلاء المستأجرين «لأنه لم يأخذهم معه» قد أغاروا على المدن اليهودية فحصل بينه وبين ملك اسرائيل حرب انهزم فيها أمصيا ودخل

الاسرائيليون أورشليم ودكوا أسوارها ونهبوها ، وأخذوا عددا من أهلها إلى السامرة رهائن ، وعزلوا أمصيا ثم إنه تمكن من استرداد ملكه ولكنه لم يحسن السيرة ، ففر إلى حيث قتل بعد ٢٩ سنة من ملكه .

وتولى بعد ابنه عزيا وكان تقيا فنجحت أموره ، وهزم العمونيين والفلسطينيين ، واسترد أيلة وحصنها ، وكان جيشه نحو ٣٠٠،٠٠٠ عنى بهم وبأسلحتهم واستخدم المجانيق لرمى الحجارة العظيمة ، وعنى بأمر الفلاحة وحفر الآبار فبلغت الدولة درجة من الثروة عالية ، فداخله الكبر واستولى عليه الغرور ، فأصابه الله بالبرص ، واضطر الى الاعتكاف حتى تغلب على الملك ولده يوثام ، فحصن أورشليم وجبال يهوذا ، ولكن تعدى حدود بلاده كل من ملك دمشق وملك اسرائيل فمات بعد ١٦ سنة ، وتولى بعده ابنه آحاز وكان شريرا وثنياً . هاجمه الملكان المذكوران وانتصرا عليه ، ثم هاجمه الآراميون من الشرق ، والفلسطينيون من الغرب ، والأيدوميون من الجنوب ، فاستغاث بتجتفلسر الثانى ملك آشور فأغاثه ، ولكنه كان كالمستشفى من داء بداء إذ لم يتمكن من دفع غائلة الآشوريين عن بلاده إلا ببذل نفائس الهيكل المقدس والاقرار بالطاعة .

ولما تولى حزقيا وكان من التقاة العظام ، اتبع شريعة الله وجد فى تطهير البلاد من جراثيم الوثنية . وأرسل رسلا الى بنى اسرائيل يرشدونهم الى الدين القويم وسحق حية النحاس التى زعموا أن موسى نصبها فى البادية ليستشفى الناس بها من لدغ الحيات ، فعبدوها . ولما فعل ذلك ظهرت شجاعته فالتف عليه القوم فأفلح . وقهر الفلسطينيين ودفعهم إلى غزة ، وحاول الاستقلال عن الاشوريين لأنه كان يدفع اليهم الجزية . فامتنع عن أدائها أولا ، واستعان بفرعون مصر فانقض عليه سنحاريب مرة أو مرتين ، فلما علم أن جنود مصر قادمة عليه توجه إلى حدود مصر وأدركهم الليل ، فلما أصبحوا تفشى الوباء فيهم كما سلف فولى الأشوريون الأدبار ، وحمى الله أهل مصر وأورشليم من غارتهم .

ولما تولى منشا ابنه أقام فى الملك خمساً وخمسين سنة وكان فاسقاً . عبد

الأصنام والكواكب ، وقتل النقاة الصالحين ، فسلط الله عليه أسرحدون فأغار على بلاده ، وأخذه أسيرا ثم أطلقه فأناب الى الله وعاد إلى بلاده ، وأراد أن يصلح ماأفسد ولكنه لم ينجح ومات وهو أطول الملوك عمرا في الملك وأخذت الدولة بعد موته في الهرم. حتى انه لما تولى يوذيا حاول الاصلاح فلم يستطع لأن الشر كان قد أخذ بمجامع القلوب إلى أن تولى يهوياقيم وظهر بختنصر فاسترد كل ما كان لمصر في سورية ؛ وأخذ أوشليم وعزل يهوياقيم ، ثم راجعه إلى الملك على أن يكون عبده. وأخذ عنده كثيراً من أولاد الأشراف وكان هذا هو السبي الأول ، ثم خان وخرج على ملك بابل ؛ فعاجله بختنصر وقتله وولى أخاه يهوياكين نحو ثلاثة أشهر ثم عزله وأخذه الى بابل : ومعه ١٠٠٠٠ أسير وهذا هو السبي الثاني . وولى صدقيا وهو آخر ملوك يهوذا فملك ١١ سنة حتى خربت المدينة وسقطت يهوذا على يديه . وبيان ذلك أنه أراد أن يخون ملك بابل مجاراة لما أراده ملوك الشام من الخيانة فاستعان بملك مصر فارسل بختنصر جيشا حاصر أورشليم مدة ؛ ثم انصرف عن حصارها ، ثم عادت جيوشه فحاصرتها ١٨ شهراً ، حتى ساءت أحوال أهلها ، ونفدت قوتهم ، وتمكن البابليون من نقب أسوار المدينة ، ودخلوها ليلا ، وهرب صدقيا كما سلف فأدرك وأرسل إلى بختنصر في جهات حماة ، فسمل عينيه وأخذه إلى بابل وقتله ، أما أورشليم فقد سقطت سنة ٥٨٦ ق م ؛ وهدم الجنود أسوارها وأحرقوها ، وأخذوا الباقين من أهلها إلى بابل ، وهذا هو السبي الثالث ، ولم يبقوا إلا رعاع القوم وقد كانت مدة السبي سبعين سنة (كما جاء في أسفار ارميا ودانيال) بعد خراب أورشليم ، وقد ولى بختنصر عليهم رجلا فقاتله أبناء يهوذا ثم فر بمن معه الى مصر خوفا من بختنصر ؛ فبقيت بلاد اليهود خرابا الى حين الرجوع من السبي بعد سقوط بابل ، وسماح كيروش للاسرائيليين بالعودة الى وطنهم فعادوا ، وبنوا هيكلهم لا على أنهم يهوذا واسرائيل كما كانوا ، بل على أنهم أمة اليهود ؛ وظلوا يحكمهم الفرس ، ثم الاسكندر وخلفاؤه من السلوقيين الذين اضطهدوهم أشد اضطهاد ؛ ثم الرومان الذين دخلوا أورشليم بقيادة بومبي سنة ٦٤ ق م وارتكبوا من الفظائع مالم ير اليهود مثله على كثرة ما انتابهم ، وكان

اليهود يثورون من وقت الى آخر على الروم ، حتى قاد اليهم القيصر طيطس نفسه جيشاً حاصر به مدينتهم وضربها بالمجانيق فتهدمت أسوارها ، ثم احرق هيكلها وأخذ نفائسه ، ومات من اليهود نحو مليون ثم حاولوا ان يجددوا ما خرب ، فهدمه الأمبراطور دريان وبذلك انقضى أمر اليهود وملكهم ، وتمزقوا شذر مذر ، وتقطعوا أيدى سبأ ، فكانوا فى العالم تحت كل كوكب ، وليس فى بقاع الأرض بقعة إلا وفيها منهم ، ولما قويت الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع الميلادى اضطهد اليهود فى البلاد المسيحية عامة ، وحرمت عليهم الوظائف الادارية ، وأكرهوا فى بعض المدن على ان يتخذوا لباسا خاصا ، وان يكونوا فى أحياء معينة ، وطالما نفوا وصودرت أموالهم ، وقد قطع دابرهم من اسبانيا وفرنسا وايطاليا وانجلترا ولم يبق بأوربا الا من كانوا بالبرتغال وألمانيا وبولونيا ، ثم من كانوا فى البلاد الاسلامية ، على ان سيدنا عمر كان قد أجلاهم من بلاد العرب تنفيذا لوصية الرسول عليه الصلاة والسلام .

واعلم أن أهمية تاريخ الاسرائيليين قليلة وان بنى اسرائيل كانوا فى التمدين والحضارة أقل من أكثر الأمم التى تجاورهم ، وربما كانت أهمية تاريخهم محصورة فى شىء واحد ، وهو محافظتهم على عقيدة التوحيد خالصة من شوائب الاشراك ازمانا طويلة ، ولا شك أن هذا من أقوى دعائم المدنية الحقة . على ان محافظتهم على دينهم وعلى لغتهم كانت من أهم العوامل التى قوت الروابط بينهم على تفرقهم ولم تنسهم على طول الأيام وطنهم وملكهم وهاهم أولاء يحاولون الآن استعادة ما كان لهم وإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

كلمات

(١) قبة العهد : — كان الكليم عليه السلام قد أنشأ لبنى اسرائيل وهم فى التيه هيكلا متنقلا للصلوات والقرابين . واستعان بذوى اليسار والمال منهم على عمله فأعانوه ، وصنع لهم خيمة أو مظلة أو قبة زخرفها من الظاهر والباطن بما اتفق له فى ذلك الوقت من المواد فكانت أشبه شىء بخيمة شيوخ العرب فى

البادية ، وكان باطنها من الخشب وظاهرها من الحرير الملون وكانت مستطيلة القاعدة وفيها ناحيتان .

(ا) المكان المقدس أو بيت الله او المحراب الحقيقى (ب) المكان الأقدس . فالاول كان يشتمل على (١) لوحة الفطيرة وهى من ذهب ويوضع عليها كل يوم سبت ١٢ فطيرة من غير خميرة تقدمها فرق اليهود لله قربانا (٢) مصباح (شمعدان) ذى سبع شعب وهو من ذهب أيضا (٣) محراب صغير من ذهب كانوا يحرقون فيه من أنواع الطيب والبخور . وقد أخذهما طيطس فيما اخذ من أسلاب بيت المقدس .

والثانى لم يك فيه الا صندوق الشهادة ، وهو الذى وضعت فيه صحف التوراة ، وكان يسمى صندوق العهد (أى العهد الذى كان بين الله وبين بنى اسرائيل على أن ينصروه باتباع دينه فينصرهم) او صندوق الشهادة ، وقد صنع من خشب لا يعتوره الفساد ، وكسى بصفائح الذهب .

وكان الأقدس لا يدخله الا الكليم أو الحبر الأعظم المعبر عنه عند اليهود بالحاخام ، وهو سيدنا هارون عليه السلام . اما ابناؤه فكانوا سدنة الهيكل يساعدهم أبناء لاوى .

(٢) العلوم : والعبرانيون أو الاسرائيليون بيت النبوة ومعدن الرسالة ، فلم يعنوا إلا بعلوم الشرائع ، وسير أنبيائهم وكان أحبارهم اعلم الناس بالكثير من ذلك ، وعنهم أخذ بعض الصحابة مثل عبدالله بن عباس ، وكعب الأحبار وعبد الله بن منبه .

ولهم حساب دقيق للسنوات الشمسية والقمرية ، وأيامهما وساعاتهما والظاهر ان هذا لم يك من طريقهم بل من طريق من استخدموهم لذلك من علماء البابليين والأشوريين وقل من عنى من اليهود بشىء من علوم الفلسفة ، ولما تفرقوا فى بلاد الله بالسبى البابلى ونحوه تعلموا شيئا من ذلك وألفوا فى العلوم التاريخية ومن علمائهم فى التاريخ يوسف أو يوسفوس المؤرخ اليهودى وكان من قادتهم وولاة بعض الأطراف فى دولتهم الأخيرة ولد باورشليم سنة ٣٨ بعد الميلاد . وأسره الروم سنة ٦٧ واخذه القيصر طيطس إلى رومية . وهناك الف كتابة

المعروف بالآثار اليهودية كتبه بالسريانية ثم باليونانية ،وله مؤلفات أخرى فى التاريخ نقلت كلها الى اللاتينية والفرنسية .

(٣) يوسفوس المؤرخ

وعلاقته بالروم

هو المؤرخ اليهودى المشهور ، الذى كان لهشأن عظيم فى تاريخ بلاده ، وتحقيق أمانى قومه .

ولد حوالى سنة ٣٨ ميلادية ، من أبوين شريفين ؛ وقد عرف بالفطنة والذكاء النادر ، فلم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى صار يستفتى فى الأمور الدينية والسياسية معاً .

وكان والى يهودا قد عاقب كهنة اليهود وقيدهم ، فذهب إلى رومية واتصل بيونيا زوجة القيصر نيرون ، فأطلقهم .

ولما رجع إلى بلاده وجد قومه يتحفزون للخروج على السلطة الرومانية فحذرهم وخوفهم بأس الروم ، فلم يطيعوه ، وسرعان ما أعلنوا العصيان ، وحملوا على القائد الرومانى وهزموه شر هزيمة ، ونادوا بيوسفوس واليا على مقاطعة الجليل .

ولما رأى من قومه ما رأى نزل على إرادتهم ؛ وتولى قيادتهم ، وأخذ فى جمع كلمتهم ، واختار من أعيانهم سبعين وكل إليهم القيام بالادارة والقضاء ، ثم شرع فى تحصين المدن وإنشاء الحصون ؛ لعلمه أن الرومان لابد أن يهاجموا اليهود ، ولقد حسده نفر من قومه فلم يلبث أن تغلب عليهم ونجا من شرهم .

وفيما هو قائم بالأمر خير قيام . جرد عليه نيرون جيشاً عليه أشهر قواده فسبسيان ، الذى سار بطريق الدردنيل إلى انطاكيه ، وأرسل إلى ابنه طيطس ، فجاءه بجند مصر ، وانضم إليه كثير من المرتزقة فيهم جمع من اليهود الذين لم يشتركوا فى الثورة ، فكان عدد الجميع نحو ستين ألفاً .

أحاط هذا الجيش بمدينة جشبانا ، وهى أمنع حصون الجليل ، وشدد

الحصار عليها ، حتى يموت أهلها جوعاً وعطشاً ، غير أن بعض يهودها انسل منها ، وأمعن فى قلب الجيش الرومى ، وأشعل النار فى ذخيرته فاحترقت ، ورمى بعضهم القائد فجرحه ؛ غير أن الروم تمكنوا من نقب سور المدينة ، ثم نصبوا السلالم ليتمكنوا من رمى أهلها بالنبل ؛ فأمر يوسفوس أن يرموا بالزيت المغلى ، فهلك بذلك عدد وفير من الروم ، ولم يتمكنوا مما أرادوا ، حتى جاءهم خائن لوطنه وقومه من اليهود ، فدلهم على ناحية يسهل دخول المدينة منها ، فقام بهذا الأمر طيطس ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ليلا وقتل الحراس ، وأعمل السيف فى الناس بغير شفقة ولا رحمة .

عند ذلك هرب يوسفوس فى شرذمة ، فدلت عليه امرأة ، فأرسل إليه فسبسيان قائداً من قواده ليؤمنه على حياته ، وكان صديقا قديما ليوسفوس ، فنصح إليه بالتسليم . فلم يسعه فى النهاية إلا أن يسلم ، فذكره من كانوا معه فى المهرب فنصح إليهم بالتسليم ، ففضلوا الموت بأيديهم على التسليم ، وفعلا قتل بعضهم بعضا بأيديهم حتى لا يكون ذلك بأيدى الروم وجىء بيوسفوس الى فسبسيان فقال له : « لو شئت قتلت نفسى بيدى ومت ميتة هؤلاء الأبطال ، ولكن الله يريد حياتى » ثم بشره بانه سيستولى على عرش الامبراطورية الرومانية وان ابنه طيطس يخلفه بعد مماته فأسرها فى نفسه ولم يبدها للجند ثم شرع فى الهجوم على بقية المدن اليهودية حتى وصل الى بيت المقدس وفى خلال حركته مات نيرون وتولى رجل من قواد الدولة لم يحسن سياسة الملك فخلع فاجمع رأى القواد الذى كانوا مع فسبسيان على المناداة به امبراطورا فلم يجد بدا من أن يستجيب لهم وهنا تذكر نبوة يوسفوس فزاده احتراما وإجلالا وذكر ذلك لرجاله وذكرهم أيضا بما كان من شجاعته وبأسه وتدبيره المحكم فاجمعوا أن تفك قيوده وأن تكسر تكسيرا وأن يكون موضع إجلالهم واحترامهم .

خراب بيت المقدس

وذهب فسبسيان إلى مقر ملكه ، وترك طيطس على الجيش فحاصر أورشليم وكان اهلها أحزابا فلما عاينوا الروم نزعوا مافى صدورهم من غل وأجمعوا أن يدافعوا عن مدينتهم إلى آخر قطره من دم آخر رجل منهم ، ثم التقى الجيشان واشتد القتال وأظهر الفريقان من الثبات والتضحية مالا يحيط به وصف ، ولما كانت كفة الروم هى الراجحة لكثرتهم وقوة عدتهم رأى القائد أن يطلبوا الأمان حقنا للدماء فوسط يوسفوس بينه وبينهم فظنوا ان الروم ضعفوا فاصروا على المقاومة الا قليلا منهم لاذوا بالروم فأمنوهم وشدد طيطس على المدينة ورماها وهدم أسوارها ودخلها ودمرها تدميرا بعد حصار دام ٤٧ يوما وأسرع رومى إلى الهيكل المقدس فأشعل فيه النار فاحترق ، وعز على طيطس ان تذهب هذه الآثار المقدسة طعمة للنار فسارع إلى قدس الاقداس ودخله والنار تلتهم تقائسه التهاما فأمر الجند أن يطفئوا النار فلم يستمعوا له فذهب الهيكل وقدس الأقداس معا وما كان فيهما من آنية وذخائر وأمتعة أدراج الرياح .

وقد قتل يوم أورشليم نحو مليون ومائتى ألف وأسر سبعة وتسعون ألفاً

وقد بالغ الروم فى التخريب حتى أتوا على هذه المدينة المقدسة من أساسها وخلوها تنعى من بناها .

وإلى خرابها هذا ينتهى تاريخ اليهود كأمة أو كشعب له وحدة سياسية فانهم بعد ذلك تفرقوا فى جميع بلاد الناس كما سلف .

أما يوسفوس فكثيرا ما كان اليهود يحاولون قتله على زعم أنه انضم الى الأعداء ولكن طيطس حافظ عليه باخلاص وطلب اليه ان يتخذ من غنائم المدنية مايشاء فأبى وطلب أن يطلق عدد من الأسرى وان يعطى بعض الكتب المقدسة فأجيب ، ولما عاد طيطس الى رومه صحبه معه فاستقبله الامبراطور احسن استقبال ومنحه الرعوية الرومانية وكان موضع عنايته وعناية ابنه من بعده إلى ان انتهت حياته .

الباب الرابع

تاريخ الحبشة القديم

يطلق اسم الحبشة أو أتيوبيا قديما على البلاد التى تلى مصر جنوبا ، وأتيوبيا كلمة اغريقية معناها الاجمالى الوجه الأسود ، والأتيوبيون عندهم ذو الوجوه السود من افريقيا وآسيا ، ولا تعرف حدود أتيوبيا إلا من ناحية مصر حيث يفصل بينهما الشلال الأول الذى عند أسوان .

ويظهر أن فرعا من بنى كوش ، كان يسكن بلاد العرب الجنوبية والغربية قطع البحر الأحمر مهاجرا لأمر ما إلى افريقيا ، فانحدر مع النيل حتى وصل منطقة الجنادل ، فلذلك سميت البلاد التى تلى مصر جنوبا ببلاد كوش .

ويظهر أيضا من أن المصريين أيام الدولة الثانية عشرة أقاموا قلاعا عند الشلال الثانى ، أن الكوشيين فى ذلك العصر عظم أمرهم حتى اتقاهم الفراعنة باقامة هذه القلاع ، ومازال الأتيوبيون يرتقون حتى ملكوا مصر بعد الدولة الرابعة والعشرين بقيادة سباكون ، ولبثوا فيها حوالى ٣٠ سنة ، ثم طرأ عليهم الأشوريون وتنازعوا معهم ملك مصر ، وانتزع أسرحدون هذه البلاد من يد طهراقة ، ورتب أمورها وغادرها فعاد إليها طهراقة ؛ ولكن أشور بانيبال كر عليها واستمر يحارب فيها ثلاث سنين حتى كادت البلاد تخرب ، ثم غادرها فاستبد الأحباش بالصعيد الى أن أخرجهم ابسامتيك الذى تكون منه ومن خلفائه الدولة السادسة والعشرون المصرية .

وللأتيوبيين آثار تشبه الآثار المصرية وعليها كتابات هيروغليفة جعلوها للزخرفة لا للتعبير عن الحوادث ، فان لهم لغة سامية الأصل كالعربية حافظ عليها كهنة الكنيسة الحبشية مدة طويلة ، وإن كان لا يعرفها الآن منهم إلا

القليل ، وبينها وبين العربية اتفاق من نواح واختلاف من أخرى ، وهى تختلف فى صور كتابتها وحروفها عن كل اللغات السامية المعروفة ، لكنها تشبه المسند الحميرى ، وتنحصر علومهم فيما يختص بأمور الكنيسة ، ولا يؤثر عنهم إلا القليل من الشعر الموزون وليس فيهم من يفهم أصول القافية .

ولما انتقل الأسيويون إلى الحبشة نقلوا معهم حضارة البلاد التى جاءوا منها ، على أن الهجرة الى الحبشة لم تك من بنى كوش فقط بل تبعتها هجرات من اليمنيين الساميين أى من العرب ، حتى انه ليقال إن الدولة الأكسومية التى قامت فى الحبشة كانت عربية وأن أول ملوكها ابن بلقيس من سيدنا سليمان عليه السلام وقد نسب غزو اليمن وفتحها الى أحد ملوك هذه الدولة :

وبيان ذلك إجمالا أنه لما ملك الرومان مصر كان البحر الأحمر طريق تجارتهم إلى بلاد المشرق ومنها إلى اليمن ، فلما ضعفت اليمن فى آخر أيام التبابعة باختلاف ملوكها إلى الترف ، طمع فيها الحبشان واحتلوا بعض ثغورها الجنوبية وحصل بينهم وبين اليمنيين من جراء ذلك حروب كانت سجالا .

وكان الروم يطمعون فى الحبشة فسعى قياصرتهم الى نشر المسيحية بها ونجحوا نجاحا تاما ، ويظهر أنهم حاولوا ذلك فى اليمن ونجحوا أيضا ولكن اليهودية كانت تزاحم النصرانية فى اليمن .

فلما تولى ذو نواس وكان يهوديا ، هاله سعى الروم الى ملك بلاده من طرف خفى وهو نشر المسيحية فيها أولا ، فأراد أن يقطع عليهم هذا الطريق فتعصب لليهودية ، وحمل عليها قبائل اليمن . وأراد أهل نجران عليها وكانوا نصارى فلم يقبلوا فحدد لهم الأخاديد وأحرق منهم عدداً وفيراً كما سلف ، وأفلت من يده رجل يقال له دوس ، فقيل إنه قصد قيصر أولا يستنصره وأراه الانجيل قد احترق بعضه بالنار فكتب الى النجاشى « بصفة قيصر رئيس النصرانية » يأمره بالانتقام لنصارى نجران فسير النجاشى جيشاً عدته ٧٠ الف مقاتل . وقيل إن دوسا قصد النجاشى أولا فاعتذر بقلة السفن فكتب إلى قيصر فارسل اليه السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة إلى اليمن وعليهم

أرياط ومعه أبرهه كما تقدم فدخل الأحباش اليمن وهزموا ذا نواس واستولوا على البلاد ، وضبطوها وأذلوا رجالاتها ، وهدموا حصونها وقراها ، ولما ولى أبرهة استبد بالعرب من أهل اليمن ، وتعدى على حرمهم ، وأراد أن يهدم بيت حجهم وقصد مكة لهذا الغرض ؛ فأهلكه الله ومن كان معه وتولى بعده ابنه يكسوم ، فاخوه مسروق بن أبرهة ؛ وأساء السيرة فى أهل اليمن حتى ظهر من بقايا التبابعة ملوك اليمن سيف بن ذى يزن ، فاستعان قيصر على الحبشان وطلب اليه أن يخرجهم ليحل محلهم ، فأبى معتذراً بان أهل الحبشة نصارى فرجع الى كسرى واستنصره فنصره بجيش وحرز الذى هزم الحبشان ، وملك على اليمن سيفا ، وهذا تتبع السود بالقتل حتى لم يبق منهم إلا من كانوا يسعون بين يديه بالحراب عبيداً وخدماً وهم الذين خلوا به وقتلوه فاضطر كسرى الى أن يجعل بلاد اليمن عمالة فارسية .

ولما ظهر الاسلام كانت الحبشة مهاجر المضطهدين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه فرارا بدينهم ، فكانوا ٨٣ رجلا . وبعد هجرة المصطفى إلى المدينة المنورة كتب كتابا إلى النجاشى « كما كتب إلى قيصر وغيره » فى شأن جعفر بن أبى طالب وغيره من المهاجرين الى الحبشة ، فكتب اليه النجاشى فى ضمن كتابه . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صدقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين ، ويقال إن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة فغرقت بهم ، ولما فتح المسلمون اليمن ومصر ، انقطعت أخبار الحبشة عن العالم مدة طويلة . لاتقل عن ألف سنة .

الباب الخامس

موجز تاريخ الفرس

نشأة هذه الأمة ونهوضها من عهد كيروش إلى عهد دارا الثالث

كانت مملكة الفرس قبل إغارة الاسكندر المقدونى أوسع الممالك ، إذ كانت تمتد من الهند والصين شرقا، إلى أوربا وافريقية غربا ، بل إنها ستولت على بعض بقاع أوربا ، كتراقية ومقدونية ، وبعض بلاد افريقية اكمعمر، وكانت مساحتها نحو مليونين من الأميال المربعة .

وفارستان «التى خرج منها ملوك الفرس العظام» هى البقعة الجبلية المشرفة على الخليج الفارسى جنوبى بلاد مادى ، ولا تزيد مساحتها على ٢٠٠ ألف ميل ، نصفها من الصحارى التى لاتنبت شيئا ، وما عدا ذلك أودية بين الجبال ، أو سواحل بحرية أى أنه لم يك ينتظر أن تخرج هذه البلاد شعباً قويا ولا رجالا عظماء يتسلطون على قسم كبير من المعمورة كما حصل ، نعم إن هذه البقعة من أجل أقطار البلاد الفارسية عامة ، تنبت القمح والشعير والأرز والقطن ، وقصب السكر ؛ كما أنها الموطن الأصلى للتين والرمان واللوز والخوخ ، والمشمش والبرقوق والعنب ، وفيها الكثير من أنوع الأزهار والرياحين ، وببلاد فارس عامة الأبل الجيدة التى يعتمد عليها فى الأسفار ونقل المتاجر ، هذا إلى ماتمتاز به أوبارها من الرقة والنعومة والطول ولذلك تتخذ منها المنسوجات الغالية ، والمعز فى الأقطار الشرقية من هذه البلاد أيضا معروف بشعرة الرقيق المتين .

وأشهر معادن الفرس الملح ، ويوجد فى كل مكان من صحاريها ؛ والبترول فى الجهات الجبلية ، والنحاس والياقوت والفيروزج واللازورد ذو اللون الأزرق الجميل .

وبلاد الفرس الحالية هضبة تحيط الجبال بها من جميع نواحيها ، فمن الشمال جبال البرز ، ومن الشرق جبال سليمان ، ومن الجنوب جبال مكران ومن الغرب جبال زغروس ؛ وتعرف هذه الهضبة بنجد إيران ، وهذه واطىء على بحر فارس ، وبحر العرب ، وبحر الخزر ، وفيها بحيرات ملحة تنصرف إليها بعض الأنهار التى لا تجد لها طريقاً إلى البحر ، ومن أنهارها أيام امتدادها القديم ، نهر أراس ، ونهر الكر ، وهما فى جبال قفقاسية ويصبان فى بحر الخزر ، ثم الأنهار التى تنحدر إلى دجلة ، ومنها نهر قارون ، ومن بحيراتها الجبلية أرمية .

هذا ، ويستمد تاريخ الفرس (١) من آثارهم المكتوبة التى عثر عليها وسنذكرها (٢) من التوراة . (٣) من أخبار هيرودوت وديودور . (٤) من أخبار زنفون الآتينى عن كيروش الأكبر وكيروش الأصغر (٥) من كتب المؤرخين من متأخرى الفرنج فى أخبار الفرس (٦) من كتب التاريخ العربية كابن جرير الطبرى ، وابن خلدون واليعقوبى .

أصل الفرس :- والفرس قبيل من الآريين بنى يافث وقد استدل بعض المؤرخين على أصلهم هذا بما بقى من بعض الكلمات اللغوية فعند مضاهاة لغات الناس لردها إلى أصولها ، ظهر أن لغة الهنود القديمة وهى السنسكريتية واللغة الايرانية القديمة المعروفة باسم الزند واللغات التى يتكلم بها أهل أوروبا الآن . من أصل واحد ولم تتغير صيغها إلا قليلا ، وان الآريين كانوا أولا فى بقعة واحدة هى بكتريا . واحوالهم فى المعيشة واحدة هى القيام على المائية وحرث الأرض وزرعها وصناعة بعض المعادن واتخاذ البيوت والمدن الثابتة ، وإنشاء الولاية والمملكة والدولة ، ثم تفرقوا إلى ما اختاروه وطناً من بقاع الأرض .

أخبارهم الأولى : وقد جرت العادة أن يذكر تاريخهم ، وتاريخ الماديين

فى باب واحد ، كما يذكر تاريخ الأشوريين والبابليين وأن اختلفت أنسابهم وذلك لأن مساكنهم متقاربة ، ولارتباط أخبار بعضهم ببعض ، ويظهر أن انسابهم متقاربة أيضا .

وأخبار الفرس وملوكهم القدامى لا يعلم منها إلا القليل ولم يكن لهم شأن يذكر قبل ظهور كيروش فقد عرف أنه ملك قبله خمسة من الملوك يقال إنهم كانوا خاضعين للماديين .

كيروش : يحكى أهل فارس فى أخبار هذا الملك أيام طفولته أمورا عجيبة لأنه هو الذى وسع سلطنتهم وأعزهم ، تتخلص فى أن أباه قمبيز قد تزوج بنت ملك مادى الذى رأى فى منامه ان ابن بنته يقتله فلما ولدت كيروش أراد أن يقتله ، فوكل ذلك إلى كبير من قواده ، وهذا عطف عليه وخلاه عند راع فى الفلاة . ثم إن ملك مادى عثر عليه فعرفه بسياه ، واستحياه متأولا فى رؤياه وضمه إلى أهل بيته ؛ ثم عاقب ذلك القائد بقتل ولده أمامه فعمل كيروش على أن يخرج على جده وعلى أن ينقذ فارس (بلد أبيه) من الأسر المادى ووعده أن يساعده بما يستطيع ، فعمل كيروش على إثارة فتنة بفارس فوجه الملك ذلك القائد لاطفائها فانهزم قصداً وقام الملك نفسه وأراد ان يدفع الجنود الفارسية إلى الجنوب فلم ينجح ووقع أسيراً فى قبضة الفرس وعند ذلك أعلن كيروش نفسه ملكا على البلاد المادية والجهات التى كانت تخضع لها .

غير أنه ظهر من الآثار التى كشفت حديثا أن كيروش كان ملكا على عيلام أولا لاملكا على الفرس ثم غلب على مادى وملك فارس ثم ملك بابل بدليل ماجاء فيما عثر عليه من كتاباته . « أنا كيروش ملك الجنود العظيم القدر ملك بابل وسومر وأكاد وملك المناطق الأربع بعد قمبيز العظيم ملك عيلام . » إلى آخر ماجاء فى كتابه .

وبعد أن أخضع فارس أخضع مملكة ليديا ، وكانت متعاهدة مع مادى ويسمى ملكها كريسس وكانت حاضرتها تسمى ساردیس وكانت أقوى ممالك آسيا الصغرى ، أخضعت مدن اليونان الساحلية ، ودخل فى حوزتها جميع

البلاد التى تقع إلى الغرب من نهر هاليس المعروف الآن باسم قزل أرمق وكان ملكها قد اغتر بغناه وسعة ملكه وانتصار جنده ، فأراد أن يحارب كيروش انتقاما لملك مادى من جهة ولأنه يخشى (وقد قوى كيروش أن يسطو على مملكته فسار بجنده ، واستعان جيرانه وطلب معونة مصر وبابل ، وقطع النهر قبل أن يقدم كيروش الذى سارع اليه وغزا بلاد كيليكية ، ثم التقى الجيشان وتقاتلا يوما كاملا كانت الحرب فيه سجالا : ولما رأى كريسس أن جند كيروش أقوى مجالدة وأكثر عددا أسرى بجنده ليلا من ميدان القتال إلى حاضرة بلاده ليستعد ، وبعث يطلب المدد من مصر وبابل واليونان ، وأخذ يجمع جنوداً من بلاده على مهل ، على زعم ان كيروش لا يخاطر بمتابعته وبخاصة لأن الفصل كان شتاء ، اما كيروش فقد خيب ظنه وفاجأ كريسس ، فلم يشعر إلا وهو يحاصر ساردة ، فأسرع بفرسانه وهاجم الفرس وكان لأهل ليديا معرفة تامة بركوب الخيل اما كيروش فقد جمع الأبل التى تحمل ذخائر عسكره وجعلها مقدمة لجيش المشاة فلما رأتها خيل الليديين ولا عادة لها برؤيتها نفرت وارتدت لا تلوى على شىء حتى اضطر ركبانها إلى النزول عن ظهورها وتركها وحاربوا مشاة فانهزموا واضطروا إلى الاعتصام بساردة ، وكانت أمنع من عقاب الجو : فهاجمها كيروش ولم يقدر عليها ، ثم ان بعض الجنود الفرس أبصر جنديا ليديا قد خرج من ناحية ممر سرى باسوار المدينة فدل قومه عليه فتسلقوا اسوار المدينة منه ودخلوها واعملوا السيف فى اهلها حتى أفنوهم وأسروا كريسس ، وكان كيروش يريد أن يحرقه ؛ ثم عرض له أن يحقن دمه ويستحييه . .

فتح المدن الاغريقية ـ ثم سار كيروش بجيشه لاخضاع المدن اليونانية ببلاد أيونيا من سواحل آسيا الصغرى غربا فاخضعهم مستعملا فى ذلك القائد المادى الذى حرضه على الخروج فى وجه جده .

وتطلع كيروش إلى الفتح شرقا فقام الجنود إلى هركانيا وبرثيا وبكتريا وغيرها فظل يحارب هناك نحو ١٤ سنة لكن اخبار هذه السنين كانت قليلة وقد فرغ منها سنة ٥٣٦ ق م .

وقد قدمنا أنه فتح بابل ، وقضى بذلك على ملك الساميين الذين ملكوا أحسن جهات آسيا الغربية قروناً طويلة ، وبعد فتح بابل عطف على أسرى اليهود الذين كانوا فيها (لأنهم أعانوه فيما يقال على فتح بابل) وأعادهم إلى بلادهم ، وأمرهم ببناء هيكل أورشليم فعادو بعد ٧٠ سنة من السبي الأول وكان إطلاقهم وإرجاعهم إلى وطنهم تدبيراً سياسياً محكماً، فان فينيقية لم تخضع بعد ، وكذلك مصر التي كانت تعين ملك ليديا على كيروش ، فلما رجع اليهود إلى فلسطين عرفوا لكيروش فضله ، فأقاموا كالحراس الأمناء على أطراف المملكة ، يدفعون عنها اعداءه بما استطاعوا ، ويسارعون اليه بأخبار ما عسى أن يحدث من الأخطار ، حتى يتدارك الأمر قبل أن يفوت الأوان ، وكان كيروش قد عزم على فتح فينيقية ومصر ، ولكن أجل ذلك حتى يفرغ من إخضاع المساجين الذين يقيمون شرق بحر الخزر ، وهم يأجوج ومأجوج ؛ فانتهز كيروش أن امرأة ملكتهم وشن الغارة عليهم ، وكان معه كريسس ملك ليديا ، ولما التقى الجيشان تبادلا النصر والهزيمة ، ثم إن الملكة جمعت ما أمكنها جمعه من العسكر وحملت على الجيش الفارسي فانهزم شر هزيمة . وقتل كيروش فى الميدان ، وبذلك ختم حياته المملوءة بالأعاجيب سنة ٥٢٩ ق م

أما الجند فقد عاد من عاد منهم بجثة الملك ، فدفنت فى قبر جادى ، وكان شجاعا بطلا قوى الارادة ، جريئا شديد البأس حاذقا ، يحب شعبه ويقسم عليهم الغنائم ، ويحسن إلى أعدائه ويميل إلى العفو والكرم ، وقد احترمه الفرس حيا وميتاً ووصفه الاغريق بالنبوغ والنبل ، والفضل ماشهدت به الأعداء .

قمبز ٥٢٩ — ٥٢٢ ق م . كان كيروش قد استخلف ابنه قمبز على الملك بعد موته وجعل لابنه سمرديس جملة ولايات ذات شأن . رجاء ألا يحصل بينهما خلاف فلما ملك قمبز عمل على قتل أخيه من حيث لا يشعر أحد أنه قتل ووكل ذلك إلى من وثق به ثم عمل على إصلاح ما فسد من جراء الهزيمة المنكرة المساجية ثم اتجهت رغبته إلى إعلان أنه يساوى والده فى

الغزو والفتح فتطلع أولا إلى مصر لثروتها النادرة من ناحية ، ولأنها عاهدت ليديا على فارس كما سلف ، واتفق أن أحد القواد اليونانيين المستأجرين فى الجيش المصرى فر واتصل بقمبيز ، فأطلعه على كثير من أحوال مصر ، وتحدى قمبيز فرعون مصر بأن طلب ابنته لتكون بين جواريه ، فأرسل إليه بنتا أخرى رجاء أن يتقى بها هجوم قمبيز ، فأخبرته البنت بحقيقة نسبها ، فاستشاط غضباً ، واتخذ له وسيلة يتحلل بها غزو مصر ، وأسرع بجنوده إلى الشام ، وفتح فينيقية وقبرس ليستعين بسفنهما على غزو مصر من البحر أيضا ، ثم عقد معاهدة مع قبائل البادية بين مصر والشام ، وظل فى هذا التدبير نحو أربع سنوات ، ثم قاد الجيش مطمئنا ، وكان فرعون مصر حينئذ أبسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية ، فلما علم بتحرك الجيش الفارسى ، قابله بالجيوش المصرية ، وفيها كثير من مرتزقة الاغريق المتحمسين الذين يتشوقون إلى الانتقام من ذلك القائد الخائن ، وقد جاءوا بأولاده فذبحوهم بين الصفين وهو ينظر إليهم ، على أنهم موتورون من الفرس ثم التحم الجيشان ، وكان قمبيز قد جعل فى مقدمة جيشه السنانير وغيرها من الحيوانات المقدسة لدى الفراعنة . فأما المصريون فقد أحجبوا عن تصويب سهامهم نحو العدو خشية أن تصيب تلك الحيوانات ، وأما مرتزقة اليونان فثبتوا أمام الجيش الفارسى وقاتلوا قتال الأبطال . ولكنهم كانوا من القلة بحيث يغلبهم الفرس الكثيروا العدد ، وكانت حومة الوغى حوالى بيلوز أو الفرما . وارتد الجيش المصرى إلى منف . ولما انتصر قمبيز أرسل رسلا إلى أهل مصر يسألونهم التسليم على شروط يتفقون معهم عليها ، فأوقعوا بالرسل وقطعوهم إربا إربا — فتضاعف سخط قمبيز وانقض على البلاد المصرية ، وأحاط جنوده بقلعة منف واستولوا عليها عنوة ، وقتلوا ابن أبسماتيك وكثيرا من الأسرى ، ثم اتبعوا المنهزمين وقبضوا على الملك فاستحياه قمبيز ثم قتله لأنه لم يخلص .

ولما سمعت القبائل سقوط منف أذعنت إلى طاعة قمبيز ، ومنها المدن الاغريقية فى كيرين . ثم لما تم له الأمر على مايجب ، ذهب إلى مدينة سايس

وهى صالحجر فنبش قبر الملك المصرى السابق وهو أمازيس ، ومثل به ومزقه وألقاه فى النار لأنه سبه أيام حياته وآذاه ؛ فأساء قمبيز بذلك الى العقائد الفارسية التى تجل النار « وهى أكرم صورة لآله الخير عندهم » عن أن تلقى فيها الرمم ، والى العقائد المصرية التى تستوجب الاحتفاظ بجثث الموتى ومع هذا فأن قمبيز عاد فسلك مع الأهالى طريقا حسنا وراعى مقتضيات الأحوال الدينية والعادات والأخلاق ؛ عطف على أعيان البلاد فولاهم ، و اتخذ له ألقاب الفراعنة وشاراتهم ، وحاول إن ينتسب إلى الأسرات الفرعونية القديمة وشرع يتعلم أصول الديانة المصرية ، كل ذلك فعله ليحبب أهل مصر فيه وفى قومه .

ثم طمع فى فتح قرطاجه و أمون وكوش فأما قرطاجة فانه لطول الطريق البرى إليها وخطره ، أراد أن يهاجمها بحرا . وأراد الفينيقيين على ذلك فأبوا بحجة أن أهلها إخوتهم ، وأما أمون فقد أرسل إليها جيشاً عدده ٥٠٫٠٠٠ فلم يعلم خبرهم بعد . ويظهر أنهم هلكوا فى زوبعة رملية ، وأما كوش فقد قاد اليها الجيش بنفسه مجتازا نهر مكترث بطول الطريق ، فانحرف عن شاطىء النيل وأوغل بجنوده فى صحراء كرسكو الرمليه المتسعة الخالية من الماء والشجر والنبات ؛ فنفذ مامعهم وجاعوا حتى أكل بعضهم بعضا ، واضطر قمبيز إلى العودة بالبقية الباقية حتى لايهلكوا جميعا .

ولما رجع الى منف وجد المصريين يقيمون مهرجانا للعجل أبيس وكان الكهنة كلما مات ثور عبدوه ، فتشوا عن خليفته ؛ لأن الآله بزعمهم كان ينتقل إلى عجل صغير ، لهم فيه علامات فاذا وجدوه فرحوا كثيرا وتقلوه إلى هيكل معبده باحتفال وابتهاج عام » ، فظن قمبيز أنهم يفعلون هذا شماتة به وتشفيا منه إذ لم يفلح فى شىء مما أراد ، فاستدعى كبار القوم وأعيان طوائفهم وسألهم فبينوا له سبب ابتهاجهم ، ولكنه لم يقتنع ، وأمر بقتلهم وطلب القسس والكهنة وأمر أن يضربوا بقضبان الحديد ، وأبطل سائر الشعائر الدينية المصرية ، وخرج عما ألفه القوم منه أولا ، من تعظيم آلهتهم واحترام طقوسهم الدينية .

وبينما هو على هذه الأحوال الجنونية بمصر إذ عرض له أن يعود إلى بلاده ففارق مصر ، ولما وصل إلى سورية ، بلغه أن فتنة عظيمة نشأت فى بلاد الفرس وأن سمرديس أخاه صار ملكا على البلاد فكاد يذهب عقله واستعد للسفر حالا إلى حاضرة ملكه. فهم بركوب حصانه على وجهه عنيف فجرحه سيفه جرحا بالغا كان سبب موته، فأمر بأن يحمل فى نعش فساروا به مسافة حتى غلب عليه تعب السفر وتقرح الجرح فهلك سنة ٥٥٢ فى قرية حقيرة بالشام . ولا بأس باجمال القول فى سبب هذه الفتنة.

إن قمبيز حينما أراد استمالة الماديين اليه. جعل للمجوس جاها عريضا فانتهزوا غيابه بمصر، وأرادوا أن يستولوا على الأمر، ويجعلوا مادى صاحبة السياده على فارس ، ويجعلوا للمجوسية الفضل على الزرادشتيه ديانة الفرس ، فقام رجلان من أبناء المجوس كان أحدهما مديراً للأملاك السلطانية بميديا وكان يعلم أن قمبيز قتل أخاه ، وكان للمدير أخ يدعى جوماتيس وهو أشبه الناس بسمرديس؛ فنصبه ملكا على أنه سمرديس إذ كان الناس لايعلمون موته بل يعتقدون حياته ، وبعث الرسل إلى الولايات والعسكر بمصر يطلبون الاعتراف من الآن فصاعدا بسلطة سمرديس بن كيروش ولما مات قمبيز ظن جوماتيس أن قدمه ثبتت على سرير الملك ، ولكن سره انكشف بعد قليل إذ أراد أن يذر الرماد فى عيون الناس، فاعلن انه يعفى كل من له ثلاث أطفال من الخراج والخدمه العسكرية ، وتزوج نساء قمبيز كالعادة المتبعة ، ثم أراد إلغاء ديانة الفرس ونشر المجوسية ، وساعده الماديون فى ذلك ؛ وهدموا الهياكل فشك الفرس فى أمره وتبينوا أنه لابد من أن يكون دعيا ، والا لحافظ على دينهم ، فاجتمع سبعة من رجالهم وفى مقدمتهم دارا ،وتشاوروا فى عزل هذا الدعى ، ثم أجمعوا أن يهاجموه فى قصره ويقتلوه ، ولما علم أهل أكباتان بقتله ساروا وجردوا سيوفهم على كل من لاقوه من المجوس،وكذلك فعل أكثر المدن ، ثم اجتمع هؤلاء النفر للمشاورة فى نوع الحكومة التي

يليق أن تقوم فى فارس إذ لم يجدوا أحدا من نسل كيروش ، فاستقر رأيهم على اقامة الملكية ، وعملوا القرعة على من يتولى الملك فكان من نصيب دارا

دارا بن هستاسب الأول «٥٢٢ — ٤٨٦ ق .م » كان هستاسب واليا

لجوماتيس وسمرديس الكاذب على فارستان ، وقد بقى فى هذه الوظيفة بعد تولى ابنه الملك ، وكان دار الأول هذا أعظم ملوك الفرس ، وقد سابق كيروش فى حروبه وفتحه فسبقه ، كما سبق غيره من ملوك الفرس فى حسن سياسته وفرط ذكائه وخبرته .

ولما مات ثارت الفتن كما هى العادة عند قيام دولة جديدة ، وكان بعضها قد نشأ على عهد سمرديس الكاذب ، وبعضها قام حينما تولى دارا ، وكذلك لبث ست سنوات يعالج أحوال البلاد الداخلية بحزم وثبات حتى أطفأها واستأصل شأفتها ، ولما صفاله الجو واطمأن ، شرع فى وجوه الاصلاح التى أرادها كما شرع فى الغزو والفتح ؛ وقد رأيت أن أدون أشهر أعماله على النحو الآتى .

(١) آثار بهستون وتتلخص فى أنه دون كيفية حصوله على الملك حين قام سمرديس الكاذب ، وكيفية إخضاعه العصاة والثائرين عليه فى نواحى البلاد ، على صخرة فى بهستون بثلاث لغات هى الفارسية ، والكلدانية ، والمادية ، وارتفاع هذه الصخرة ٤٥٦ مترا ، وعلى أحد جوانبها نقشت نقشا بارزا صور وعبارات ، فمن هذه الصور ملك جالس هادىء مهيب يقدم إليه الأسرى من أعدائه وهو يدوس بقدميه على جسمان رجل مغلوب ، فاما الملك فهو دارا ، وأما الرجل فهو جوماتيس أو سمرديس الكاذب ؛ وأما الأسرى فهم أعيان الثائرين فى نواحى البلاد وفى أعناقهم الأغلال .

وأما العبارات فهى قصه استيلائه على الملك وحوادث سلطته سنة ٥١٤ ق م . وقد ترجم إلى اللغات الأوروبية ، وأصبح مستندا رسميا يعتمد عليه فى أمور فارس ايام دارا ، وله أهمية أخرى ضاعت قيمتة ، إذ كان مفتاحا لحل

رموز الخط الكلدانى وهو السنانى ، وبحل هذا الرمز فتح ماأغلق من تاريخ الأشوريين والبابليين .

(٢) وقد قسم مملكته ٢٠ قسما كان الأغريق يسمون القسم استرابية ووالية استراب وهى بمثابة المديريات عندنا وكان الاستراب مسئولا أمام دارا وحده ، ثم جعل فى كل استرابية جيشا قائده مستقل عن الاستراب ، وجعل فى داره كاتبا ليسارع إلى دارا بكل مايحدث فى الاسترابية أولا فأولا فكان كل واحد من هؤلاء رقيبا على الآخر ، وبذلك صعب ارتكاب الخيانة ، وجعل الخراج على كل ولاية بحسب منزلتها من الخصب والجدب ، وضرب الدراهم والدنانير ؛ ومن مسكوكاته الدارك وهو من الذهب الخالص وقيمته نحو جنيه مصرى .

(٣) وقد مهد الطرق وأعدها للنقل وتسيير الجيوش وأقام البريد ؛ فجعل حاضرته مركز ، منه تبتدىء الطرق إلى جميع أطراف البلاد ، وجعلها منازل على مسافات معينة ، وفى هذه المنازل الرجل والخيل على أتم استعداد فكانت الرسائل تنقل بالسرعة المطلوبة ، وبذلك تمكن من كشف أسرار الولايات ، وتدارك ماعسى أن يحصل من الفتن قبل استفحالها ، وهو أول من استحدث الطرق التى من هذا النوع ، ولاشك أن تمهيدها على هذا النحو يساعد أيضا على نقل البضائع من جهة إلى جهة أخرى ، أى أن هذه الطرق كانت حربية وتجارية معا .

(٤) وجعل الجند فرقا فى كل ناحية فرقة ، فاذا أراد الغزو جمع من كل ناحية قسما حتى لاتخلو أى ولاية من حاميتها ، لافى أيام السلم ولا فى أيام الحرب ، ولما كانت البلاد واسعة الاطراف ، قيل إن جنوده بلغ عددها حوالى مليونين ، غير المتطوعة والمرتزقة ، وكان للفرس على عهده سفن حربية أى اسطول مؤلف من سفن الأمم الساحلية التى أخضعها كالفينيقيين واليونان ، وأهل كيليكية وقبرص ومصر . وكان الجيش المصرى من الفرس والمادين خاصة .

ومن أجل ذلك كله كان دارا مستعدا للغزو والفتح على ماسترى

(١) غزا بلاد الهند ، فقطع نهر السند ودخل بنجاب الحصيبة وضرب على أهلها الجزية فكانت ثلث دخل الدولة برمتها ، ثم أنشأ تجارة بين الهند وفارس بطريق البحر فنمت أيما نماء .

(٢) وغزا بلاد السيتيين الذين كانوا حول البحر الاسود شمالى نهر الدانوب . وكانوا من الأمم المتبربرة لاينامون عن الغزو والنهب ، شأن إخوانهم الذين يسكنون شرقى بحر الخزر من أوروبا ، وقد أشرنا إلى أنهم اكتسحوا آسيا الغربية وغاروا على بلاد الاشوريين عامة ، وكادوا يدخلون مصر ، ثم دخلوا آسيا الصغرى ، وقد جمع دارا إلى السيتيين جموعه وجيش جيشاً عدده ٦٠٠ الف مقاتل وقطع مجاز هلسبنت البسفور إلى تراقية فلم يقاومه أهلها ، ثم قطع الدانوب على جسر ضربه رعية دارا من اليونان ، وأوغل فى أرض السيتيين فارتدوا من وجهه يستدرجونه ، وجعلوا يخربون كل ماارتدوا عنه من المزارع والمراعى حتى يهلكوا جيشه من غير قتال ، ولما اقتحم الفرس عليهم ديارهم فلم يجدوا فيها زادا اضطروا إلى العودة بعد نحو شهرين ، وأفلت أحد السيتيين فجاء إلى حراس ذلك الجسر وطلب اليهم إزالته حتى يتحرر اليونان من استعباد الفرس فحال هسبيوس صاحب مليت دون ذلك ووافقه كثير من اليونان لما له من المنزلة فيهم فحافظوا على الجسر حتى عاد دارا بجيشه « ولولا ذلك لهلكوا جميعا » فملك تراقية ومقدونية بلد الاسكندر ، ثم عاد إلى ساردة فاقام فيها سنة وجاء إلى حاضرته سوس منصوراً بعد أن وسع حدود مملكته .

٣ — وغزا اليونان فى آسيا وأوروبا : وسبب ذلك أنه بعد سنتين عصت المدن اليونانية فى آسيا لأن دارا استدعى هستيوس وجعل على مليت صهره ارستاغرس فعمل هستيوس وهو فى حاضرة فارس على إيقاظ الفتنة فى أيونيا وحض ارستاغرس على ذلك فاجابه وبذلك عصت المدن اليونانية بآسيا سنة ٥٠٠ ق م واستنجد أهلها إخوانهم من يونان أوروبا وأرسلت أثينه ٢٠ سفينة

وأرسلت ارتيره خمس سفن ، وتولى ارستاغرس قيادة الثائرين وحاصر ساردة وهى مركز القوة الفارسية فى آسيا الصغرى واستولى عليها وأحرقها و لكنه قتل وهو عائد منها ؛ فتفرق جيشه ؛ غير أنه لما شاع خبر سقوط هذه المدينة عصى اليونان الذين لم يكونوا قد عصوا من قبل فعمت الثورة أيونيا ، و عصت تبرس ، ولكن الثائرين لم يك لهم قائد يجمعهم تحت ظل راية واحدة فانقض عليهم دار ، فاستبسل اليونان فى الحرب و لكنهم غلبوا ولو انتصروا لتحررت آسيا الصغرى برمتها من سلطان الفرس عليها ؛ وكان انتصار دارا على يونان آسيا سنة ٥٩٩ ق م .

ثم عمد إلى تأديب يونان أوروبا لانجادهم يونان آسيا فجهز صهره مردنيوس بجيش برى وآخر بحرى ، فما السفن البحرية فقد أصابها إعصار بجهات جبل أتوس فتحطمت وكانت نحو ٣٠٠ سفينه : وغرق من رجالها نحو ٢٩ ألف رجل .

وأما الجيش البرى فقد كاد يفنى لأن بعض القبائل هاجمته فى طريقه الذى سلكه وهو طريق تراقية ، ومع هذا لم يتقهقر دارا عن أعادة الكرة على اليونان ، بل جرد بعد سنتين جيشا آخر أوغل فى بلاد اليونان حتى وصل إلى مرثون بجوار آتينا وكان لليونان هناك مع الفرس يوم مشهود إذ انتصروا وانهزم الفرس وارتدوا خائبين ، أما دارا فلم يقعد به انهزام جيشه عن محاولة الكرة على اليونان ، فبينا هو يستعد إلى ذلك إذ خرجت عليه مصر ، فأخذ يستعد لتأديبها ، وكان ذلك أيام الأسرة السابعة والعشرين ، ولكن لم يبلغ أمانيه لا من مصر ولا من اليونان ، إذ حال بينه وبين ما أراد أجله فمات سنة ٤٨٦ فى سوس ، ودفن فى « برسبوليس » فى قبر أعده لنفسه فى حياته ، وكتب عليه كتابة طويلة ، ويعتبر من أهم الآثار وكذلك قصره فيها وفى سوس .

وكان دارا أعظم ملوك الفرس قوة وبطشاً وحزماً ودراية . ولذلك نجح فى أكثر أغراضه من الفتح والغزو وتسكين الفتن وتأديب العصاة ، وأعداد الجيوش وإنشاء الطرق الجيدة . ومما يذكر له :-

(١) إنه اتخذ سوس حاضرة ملكه بدل اكباتان التى اتخذها كل من كيروش وقمبيز مع أنها فى مادى التى دثرها الفرس باستيلائهم عليها. أما سوس فمتوسطة بين مادى و بابل : بل متوسطة بين المشرق والمغرب من أطراف الدولة وقد اتخذها حاضرة ثابتة إذ كانت اكباتان حاضرة وقتية .

(٢) وأنه كان يحرر أوا ره ووثائقه إلى كل قوم بلغتهم ، فكان يخطب اليونان باليونانية ،وأهل كيلاكية وسورية وفلسطين بالآرامية « الأرمنية» وأهل مصر بالهيروغليفية ، ويخاطب أهل نجد إيران عامة بثلاث لغات هى الفارسية والمادية والسنانية .

خلفاء دارا

ولما جلس خلفاء دارا من بعده وكانوا أقل منه خبرة وأصالة رأى ضعفت الدولة فى أيامهم على التوالى ولم يوقف سير الهرم فيها علاج الملوك ولا نظار الحكماء .

فلما تولى شيارس (زركسيس) التفت إلى اليونان لينفذ إرادة أبيه فى تاديبهم . ثم اتفق أنهم ثاروا فحرضه مردنيوس على محاربتهم فلبث ثلاث سنوات يستعد . وسار إلى سارده وهنالك كثرت جموعه فقادهم سنة ٠ ر: ق م وعبر الدردنيل وحفر قناة فى شبه جزيرة أتوس لئلا يصيب سفنه ماأصابها فيما سلف ولم يلق اليونان إلا عند ترموبيل إذ وقفوا على باب هذا الطريق الضيق فلم يطرقه بل سار من وراء الجبال المحيطة به وأحدق بهم وطوقهم وأفناهم ثم أوغل إلى أثينافدخلها وأحرقها أما جيشه البحرى فلم يفلح ولذلك سار إلى آسيا وترك مردنيوس فقتل مع جنده الذين كانوا نحو ٣٠٠ الف ولذلك طمع اليونان فى أملاك الفرس بآسيا . ولولا اختلافهم لكان لانتصارهم على الفرس أثر عظيم وعلى أن يونان آسيا عصوا كماعصت مصر ولو أنها عادت فاطاعته . ولما رأى شيارس أن الجيوش الفارسية كلت وإنه لاقبل له باطفاء هذه الفتن اعتزل الحرب وعكف على

على ملاذه ، وترك الامور بيد من استوزرهم فساءت الاحوال . ولذلك قام عليه رئيس حرسه وقتله سنة ٤٦٥ بعد أن لبث فى الحكم ٢٠ سنة . وكان شهوانيا سريع الغضب ، ضعيفا فى السياسة والحرب هائما على وجهه فى حب النساء حتى غلبنه على أمره وكان لزوجته كلة نافذة فى أمور الدولة.

ولما ملك ارطخششا الثانى اختلف مع اخيه كيروش على الملك وهم هذا بقتله غيلة. ولكن امره انكشف فشفعت فيه أمه فنجا من القتل وسار إلى ولايته بآسيا الصغرى وهو صاحب تجريدة العشرة الآلاف . وبيان ذلك أنه أخذ يستأجر الجنود من اليونان حتى اجتمع له عشرة الآف فسار بهم وبمن معه من جند الفرس ، وأراد ان يفاجىء أخاه ويقتله غيلة . ووعد الاغريق ومناهم فأطاعوا ودخلوا سورية من نفق آسوس ثم عبروا الفرات عند مدينة ثبسكس ولازموا هذا النهر حتى وصلوا إلى بابل، اما الملك فقد سار إلى أخيه بجيش بلغ عدده ٩٠٠،٠٠٠ مقاتل ولكنه انهزم وكاد الملك يخرج من يده لولا أن كيروش قتل فى المعركة فلم يجد الاغريق بعده سبيلا إلى موالاة الحرب، وهموا بالعودة إلى بلادهم فاراد الفرس افناءهم ، وارسلوا اليهم فى الصلح وأن يتولى ذلك قوادهم فلما وصلوا غدر بهم الفرس وقتلوهم فاضطر الجند إلى انتخاب قواد من بينهم وكان منهم زنفون الآثينى مؤرخ هذه الحرب ، وعادوا من طريق دجلة وارمينية والبحر الاسود إلى بيزنطة بعد ان قاسوا الشدائد فى اقتام الجبال وقد أدركهم بها فصل الشتاء

وبعد ، فهل رأيت أن الفرس ضعفت حتى اقتحمت عليهم بلادهم شرذمة قليلة من اليونان، وكادت تدخل حاضرتهم . على أنه كان من حسن حظ هذا الملك اختلاف اليونان الذى مكنه من الغاء المعاهدة المخزية التى عقدها معهم ارطخششا الاول، وصار اليونان يستعين بعضهم على بعض بالفرس حتى صار ملك الفرس يتدخل فى تصريف أمورهم، وكان لهم بمثابة الحكم فى المنازعات والفصل فى الخصومات وبذلك امتد عمر الدولة ونجت من هوة السقوط ومع ذلك فانه لم ينجح فى استرداد مصر التى خرجت على عهد سلفه ، بل أن مصر تقوت حتى هاجمت مستعمرات الفرس فى سورية .

ومن أسباب سوء الادارة على عهده استيلاء امه على إرادته . ولم يجرؤ على ردها ولا على مقاصتها ، وهى التى حرضت أخاه على اختلاس الملك منه . وهى التى تتبعت بالقتل كل من قاوم كيروش من أنصار الملك وبذلك صار النسل الملكى فى غاية الضعف والذل . وكان لارطخششا ثلاثة أولاد من زوجه ، ورابع غير شرعى ، فاختلفوا على الملك فى حياة أبيهم ، وقتل بعضهم بعضا ، ولم يبق الا أرطخششا الثالث الذى تعين للخلافة عن أبيه . أما هذا الأب فمات حزينا من جراء ما فعلوا بعد أن ملك ٤٦ سنة ، وكان عمره ٩٤ سنة

وقد استفتح أرطخششا الثالث أعماله بقتل أمراء الاسرة المالكة حتى يتخلص من مكايدهم وشرورهم ، ثم استقصى ما بقى من النسل الملكى حتى النساء . وبعد ذلك شرع فى اخضاع مصر التى عصت منذ ٥٠ سنة فاستغاث فرعونها نقطنبو باليونان فاغاثوه ، وبذلك انكسر الفرس ، وكانت هزيمتهم سببا لخروج فينيقية وقبرس وكثير من بقاع آسيا الصغرى ، ثم إن ارطخششا هذا استكثر من العدد والعدد ، وهاجم هؤلاء جميعاً وانتصر عليهم ودخل مصر وعاد ظافراً ، فألقى الرعب فى قلوب الخارجين عليه فانتعشت الدولة قليلا وتقوت ، وحسنت سياستها ، وكان الفضل فى كل ذلك لوزيره بغواس الخصى الذى يقال إنه قتله وقتل أولاده الا واحداً وكان بغواس مصريا ، ولما دخل ارطخششا منف قتل العجل أبيس فانتقم منه بغواس وأجلس ابنه الذى استبقاه ، فلما بلغ أشده وأراد أن يستقل بامور دولته قتله بغواس سنة ٣٣٦ ق م وهى السنة التى تبوأ فيها الاسكندر الملك وأقام بغواس دارا الثالث ، وكان من أفضل ملوك الفرس خلقا وعلما ، واستحقاقا للملك . ولكن سقوط دولته قد آن اوانه . فلكل أمة أجل ، وقد حاول أن ينهض بها فلم يستطع . وسبب ذلك

(١) شق الولاة عصا الطاعة واستخفافهم بأوامر الملك وقيادتهم الجند بغير استحقاق.

(٢) استقلال بعض الولايات فى آسيا الصغرى وسورية واتصال حكامها بملوك الاجانب من غير وساطة الحكومة الفارسية.

(٣) ماحصل من أن الاسكندر الأكبر عاجله بالهجوم على بلاده والانتصار على جيوشه « التى كانت من الكثرة بحيث لا تغلب ولكن ينقصها النظام والدربة

وخبرة القواد» فى وقائع كثيرة أشهرها ثلاث : وقعة نهر غرانيق بآسيا الصغرى وقعة أسوس بسورية : وقعة إربل شرقى دجلة . وبعد هذه الاخيرة دخل الاسكندر بابل. وفر دارا من وجه الاسكندر . وهذا تتبعه رجاء ان يدركه حيا فى بكتريا ولكن اصحاب دارا وقد علموا أنه لا بقاء لدولته عزلوه ولما علموا قرب الاسكندر قتلوه وادركه الاسكندر ميتا فدفنه بكل احترام . وبقتله زالت دولة الفرس القديمة بعد أن حكمت ٢٣٠ سنة ولكنها فى الجملة لم تؤسس على الحق والعدل. واعظم ملوكها كيروش الفاتح الكبير ودارا الاول السياسى الحكيم .

قيام الدولة البارثية

بلاد بارثيا القديمة قطعة من مملكة الفرس تمتد من الجنوب الشرقى لبحر الخزر الى مرقندا (سمرقند) وراء النهر ولما ملك الاسكندر بلاد الفرس . دان له اهل بارثيا واطاعوا خلفاءه من بعده الى سنة ٢٥٠ ق م . فى أيام انطيوخس الثانى ملك سورية الذى خرج عليه البارثيون حينما خرج أهل بكتريا واستقلوا .

وكان قائد ثورتهم رجل يسمى ارساكيس . وأصله من قبيلة سيتية رحلت إلى بارثيا قديما وامتزجت بأهلها ، ولما ملك ضبط أمر البارثيين . ورفع شأنهم وقادهم الى الحرب غازيا فاتحا . وقد عظم سلطانه وذاع صيته حتى أن ملوك بارثيا من بعده اتخذوا اسمه لقبا إلى الثلاثين ، وهو آخر ملوكهم ، ويظهر ان ارساكيس الأول مات قتيلا فى بعض حروبه ، وملك بعده ابنه فعظم شأنه ، إذا اتحد مع ابن ملك بكتريا وهزما سلوقس الثانى ملك سورية

ولما تولى ارساكيس الثالث . اقتفى أثر أبيه . فاغار على بلاد مادى ، ولكن أنطيوخس الثالث نازله وهزمه وتعقبه إلى بلاده . وافتتح هكتمبس حاضرة بلاده وطارده الى هركانيا . وملك بعده ملكان ضعيفان .

ثم تولى ارساكيس السادس واسمه متردات . فكان ملكا عظيم الشأن . وافتتح اعماله الخطيرة بفتح بكتريا وكان ملوكها اغريقيين من بقايا الاسكندر . وكانت لهم مكانة وهيبة ، ولكن متردات شن الغارة عليهم . وبعد موت

انطوخس الرابع اتجه الى الغرب ، فاخضع مادى وفارستان وبابل حتى وصل الى الفرات . ثم عاد فاستولى على بكتريا . وأزال هذه الدولة . فاستنجد اليونان إخوانهم من أهل سورية . فزحف إلى البارثيين ديمتريوس الثانى . فانتصر عليهم اولا ولكنه انهزم وأسر وحبس فلبث فى السجن عشر سنين . بذلك غلظ ماثر متردات ، واشتدت وطأته ، وملك من الفرات إلى جيحون فلم يزد خلفاؤه من بعده الا قليلا وكان يلقب نفسه بملك الملوك لانه أخضع ممالك كثيرة أقر ملوكها على ممالكهم بشرط أن يؤدوا اليه الجزية وأن يقدموا اليه الجند عند الحاجة .

ومن أجل إن هذا الملك كان عظيم الشأن اتخذ ملوك بارثيا من بعده متردات لقبا مع ارساكيس . وقد جعل للمملكة نظاما ودستورا اقضى بانه لا يصح للملك الاستبداد بتصريف الامور . فكان هنالك مجلسان للشورى يتألف أحدهما من أفراد الاسرة المالكة والآخر من الأشراف والأعيان وكان لهم حق انتخاب الملك بشرط أن يكون من الاسرة المالكة ، وكان على الملك أن يستشير فى الأمور ، ويعمل برأيهم ، ثم مات هذا الملك الدستورى بعد أن حكم ٣٨ سنة مهد الأمور فيها أحسن تمهيد ، فلم يكلف من جاء بعده وهو عمه مباشرة الحروب إلا قليلا ، ذلك أن انطيوخس السابع سار لتخليص ديمتريوس من الأسر بجيش عرمرم اضطر معه ملك البارثيين إلى إطلاق هذا الأسير ثم حصل بينه وبين السيتيين حروب قتل فيها .

وملك بعده متردات الثانى ، ويسمى الكبير لاعماله الكبيرة ، هزم السيتيين ثم هاجم أرمينية والزم ملكها أن يصالحه على شروط أملاها عليه واخذ ابنه رهنا ولبث متردات فى الملك ٣٥ سنة كان بينه وبين الرومان فيها ما يعرف بالمبادلة السورية فى المملكتين .

ثم اضطربت أحوال المملكة بعد موته وجهلت سياستها .

ولما ملك ارساكيس الرابع عشر وكان أول من بدأ الرومان بمحاربتهم من البارثيين لأن بمبيوس أنجد ملك أرمينية فى حرب كانت بينهم وبين البارثيين انتصروا فيها ، فرأى بمبيوس أنه لا طاقة له بمجاورة من يناظره فى المجد والقوة ، فأثار على بارثيا حروبا ، فارسل جيشا قتل قائده بين النهرين ،

وانهزم وولى الرومان الأدبار ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وخسر الرومان نحو ٣٠ الفا بين قتلى وأسرى ، ولذلك اغتر البارثيون ، وأرسلوا جيشا الى سورية لينتقم من الرومان ، فغزا سورية وكيليكية ، وظفر وغنم واتفق ان المنازعات قامت بين بمبيوس ويوليوس قيصر ، وأن قائدا رومانيا فر إلى أرساكيس وحرضه على مهاجمة أملاك رومة ففعل وأرسل ابنه ففتح أنطاكية وصيدا وعكا وأورشليم وغيرها ماعدا صور، وعمد إلى آسيا الصغرى فغزا كيليكية ومايليها غربا إلى أن وصل إلى جهات مليت ، ولبث هناك سنة ، فجمع الرومان جموعهم فاضطر البارثيون إلى إخلاء سورية ، ولم يعودوا إليها ، ثم قصد أنطنيوس بعد اتفاقه مع أكتفيوس تأديب البارثيين ، وقاد اليهم جيشا وعاهد ملك أرمينية عليهم ، وأوغل فى البلاد حتى وصل أطراف مادى ، ولكن ألارمن خذلوه فعاد خائبا ؛ وكان ذلك أيام أرساكيس الخامس عشر الذى بقيت أمور بارثيا بعده قليلة الاهمية نحو ١٠٠ سنة أى إلى أيام تراجان ، وفى هذه المدة لم تقع حرب بين بارثيا ورومة إلا أن كلا من الفريقين كان يتعرض لأمور أرمينية ، ويطلب التسلط عليها ، ولكن دسائس الرومان كانت قوية ؟ حتى تمكنوا ايام تراجان من تنصيب من يختارونه ملوك بارثيا ، وعزل من لايحبونه ، وقام ارساكيس السابع والعشرون فشن الغارة على ارمينية وملكها ، وغزا كيليكية وسورية ، فجرد عليه الرومان جيشا طرده ، وتتبعه الى طيسفون ، فطلب الصلح من الرومان على أن يتنازل لهم عما وراء الفرات غربا :

ولما مات أرساكيس الثامن والعشرون تنازع ابناه الملك ، فملك أحدهما بعد حروب ، ولم يعلم هل مات او قتل . ولكن يعلم ان الرومان مدوا ملكهم على عهده شرقى الفرات ، ولما ملك أرساكيس الثالثون حاربهم واسترد ما كان الرومان قد أخذوه شرقى الفرات ، وأصلح أمور دولته ، وتقوى واستعاد أيضا ارمينية ، ولكن الفرس الأكامرة قاموا أيام ارطخشيارش وانتصروا عليه ، واستولوا على مملكته وقتلوه ، فانقرض ملك البارثيين بغتة بعد أن لبث ٤٧٥ سنة

وكان البارثيون مولعين بالحرب والغزو ، وقد قلدوا الفرس الأولين فى

كثير من عاداتهم وأحوالهم ، فزخرفوا دورهم واترفوا كثيراً ، وكانوا يتنقلون حسب فصول السنة من بلد إلى أخرى يلتمسون طيب الهواء ، وكانت نقودهم على مثال نقود الاغريق فى صورة نقوشها وما كتب عليها .

﴿ متردات الاعظم وحروبه مع اليونان ﴾

متردات هذا هو الخامس من ملوك مملكة بنطس التى كانت جزءاً من مملكة دارا الاول ، وظلت كذلك الى سنه ٢٦٣ ق م حيث ثار اهلها واستقلت ، ولما هاجم الاسكندر الفرس لزمت هذه المملكة الحياد فتركها ، ولما مات وقام خلفاؤه من بعده حاربوها ، فكانت تطيع مرة وتعصى مرة إلى أن انتهى أمرها إلى الاستقلال التام .

فلما ملك متردات هذا كان اجداده قد مهدوا له أمر الملك وحالف أبوه الرومان أيام حروبهم فى قرطاجنة فاعطوه فرجيا جزاء هذه المحالفة وبذلك اتسعت المملكة كثيرا ، وكان متردات أعظم ملوك بنطس وأقواهم وأعلمهم وقد تعلم لغات كثيرة ، ووفدت إليه القبائل من كل جهة ، فكان يخاطب كل قبيلة بلغتها ولاشك أن هذا من حزم الملوك ، لان الاحاطة باللغات تساعد على التفاهم وكان منذ نعومة أظفاره مولعا بصيد الوحش فكان من جراء ذلك جريئا على الحروب لايبالى باهوالها ، وقيل انه كان يتناول كل يوم مقدارا معتدلا من السموم حتى ينجو من مكائد أعدائه إذا دسوها اليه .

شرع فى توسيع حدود مملكته ومدافعة الرومان عنها حينما رآهم جادين فى الاستيلاء على الامم ، فشن الغارة على النواحى الشرقية من ارمينية وغيرها من بلاد بحر بنطس ، وحالف السيتيين ليكونوا له عوناً عند الحاجة ، ثم انتهز فرصة الحروب الداخلية فى رومة وشن الغارات المتتالية على الرومان وكان أشهرها ثلاث .

الاولى : سنة ٨٨ ق م . إذ غزا كبدوكية وبثينية وفريجيا واشرف على حدود الرومان فى الاناصول ، ثم اقتحم الجبال والجهات الشمالية من ساردة وقتل النازلين بتلك الاطراف تحديا ، وفى السنة التى بعدها أعد الاساطيل لمنازلة بلاد اليونان فلم يفلح اذ أوغل الروم فى آسيا الصغرى وطردوه ثم

هزموه فى بثينية واضطر إلى طلب الصلح على أن يخلى كل فتوحاته ، وأن يدفع غرامة حربية وأن يسلم سبعين سفينة من اسطوله وكان ذلك سنة ٨٤ق م

الثانية : كانت هزيمته هذه سببا لخروج البلاد التى خضعت اليه فاراد أن يستعيدها ، فعاجله قائد الرومان بالأناضول فرفع الدعوة إلى رومة فأمرت قائدها بالكف عنه غير أن هذا القائد عصى الأمر فحاربه متردات وهزمه واستولى على كبدوكية واضطرت رومة إلى مصالحته على أن يتنازل عن كبدوكية ففعل وتفرغ حينئذ إلى العصاة فردهم إلى الطاعة

الثالثة سنة ٧٤ق م - اتفق أن ملك بثينية مات وأوصى للرومان فصمم متردات على أخذها لانها على تخوم مملكته ، وأنه لا يرغب فى جوار الرومان ، فأعلن الحرب وأظهر من الشجاعة والبأس والخبرة والصبر ما مكنه من الاستيلاء على بثينية بعد تسع سنين ، ثم أوغل حتى وصل السواحل الغربية ، ولكن انقض عليه بمبيوس فهزم جنده ، وحطم سفنه فلم ييأس إذ عاد إلى بلاده وجمع جيشا هزمه الرومان أيضا وفر هو إلى أرمينية فلاذ بملكها وسأله النجدة فلم يجبه ، أما الرومان فطلبوا إلى ملك أرمينيه أن يسلمه فأبى فحاربه الرومان واما متردات ففر خلال ذلك إلى بنطس وجمع جيشا هزم به الرومان مرتين وبهذه الوسيلة نجت أرمينية واستعاد هو كبدوكية غير ان بمبيوس كر عليه وهزمه ففر إلى النواحى الشمالية من بحر بنطس وملك الرومان مملكته برمتها لكنه لم ينم عن استرداد ملكه ، فالتمس وسيلة يهاجم بها الرومان من جبال الألب مباشرة وأراد ان يستعين على ذلك الامر الخطير بالسيتيين فمنعه خاصته من الاقدام على شىء من هذا . فلم يطق وأمر احد حراسه بقتله فقتله سنة ٦٣ ق م وبذلك فقد الرومان أكبر اعدائهم ، وأشدهم بأسا وأصبرهم على الحرب .

الدولة الساسانية

هذه الدولة من أعظم الدول فى الخليقة وأشدها قوة وهى إحدى الدولتين اللتين صبحهما الاسلام فى العالم وهما دوله الفرس الأكاسرة وهى هذه الساسانية ، ودوله الروم القياصرة.

أردشير بن بابك واستقلال الفرس

هو أول ملوك الفرس المتمجسة ومؤسس هذه الدولة العظيمة ، ولما بلغ سبع سنين جاء به جده الى بعض ملوك الطوائف فوكل هذا تربيته الى أحد عمال فارستان ، فلما بلغ اشده مات ذلك العامل فقام أردشير بأمر الولاية ، ثم ملكها وشرع يغزو ملوك الطوائف فامتنع عليه بعض كور فارس ففتحها ، ثم أطمعه انتصاره فى موالات الغزو ، ففتح بلاد الباوثيين شرقا ، ثم عاد الى جهات سوس ففتحها ، ولما ظهر أمره اجتمع عليه بابا ملك انباط الشام ، وأردوان ملك الاردوانيين وهم انباط السواد ، فكان يحاربانه على التناوب فاجتهد حتى وفق الى محالفة بابا ، فخلى بينه وبين أردوان فقتله واستولى على السواد ، ورجع الى أمر العرب ، وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة ، وهم التنوخيون ، فأنفت تضاعة من الخضوع اليه ، وخضع له الاحلاف والعباد كما سلف ، ودانوا له ، ثم والى الفتح شمالا وشرقا حتى دانت له بلاد كثيرة ، واستعاد الملك الذى كان لآبائه قبل ملوك الطوائف ، وجمع الفرس على ملك واحد ، واعاد ديانة زرادشت وقوى أمرها ، وكان وهو يحارب أردوان قد وقع على جارية من جواريه فحملت منه — فتنكر لها ودفعها إلى أحد مرازبته ليقتلها ، فاستحياها خفية ، فولدت غلاما قام بتربيته ، وهذبه وعلمه ، وبعد حين شكا أردشير الى هذا المرزبان قلة الولد ، والخوف على ملكه من الانقطاع فاخبره بحكاية الجارية وغلامها ففرح وأمره باستحضاره فرضيه وعقد له التاج ، ثم هلك أردشير بعد أن ملك ١٤ سنة وأوصى ابنه بالدين والجند

﴿ ديانة ارمزد وكتاب زندافستا ﴾

زرادشت - عبد الايرانيون اولا ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة، وبخاصه الشمس والرياح وغيرها ؛ إذ رأوا انها اظهر مظاهر الذات الالهية واقوى اثارها ثم بالغوا فى ذلك حتى عبدوها على انها ذوات إلهية أخرى ظلوا على ذلك حتى ظهر حكيم اسمه زرادشت وهو الذى حرفه اليونان الى زرواستر، واصل معناه « اشراق الذهب » قام هذا الرجل باصلاح دين الايرانيين بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد، وقيل إنه نشأ قبل ذلك بكثير فى نحو القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد.

الزندافستا. ولم يبق شىء مكتوب يؤثر عن زرادشت، ولكن تعاليمه المؤلفة بعده بزمن طويل قد بقيت فى الزندافستا أى الاصلاح أوالشريعة وهو كتاب الفرس المقدس، وبهذا الكتاب عرف زرادشت وعرفت قيمته وحكم على مبلغ نبوغه وسعة ادراكه. وقد اعتبرت شريعته أقوى ما يمكن أن يصل اليه العقل البشرى من غير وحى سماوى. وأقسام هذا الكتاب ثلاثة قسم أخبار الماضيين. وقسم فى حدثان المستقبل وقسم فى النواميس مثل « ان المشرق قبلة وان الصلوات فى الطلوع والزوال والغروب وأنها ذات سجدات ودعوات » وقد جدد لهم زرادشت بيوت النار وفسر كتابه تفسيرا جاء فيه بشىء كثير مما جاء به أنبياء بنى اسرائيل وأحبار النصارى من شدة الغضب على عبادة الاصنام والارواح الخبيثه، وقد ارتقى فيها ذهب اليه الى أن كاد يصل الى عقيدة وحدة الذات، ولكن قدمه زلت فى التعليل لاصل الشر فلم يجد مناصا من عقيدة التثنية أى أن الاله اثنان اله الخير وهو أرمزد وإله الشر وهو أهرمان فالأول هو الذى خلق الخلق والخير وهو الرحيم العاقل الحكيم أوروح القدس وأصل الخير، ويتصور عنده بالنور والشمس والنار ويقول أنه قائم بذاته أزلى لاأول له ولا آخر ويعتقد أن اله الشر له بالمرصاد فهو الذى خلق الشر الحسى والمعنوى. وهو الذى خلق الموت. وهو الروح الخبيثة أو أصل الشر ويقول أن اهرمان وان كان أزليا لاأول له سيأتى عليه

يوم يغلبه فيه اله الخير ويستحيل اله الشر الى العدم وتعود الخليقة الى الصفو ويذهب اهرمان الى حيث لايعود . وتسمى ديانه زرادشت بالديانة المزدية فالشمس والضياء والماء والزرع والشجر والطير كلها من خلق اله الخير، والليل والجفاف والبرد والفقر والنبات السام والشوك والوحش والحشرات الضارة والافاعى من خلق اله الشر . وعلى كل انسان أن يعبد اله الخير وينصره بالصدق والاخلاق الفاضلة وأحياء الارض الموت وايقاد النار لطرد الظلمة . وقتل الحشرات المؤذية والحيوانات الكاسرة كلها من أبواب نصر اله الخير . وكذلك الزواج المراد به كثرة النسل هو جهاد ضد الموت الذى خلقه اله الشر .

من هذا البيان الوجيز تتبين أن الديانة المزدية ترشد متبعيها الى العمل والفضيلة وتنهاهم عن الكسل والرذيلة .

وكانت صحف الزندافستا قد كتبت على اثنى عشر ألف جلد ثور . جمع بعضها الى بعض بأسلاك الذهب . وقد بقيت الى ان فتح المسلمون فارس فابادوها لاما احتفظ به بعض الاسرات الايرانيه الذين اخلصوا لزرادشت وما جاء به . ففروا الى الهند من وجه المسلمين وقد وجد عندهم سفر تام من الزندافستا

(سابور الاول وإصلاحاته)

ذلك الغلام الذى احتفظ به أحد المرازبة هو سابور الذى توجه أردشير قبل موته ملكا على الفرس فلما تولى افاض العطاء فى أهل الدولة وتخير العمال ومصر الامصار ثم شخص الى المشرق ومهد الامور هنالك وعاد ففتح مابين النهرين وحاصر انطاكية من بلاد الروم وأسر ملكها حتى افتدى نفسه منه بأموال عظيمة بعد أن حبسه طويلا . ويقال انه مات فى حبسه . وكان للروم حليف بتدمر تسميه العرب الضيزن . وكان من ملوك الطوائف وكان معه من قبائل قضاعة مالا يحصى فانتهز فرصة غياب سابور فى المشرق وعاث فى ارض السواد فلما عاد سابور أغار عليه وقتله هو ومن كان معه من قضاعة

وفى أيامه ظهر مانى الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة وأنها قديمان فاعلان للخير والشر . فاجابه سابور الى هذا المقالة وأخذ بها أهل مملكته فاجتمع اليه علماء فارس ليصدوه عنها فلم يفعل . ولبث على ذلك ومانى يكتب

كتبه بضع عشرة سنة . ثم أتاه الموبذان فقال له أن هذا يفسد عليك دينك. فاجمع بيني وبينه لاناظره . فجمع بينهما. ولما ظهرت حجة الموبذان رجع سابور عن الوثنية الى المجوسية . وهم بقتل مانى ففر إلى الهند حتى مات سابور وقام ابنه هرمز فابنه بهرام بن هرمز . فكتب تلاميذ مانى اليه بالعودة من الهند فعاد الى فارس. وظهر أمره وعرف موضعه فأحضره بهرام . وجمع بينه وبين الموبذان فحجه وعند ذلك أمر بهرام بحبس مانى . ثم سلخ حتى خرجت نفسه فقطع رأسه . وحشى جلده تبنا وصلب : وتتبع بهرام اتباعه فقتل منهم خلقا كثيرا .

والمانوية كالزرادشتية فى كثير من عقائدها وانما تختلف عنها فى أن الزرادشتية تدعو الى العمل وعمارة الارض وكثرة النسل . إما المانويه فانها تدعو الى الصوم وتحرم الزواج رجاء الخلاص من هذا العالم الذى هو شر كله على ان مانى مات وقد بقى مذهبه الى أن جاء الاسلام .

سابور الثانى .

هو ابن هرمز بن ترسى من ملوك الدولة الساسانية . مات أبوه ولا ولد له يرث الملك غير أن امرأته كانت حاملا لاشهر فامر فى حياته بالتاج فوضع على بطنها وتقدم الى عظماء فارس ألا يملكون عليهم أحدا حتى ينظروا ما يولد له. فان كان ذكرا سموه سابور واقروه على الملك ووكلوا به من يحضنه ويقوم بامر الملك الى إدراكه . وان كان انثى اختاروا رجلا لانفسهم من اهل بيته فملكوه عليهم فولدت المرأة سابور وهو المنبوز بذى الاكتاف فولوه . فشاع فى اطراف الارضين لما مات هرمز أن ليس فى ارض فارس ملك . وأنهم يلوذون بصبى فى مهده فطمعوا فى مملكة فارس فورد جمع عظيم من الاعراب ومن ناحية البحرين وكاظمة وشنوا الغارة بتلك النواحى وأتى بعض ملوك غسان فأغار على السودان فمكث الفرس حينا لا يمتنعون من عدو لوهى أمر الملك فلما ترعرع الغلام ظهر منه عتو وجبرية وحزم وتباشروا بما ظهر من فطنته ثم تجرد لضبط الملك ونفى العدو عنه . وبدأ باسقاط مجلس الوصاية . ثم صار الى العرب فى جهات الجنوب فقتلهم أخبث قتلة . وغور مياههم وكذلك فعل مع الغسانيين بالجزيرة والسواد فاقتحم عليهم الحصون وأسرهم . وكان يخلع

أكتاف الاسرى فلهذا سمى ذا الاكتاف . ولما انتصر على الغسانيين فى هذه النواحى غضب ملك الروم فجمع من كان بالشام من غسان وأقبل فيهم ومعه جيوش الروم حتى ورد العراق . ثم تقدم حتى وصل الى طيسفون فخرج سابور بجنوده من المدينة فدخلها ملك الروم « يوليان » ولم يقدر على قصر سابور لحصانته وقوة من فيه من الحماة ثم ثاب الناس الى سابور فزحف إلى جمع الروم فنحاهم عن المدينة وعسكر ببابها وراسل ملك الروم . وحناهم على ذلك اذ أصاب ملك الروم سهم عائر فقتله فسقط فى أيدى الروم لمكانهم الذى هم به واشراف عدوهم عليهم فاختاروا ابن عم الملك وتوجوه وكان بينه وبين سابور مودة . فلم يحارب سابور بل جعل له نصيبين وحيزها عوضا مما افسدت الروم من مملكته و نقل اليها عشرة آلف بيت من فارستان لان اهلها انتقلوا عنها ضنا بالنصرانية . وكان ذلك من اهم الاسباب التى جعلت سابور يضطهد النصارى فى بلاده بالقتل مرة وبالضرائب الثقيلة مرة أخرى . ولما أتت سابور اثنتان وسبعون سنة حضره الموت فجعل الامر من بعده لابنه

﴿ تاريخ الفرس من عهد سابور الى كسرى ﴾

وملك الفرس بعد سابور أبناؤه ثم أبناؤهم حتى كان منهم يزدجرد الاثيم وكان سيىء الخلق . لايتجاوز عن زلة وإن صغرت . ولا يكافىء على حسن بلاء ، كثير الشر ، قليل الخير ، ولكن وزراءه كانوا أخياراً متوافقين متعاونين فلما أتى عليه فى ملكه احدى وعشرون سنة . رمحه فرس فقتله وملك بعده ابنه بهرام جور . وكان ابوه قد دفعه إلى النعمان بن امرىء القيس أو المنذر ابنه كما سلف (راجع صفحة ٣٣ وما بعدها) فتولى تربيته فلما بلغ التأديب بعث اليه أبوه بمؤدبين من الفرس . وأحضره له مؤدبين من العرب فأحكم الأدبين و نشأ نشأة محمودة وبرع فى الادب والفروسية ولما مات يزدجرد كرهت الفرس أن تولى ابنا له لسوء مذهبه ، وقالوا : بهرام قد نشأ بارض العرب ولا علم له بالملك

واجمعوا ان يملكوا رجلا غيره . فسار بهرام فى العرب حتى أذعن الفرس اليه واعطوه الطاعة فوعدهم من نفسه خيرا وكتب الى الآفاق بذلك . وطمع فيه ملك الترك فسار اليه حتى قتله بيده . ثم خرج يوما يتصيد فامعن فى طلب

عير فذهبت به فرسه فى جوف مفض إلى غمر من الماء فارتطم فيه فغرق ولم يدرك فلما هلك ملكوا ابنه فهات وله ولدان تنازعا الملك واستعان أحدهما وهو فيروز على اخيه بملك الترك على أن يكون الحد الفاصل بين الترك والفرس نهر جيحون فأمده بثلاثين الف رجل حتى وثب على اخيه فملك مكانه وعفا عنه ؛ واتفق أن الناس قحطوا على عهده فساس الناس فى تلك الازمة سياسة لم يعطب فيها أحد جوعا ولما اخصبوا خان عهد ملك الترك وجند الجنود اليه فكتب اليه خاقان يسأله الرجوع ويعظم عليه ترك الوفاء فلم يقبل فحفر له خندقا عميقاً عمقه فى الارض عشرون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع . وبعد ما بين طرفيه : ثم عماه فلما قرب منه فيروز عبا عسكره واقتحمه فسقط وجميع جنده فى ذلك الخندق فهات واخذ ملك الترك أمواله « عاقبة البغى » ثم سار أحد القواد إلى ملك الترك بجيش فنال منه وتصالحا على ان يرد ملك الترك كل ما حواه من أسلاب فيروز ففعل

وملك بعده ابنه ثم أخوه قباذ بن فيروز . وكان قباذ عندما أفضى اليه الملك حدثا . فملك عليه أحد القواد حتى اذا بلغ العشرين أنف من ذلك وقتله وبعد عشر سنين ظهر رجل يقال له مزدك فدعا إلى ديانة المزدكية فمال قباذ اليها فغضب الفرس من ذلك غضباً شديداً وهموا بقتله فاعتذر فلم يقبلوا وخلعوه من الملك وحبسوه فاحتال حتى خرج الى ملك الهياطلة يستنجده فانجده « وأرض الهياطلة هى جهات ماوراء نهر جيحون التى فيها بخارى وسمرقند » على أن يتنازل له عن بقعة من املاكه فى تلك الاطراف فأمده بجيش وصل إلى طيسفون . فتلاومت العجم فيما بينها وقالوا ان قباذ تنصل الينا من شأن مزدك ورجع عما كنا اتهمناه به فلم نقبل ذلك منه وظلمناه حقه وأسأنا اليه . فخرجوا جميعا فاعتذروا وعفا عنهم وعن أخيه الذى ولوه مكانه ودخل قصر الملك . ثم وصل الجيش الذى اقبل به واجازه واحسن اليه ورده إلى بلاده.

ثم تجهز إلى الروم فغزا جهات منابع دجلة من أملاكهم. وأجلى أهلها وانزلهم فيما بين فارستان وسوس. اما اخباره مع المنذر بن ماء السماء والحرث بن عمرو ابن حجر فقد سلف بيانها (صفحة ٣٧)

وكان لقباذ عدة اولاد لم يك فيهم آثر عنده من كسرى فلما اتى للملك ثلاث واربعون سنة حضر قباذ الموت ففوض اليه واوصاه بأحسن الوصية وعرفه كل ما يحتاج اليه .

كسرى أنو شروان

ملك كسرى بعد ابيه. فكتب إلى اهل مملكته يذكرهم وفاة قباذ ويعدهم من نفسه خيرا. ويأمرهم بما لهم فيه الحظ. ويوعز اليهم فى الطاعة والمناصحة، وعفا عن قوم كانوا يتمحلون عليه. وقتل مزدك الذى كان امر الناس ان يتساووا فى النساء والاموال من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث. وتتبع اتباعه وغيرهم من المبدعين حتى افناهم وقدم اهل النبل والشرف. وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ملك الحيرة وسلطه على الحرث بن عمرو بن حجر كما سلف. ثم شرع فى وجوه الاصلاح على ماسترى.

(١) مسح أنوشروان البلاد. ووضع عليها الخراج والزم كل جريب من الغلات بقدر احتماله. فلم تزل تلك السنة جارية على ذلك والبلاد عامرة ثم أمر بان يجبى الخراج فى ثلاثة أنجم وجعل له ديوانا خاصا.

(٢) ثم قسم المملكة أربعة أرباع. وولى كل ربع رجلا من ثقاته فبلغ بكل من هؤلاء غاية الشرف. إذ نفذ سلطانه وانتظم أمره وانتشر عدله واطمأنت رعيته.

(٣) ونظم الجند. وجعل لهم ديوانا ارتضى له رجلا من أهل الحزم والعزم فامدهم بالسلاح وقواهم بكثرة المران حتى كانوا على استعداد تام لخوض ميادين القتال فى كل وقت.

(٤) رغب الناس فى الزواج ليكثر النسل. وكان يؤدى المهر لمن لايقدر عليه. وحض على العمل وعاقب الكسالى حتى لايكونوا عالة على غيرهم وحتى لايجعلوا كسلهم ذريعة الى السطو والسلب والفساد فى البلاد ثم عنى بطرق المواصلات وبذلك ارتقت البلاد على عهده كثيرا ونمت مواردها.

(٥) ولم يك فى ملوك العجم ملك كان أجمع لفنون الآداب والحكمة ولا اطلب للعلم منه، ولذلك كان يقرب كل اهل الآداب والحكمة، ويعرف لهم فضلهم. وكان اكبر علماء عصره بزرجمهر وكان من حكماء العجم وعقلائهم وكان كسرى يفضله على وزرائه وعلماء دهره.

والناظر الى هذه الوجوه يرى ان كسرى لم يغفل امراً او سبباً من اسباب اسعاد شعبه الاعالجه بمهارة وفطنة

أما حروبه فأهمها .

(١) الحرب مع الروم . وقد جرد الجيوش على الروم مرتين الاولى والروم مشتغلون بالحرب فى أوربا وأفريقية (مع قرطاجه) وقد استعان بالمنذر بن ماء السماء . فاضطر قيصر أن يصالح كسرى على الشروط التى ارتضاها . والثانية حينما رأى كسرى كثرة ما فتحه قيصر مما يختل به التوازن الدولى فاوعز الى المنذر أن يتحرش بالغسانيين وأن يوغز بجنوده فى سوريه ففعل وانتصر الروم للغسانيين فاتخذ كسرى ذلك ذريعة الى اعلان الحرب على قيصر وغزا بلاد الروم وغلب على مدن كثيرة من الجزيرة والشام . منها قنسرين والعواصم وحلب وانطاكية وحمص . ثم أوغل فى الاناضول . ولما تسامع أهل القسطنطينية خافوا واشاروا على قيصر ان يطلب الصلح على ما يمليه كسرى من الشروط ففعل وعاد كسرى ظافراً منصوراً فبنى مدينة بالعراق على مثال انطاكية وجاء بسبى هذه المدينة فاسكنهم فيها فلم ينكروا شيئا كأنها مدينتهم .

(٢) الحرب مع الحبشة فى اليمن : وسار سيف بن ذى يزن فاعلمه أن الحبشة قدمت بلاد اليمن وغلبت عليها وانه صار الى هرقل ملك الروم فلم يجد عنده مايحب . فبعث معه باهل السجون وعليهم وهرز القائد الشجاع المجرب فسار الى اليمن حتى قتل الحبشة وأفناهم وملك سيفا فقتله خدم من الحبشان فلما علم كسرى جرد جيشا الى اليمن وملكها فصارت مستعمرة فارسية الى ان صبح اهلها الاسلام كما سلف

هذا وكان انوشروان نبيلا كريما ظاهر العدل لايسأله انسان شيئا إلا تحرى اجابته . ولا نصحه احد إلا شكر له وكان يقول ما غلظ علينا احد فيما يريد به إقامة أودنا أو صلاح ملكنا . إلا احتملنا له غلظته كاحتمال الرجل شرب الدواء الكريه لمايرجو من منفعته وقد تفقد أول المملكة وتخير الولاة والعمال مقتديا بسيرة أردشير جده ؛ ولأربع وعشرين سنة من ملكه ولد عبدالله بن عبد المطلب . ولاثنتين وأربعين سنة من ملكه ولد رسول الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم ثم هلك كسرى لثمان وأربعين سنة من دولته

﴿ تاريخ الاكاسرة الي ظهور الاسلام ﴾

عقد كسرى انو شروان لابنه هرمز الملك وكتب له فى ذلك كتابا بالعهد وامره فيه بما يأمر به مثله . واوصاه احسن الوصايا . وامتحنه فوجده بحيث يجب . فلما ملك هرمز قرأ على الناس كتابا عاما يعد فيه بالعدل والانصاف والعفو والاحسان ، وكان ملكا متحريا لحسن السيرة مثابرا على استصلاح الرعية رحيما بالضعفاء شديدا على الاقوياء . وكان منصورا مظفرا لا يروم تناول شيء إلا ناله ، ولم يهزم له جيش قط ، وكان متنقلا لا يستقر بالمدائن ليتفقد احوال رعيته بنفسه .

ولكنه لاحدى عشرة من ملكه احاط به الاعداء من كل وجه واكتنفوه اكتناف الوتر سيتى القوس . وكان اغلظهم عليه شاهنشاة الترك فزحف اليه حتى دخل خراسان . وزحف ملك الخزر الى اذربيجان . ولكن ذلك لم يرعبه كثيرا ، اذ وقع اختياره على قائد يسمى بهرام فوجهه على راس اثنى عشر الفا فقتل من الترك عددا كثيرا وقتل ملكهم ، ثم وشى به بعض القوم واتهمه بحيازة الاموال دون هرمز ، فوقعت الحرب بينهما فاضطر الى ان يستنجد ملك الروم فوجه معه جيشا عظيما وزوجه ابنته وشرط عليه شروطا اذا تم له النصر فلما علم بهرام كتب الى وجوه اصحابه يعلمهم بسوء مذهب آل ساسان ويدعوهم الى نفسه . فوقعت الكتب فى يد كسرى ابرويز قبل أن تصل الى القوم ، فكتب الى بهرام كتابا غليظا وزحف اليه وحاربه وبرز اليه رومى شجاع فضربه بهرام بسيفه فقده نصفين ، ولكن بهرام فر لا يلوى على شيء متوجها الى ملك الترك ، وبذلك استقام الامر لابرويز فأرسل الى ملك الترك فى تسليم بهرام ، فلما وصل الرسول لم يجد عند خاقان ما يحب فتلطف بخاتون امرأة خاقان وأهدى اليها ، فسهلت عليه طريق اغتياله فدخل وفاجأه تحت ابطه فاراده ، وبذلك استقامت لابرايز اوموره ودانت له بلاده ، وله خبر مع النعمان بن المنذر « تقدم بسطه فى صفحة ٤٦ وما بعدها إلى وقعة ذى قار » ولما اشتد ملكه طغى وبغى وعتا وظلم وجار واخذ اموال الناس وسفك الدماء ، فمقته الناس وخلعوه وحبسوه وملكوا عليهم ابنه شيرويه ثم دسوا الى أبروز من قتله فى حبسه ، أما شيرويه فاستفتح عمله بقتل سبعة عشر من إخوته ، فلم يستقم ملكه ولم يصلح حاله . ولكن منيته عاجلته ، وملك

بعده ابنه أردشير وكان صغيراً فجعلوا عليه وصيا كره مكانه بعض قوادهم ، فاغضب الملك بالقوة ، ولكن القوم قتلوه ثم طلبوا من يولونه الملك . فلم يجدوا رجلا فولوا پوران بنت كسرى فأحسنت السيرة وبسطت العدل والاحسان ثم هلكت بعد سنة وأربعة أشهر ، وملكت أزرميدخت بنت كسري واستقام أمرها وطلب اليها أصبهذ خراسان أن يتزوجها فاحتالت حتي قتلته وكان ابنه رستم « الذى لقى سعد بن أبي وقاص بالقادسية » بخراسان فأقبل اليها وقتلها وما زال الفرس يولون من بيت واحدا فيقتلونه ثم آخر فيقتلونه وهكذا إلى أن ولوا يزدجرد ، وأمورهم مضطربة فلم يك له عندهم ما كان للاكاسرة من الاجلال ولكنه مع ذلك جمع اليه أطرافه واستجاش أقطار أرضه وولى أمرهم رستم وكان محنكا مجربا ، فسار نحو القادسية وبلغ ذلك جرير بن عبد الله البجلي والمثنى بن حارثة الشيباني فكتبا إلى سيدنا عمر . فندب الناس فاجتمع له نحو عشرين الف رجل ، فولى أمرهم سعد بن أبي وقاص فسار سعد بالجيوش حتى وافى القادسية فضم اليه من كان هناك ، وأخذ يبعث الطلائع لتأتيه بأخبار الفرس ، ثم زحف رستم حتى وافي القادسية فعسكر على ميل من معسكر المسلمين وجرت الرسل بينه وبين سعد شهرا ، ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض وقد صفت العجم ١٣ صفا بعضها خلف بعض ، وصفت العرب ثلاثة صفوف ، ثم التحم القتال ، وحمت بجيلة والازد وثار القتام واشتد الضراب والطعان فانهزمت العجم حتى لحقوا برستم ، فترجل وترجل أساورته ومرازبته وعظماء الفرس وحملوا على المسلمين فحمل المسلمون عليهم من كل وجه فانتقضت تعبئة الفرس وقتل رستم وولت العجم هاربة وطلب رستم فى المعركة فاصيب بين القتلى وبه ١٠٠ جرح ما بين طعنة وضربة ولم يدر من قتله ، ولما بلغ يزدجر أمر الهزيمة وجه جيشا آخر مع من يدعى التحارخان وكان سميناً جسيما فرمى بنفسه على زهير ابن سليم الازدى فصرعه وجلس على صدره واستل خنجره ليذبحه . فوقعت ابهام التحارخان فى فم زهير فمضغها . فاسترخى التحارخان وانقلب عليه زهير وأخذ خنجره فبعجه وقتله وكان برذون التحارخان مدربا فلم يبرح . فركبه زهير وقد سلبه سواريه ودرعه وقباءه ومنطقته فأتى به سعداً فأغنمه إياه ، وأمره

أن يتزيا بزيه ففعل . فكان زهير أول من لبث من العرب السوارين

وبعد ذلك صار المسلمون الى المدائن فانهزمت الفرس أيضاً وهرب يزدجرد نحو خراسان ودخل طاحونة فقتله صاحبها وأخذ سلبه وألقاه فى النهر ، وذلك فى خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وبذلك دالت دولة الفرس وكانت غنيمة للمسلمين

شيء من أحوال الفرس

الدولة رأينا أن دولة الفرس اتسعت فضمت الى سلطانها ممالك وأمما شتى من الهنود والفرس والمادبين والاشوريين والبابليين والسوريين واليهود والعرب والمصريين والاغريق والفينيقيين وغيرهم حتى صارت مملكتهم لا نظير لها فى الاتساع

الملك : لم يك فى العالم أغنى ولا أقدر من ملك الفرس . وكان الاغريق يطلقون عليه اسم السلطان الأعظم أو ملك الفرس (شاهنشاه) ، والغالب أن حكمه كان استبداديا ، وان كان دارا الاول جعله دستوريا ، وكان من أثر هذا الحكم أن الملك عمل على ايجاد الأمن العام داخلا بأن كف بعض القوم عن بعض ومحا أسباب الثورات الداخلية . كما أنه تمكن بوساطة الجندية وتقويتها وتنظيمها من الاستيلاء على البقاع المختلفة وضبط أمور أهلها على اختلاف اجناسهم وأنسابهم ولغاتهم ودينهم

الفنون والعلوم وعلومهم لا تستحق الذكر وقد حذا الفرس حذو الاشوريين فى إقامة قصورهم ونقشها ، ولكنهم خالفوهم في اتخاذ مادة البناء من الرخام والمرمر الجميل المستخرج من جبالهم ينحتونه نحتاً بديعاً ويصلقونه صقلا عجيباً . وجعلوا اسقف الحجرات من الخشب المنقور المطلى بالالوان الزاهية والمكسو بصفائح المعادن المختلفة ، ومما انفردوا به الاعمدة الحجرية الرشيقة وأعجب ما فيها أنها كانت طويلة طولا مفرطا (٣٥) قدماً فكانت كجذوع النخل ، وذلك لانها كانت لا تحمل فوقها إلا حملا خفيفاً ، إذ أن أبنيتهم العلوية كانت من الخشب . ولذا كانت تجمع الى العظمة والاتقان والجلال شيئا كثيراً من الظرف والجمال والكمال ؟